



اغتيال الفكر

عندما يعجز المستلّطون عن اغتيال البشر وتصفيتهم جسدياً فإنّهم يغتالونهم فكريّاً، فالرجل يغتالون رجولته، والمرأة أنوثتها، والشباب عنفوانهم، والإنسان إنسانيّته! من هنا.. لا بدّ من النهوض بوعي الأمة الإسلامية - على الخصوص - ليصل إلى أعلى مستوياته لتحسينها من أن يتسلّط عليها المتسلّطون فتقع فريسة وألعوبة أطماعهم.

فليست المشكلة في اغتيال الأشخاص والتخلص منهم؛ لأنّهم يدركون أنَّ اغتيالهم لا يحيي فكرهم؛ فلذا أعدوا العدة وخطّطوا لزلزلة الفكر كخطوة أولى لاستبداله بفكر خالٍ من أيٌّ معنى، هذا إن لم يتحول الفرد إلى خواء لا يفقه إلا ما بين سرّته وركبته من بطنه وفرجه، ومن كان هذا همه فلا قيمة له^(١)، ومن كان كذلك عاش بلا إنسانية.

أظنُّ أنَّ شيئاً ممّا أريد إيصاله قد برب من كلامي؛ حيث إنَّ الشعوب باتت تصدق في كثيرٍ من الأحيان ما يُلقى إليها من فكر سقيم قد خلط بشيء من المصطلحات والأفكار البراقة التي يسيل إليها لعب المهزوم من يعيش الفراغ الفكري، فتراه يستقبلها وينظر إليها، ويروّجها بلا شعور

بأشرها السليبي وبغفلة أو تغافل عمّا تحدثه من تهافت وتناقض بين كلامه وسلوكياته، ومثال على ذلك: أن يصدق أكذوبة الصقت فيه وأنه إنسان متخلّف يعيش في الدول النامية من العالم الثالث الذي لا يمكنه القفز إلى العالم الأول الذي يتمتع بالقيادة السياسية والصناعية والاقتصادية... وليته يكتفي بالتصديق، بل يساهم في عملية قتل الإبداع والتميز عند غيره من أفراد أمته بدلًا من أن يؤسس فكرًا مشجّعاً للجميع كي يبدع كلُّ في مجاله ويعطى من نفسه وفكره لأمته.

ولا شكَّ في أنَّ هذا مؤثِّرٌ على الفرد في كلِّ مجالات حياته بلا فرق بين مجال وآخر؛ لأنَّ الفكرة واحدة وهي أنَّ الفرد ما دام قد اختار غير ما يريده هؤلاء المسلطون فهو إنسان متخلّف على كلِّ المستويات، ويحتاج إلى السنوات الضوئية كي يخرج ممَّا هو فيه، وعليه أن يغيِّر ملبوسه وأكله، وحتى أسلوبه في الكلام كي يحاكي تحضُّرَهم وتقدُّمَهم، وما هو واضح أنَّ كثيراً من ذلك يعني أن يترك معتقده وتدرينه كي يتخلَّص من ذلك الانهزام الفكري الذي أُوقع فيه، وليس هذا إلا اغتيالُ لفكرة.

أساليب الاغتيال الفكري:

تتعددُ الأساليبُ وتتنوعُ وتشتَّدُ فعاليةً وخطورةً فيما بينها، وأعلاها خطورةً - مما يمارس على الشعوب الإسلامية - هو التشكيك في المعتقدات الدينية والسعى لمحو الإيمان بالله تعالى، ولا شكَّ في أنَّ هذا لخطيرٌ عظيمٌ جداً لما نعلم من أنَّ السلوك لا بدَّ من أن ينشأ من فكرة فإذا تغيَّرت تغيَّر السلوك.

ومن هذه الأساليب: خلق النماذج المشوّهة ورعايتها على أنها نماذج للإسلام كي يتصور الفرد - المسلم فضلاً عن غيره- أنَّ صورة الإسلام متمثلة في هذه الجماعة المنحرفة التي كان آخر نماذجها داعش، وأمثال أولئك الذين يتلبّسون - زوراً- بلباس العلم والعلماء ويُظهرون في وسائل الإعلام بسماجة لا يطيقها عاقل، فلا حاجة حينئذٍ لأن يبحث عن الإسلام ويطلّع عليه! فيأخذ الإسلام من خلال هؤلاء، ومن خلال نظرات غير المسلمين أو المنحرفين السذج من المسلمين.

ومنها: استخدام المصطلحات الفضفاضة من قبيل الحرية والانفتاح والحضارة، وكذا نشر جملة من الأفكار التي يحسن رونقُ صياغتها، ويخبّط واقعها ومضمونها إذا ما طُبّقت، وهذه الأساليب في الغالب تُسلط الضوء على الجانب الأخلاقي لا سيّما ما يرتبط بالتصرفات الخاصة بالفرد من قبيل ملبيه وكلامه وأفكاره الخاصة ومعتقداته، وغيرها من الأساليب.

الحل بيديك:

نعم أنت قادر على أن تغيّر هذا الواقع بعد أن تُعمل دورك وقدراتك التي وهبك الله إياها.

واعلم أنَّ لك هدفاً لا بدَّ من الوصول إليه تحتاج إلى تحقيقه على كلِّ المستويات وهو عبادة الله التي تتمثل بإجاده العلاقة مع الله والنفس والناس، فإذا ما تحقّق هذا الهدف عجز أعداؤك من المسلمين - فضلاً عن غيرهم- أن يغتالوا فكرك.

فَأَمّا إِجادَةُ الْعَلَاقَةِ مَعَ اللَّهِ فَأَنْ تَعْرِفَهُ بِالْمَقْدَارِ الَّذِي يَجْعَلُكَ تَؤْمِنُ بِهِ
وَتَصَدِّقُ أَنَّهُ خَالِقُكَ وَمُوَجِّدُكَ مِنَ الْعَدَمِ؛ فَلَهُ حَقٌّ عَلَيْكَ أَنْ تَطْبِعَهُ فِيمَا
أَمْرَ بِلَا تَرْدُدٍ أَوْ تَوَانٍ، وَمَا يَنْبَغِي فَعْلَهُ: أَنْ تَدْرِسَ تَعَالَيمَهُ -مِنَ الْعُلَمَاءِ
الْعَامِلِينَ- لَا سِيَّما تَلْكَ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى تَطْبِيقِهَا فِي غَالِبِ أَيَامِكَ مِنَ
الْمَسَائِلِ الْعَبَادِيَّةِ وَالْعَامِلَاتِيَّةِ وَالْعَقْدِيَّةِ، لَا تَلْتَقِطُهَا كَيْفَ مَا اتَّفَقَ، وَمَنْ أَيّْ
مَصْدَرٍ كَانَ.

وَأَمّا إِجادَةُ الْعَلَاقَةِ مَعَ النَّفْسِ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًا؛ وَهُوَ أَنْ
يُبَعِّدُ عَنْهَا الشَّرُورَ وَالْأَضَارَ وَتَجْلِبُ لَهَا الْمَنَافِعَ وَالْخَيْرَاتِ، وَلَا سِيَّما تَلْكَ
الْمَنَافِعَ الَّتِي أَرْشَدَكَ اللَّهُ إِلَيْهَا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَذَا الْحَالُ فِي الْأَضَارِ،
وَيَجْمَعُ ذَلِكَ كُلُّهُ أَنْ تَسْعَى جَاهِدًا فِي الْوَصْولِ إِلَى أَعْلَى درَجَاتِ الْكَمالِ
الْمُنَاسِبِ إِلَى فَطْرَتِكَ وَإِنْسَانِيَّتِكَ.

وَأَمّا إِجادَةُ الْعَلَاقَةِ مَعِ النَّاسِ فَأَنْ تَعْرِفَ أَنَّهُمْ صَنْفَانِ: أَخُوكَ فِي الدِّينِ
أَوْ غَيْرِهِ^(٢)، وَلَكُلِّيَّمَا حَقٌّ عَلَيْكَ مِنْ حَفْظِهِ وَرَعَايَتِهِ مَهْمَا أَمْكَنَ وَتَوْجِيهَهِ
إِذَا أَخْطَأَ، كَمَا أَنَّهُ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفَعَ مِنْ قَدْرِهِ وَأَنْ تَحْتَرِمَ عَقْلَهُ، وَأَنْ تَدْفَعَ بِهِ
لِلْخَيْرِ لَا لِلْشَّرِّ، وَأَنْ تَعْاملَهُ بِالْحَسْنَى مَا اسْتَطَعْتَ..

كَمَا أَنَّ عَلَيْكَ أَنْ تَنْشِرَ الْوَعْيَ فِي الْجَمَعَةِ مِنْ خَلَالِ مَجَالِكَ الْعُلُومِيِّيِّ
وَالْوَسَائِلِ الْمُتَاحَةِ لَكَ فَضْلًا عَنْ بَيْلَاتِ الْبَحْثِ الْعُلُومِيِّيِّ وَالنَّدِوَاتِ الْفَكْرِيَّةِ
وَمَا شَاكِلَ مِنْ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ الَّتِي تَصْدِّي لِلْفَكْرِ الْهَدَامِ عَنْ أَنْ يَتَغلَّلُ فِي
عَقْوَلِنَا وَيَغْتَالُ فَكْرَنَا، فَمَا دَمْتَ فِي حَرْبِ فَكْرِيَّةِ فَلَا بَدَّ مِنَ الْمُجَاهَةِ
الْفَكْرِيَّةِ.

وإن تقاعست الجماعات لم يسقط عن الأفراد، وأنت منهم.

الهوامش:

(١) إشارة إلى الحكمة المنسوبة إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام: «من كان همه ما يدخل في جوفه كانت قيمته ما يخرج منه» نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد، ج ٢٠، ص ٣٢٠.

(٢) إشارة إلى ما ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «فإِنَّهُمْ -أيُّ النَّاسِ- صَنْفٌ: أَخْ لَكَ فِي الدِّينِ، وَنَظِيرٌ لَكَ فِي الْخُلُقِ» نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد، ج ١٧، ص ٣٢.

تساؤلات

حول بعض القضايا الاجتماعية

حوار مع الشيخ عبد الرؤوف حسن الربيع حَفَظَ اللَّهُ عَنْهُ ^(١)

حاوره: الشيخ عزيز حسن الخضران

هناك مسائل كثيرة مهمة يحتاج المجتمع المؤمن إلى طرحها، منها ما يتعلّق ببعض المسؤوليات الاجتماعية، ومنها ما يتعلّق ببعض المشاكل الاجتماعية التي تحتاج إلى تداول للمساهمة في حلها، ووعية الناس بها، ومن هنا كان هذا الحوار مع المشرف العام لمجلة (رسالة القلم) سماحة الشيخ عبد الرؤوف الربيع حَفَظَ اللَّهُ عَنْهُ، فإليكم نص الحوار:

المسؤولية الاجتماعية:

❖ في بداية هذا الحوار نتشرف بكم ونشكركم سماحة الشيخ العزيز لقبولكم إجراء هذا الحوار حول عنوان القضايا الاجتماعية، ونببدأ بهذا السؤال المتعلق بمسؤولية المؤمن الاجتماعية، نسمع دائمًا بأنَّ الإنسان المؤمن مسؤولٌ عن مجتمعه، ولا ينبغي له الانكفاء والتهرُّب من المسؤولية، ما هو الدليل على وجوب أنْ يتَحَمَّل المؤمن مسؤولية غير مسؤوليته الشخصية عن نفسه وعن أهله وعياله؟

* أَعُوذ بالله من الشيطان الرجيم بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وأَفْضُل

الصلوة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين المبعوث رحمة للعالمين محمد وآلهم الطيّبين الطاهرين.

في البداية أتقدّم لكم بالشكر الجزييل على هذه الفرصة وأتمنّى لكم التوفيق والمزيد من العطاء.

المؤمن يشعر بالمسؤولية الدائمة تجاه مجتمعه، وهو ناتج من اعتقاده بأصل التكليف والهادفة في الحياة، وبأنه عبدٌ خلقه الله سبحانه وتعالى لعمراً الأرض وخلافتها وتحقيق الكمالات العالية فيها، إذ أن من الواضح أن ذلك لا يحصل إلا بالانخراط في أوساط المجتمع والتعامل الإيجابي مع مؤسّساته وبرامجه، بل لو لاحظ الفرد منا نفسه وأراد الحفاظ عليها وتوفير فرص السلامة والخير لها هل يمكنه ذلك بعزلٍ عن الاحتكاك بالآخرين؟ فهو يعيش مع المجتمع ويتعامل ويدرس ويبني العلاقات مع سائر الناس في المجتمع، وجزء كبير من احتياجاته المادية والنفسية يتلقّاها من الأوساط العامة فكيف يتسلّى له التناصل عن دوره في المجتمع والحال أنه جزء منه وينعكس عليه كلّ ما يجري على غيره؟!

والحاصل أنَّ الإنسان حتَّى يحافظ على نفسه فإنه لن يستطيع إلا عبر الحافظة على الدائرة الأوسع لأنَّه جزءٌ منها، وإذا صار المجتمع صالحًا فإنه بالطبع يكون صالحًا، ويكتننا التعبير عن المجتمع بالمرْكَب الذي يشترك فيه الجميع ليبحروا في أمواج الحياة المتلاطمة بحيث لا يتحرُّك ويصل إلى المقصود المطلوب إلا بقيام أفراده بمسؤولياتهم وواجباتهم، وأنَّ أيَّ تقصير في هذه الوظيفة المشتركة ستؤثِّر سلبيًّا على الكلِّ.

وعليه فحرص الشخص على سلامته نفسه هو الذي يدعوه من

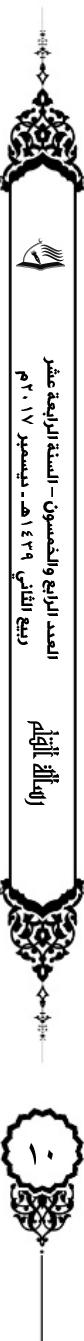
جانب آخر إلى الحرص على سلام نفوس الآخرين وإصلاحهم إلى الجنة، فيصبح اهتمامه بصالح الناس والمجتمع من صلب اهتمامه بنفسه، وهذا هو هدف مجتمع التوحيد.

مداخلة: عفواً شيخنا: يمكن القول بأنَّ هذا الكلام هو دليل عقائدي على أنَّه لا بدَّ للإنسان أنْ يشترك في المجتمع ويتحمل المسؤولية، فهل هناك أدلة يمكننا استفادتها من القرآن أو الروايات مثلاً تحتُ على المسؤولية تجاه المجتمع؟

طبعاً موجود وكثير؛ ويعين تلمُّس ذلك من الإطلاقات في بعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى: ﴿فَوَرِبَكَ لَسَأَلَّهُمْ أَجَمَعِينَ﴾^(١)، أو ﴿وَقُفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾^(٢)، ومن طائفة الآيات التي تحت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأمثالها من التكاليف الاجتماعية أو التي تحت على الوحدة والتكافف بين المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْرَوْهُ فَاصْلُحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُم﴾^(٣) وغيرها.

ومن السنة الروايات التي تؤكّد على المسؤولية الجماعية كالتالي تروى عن الأمير عليه السلام: «كُلَّ امرئٍ مسؤولٌ عَنْ ملَكَتِ يَمِينِهِ وَعِيَالِهِ»^(٤)، أو التي تصف المؤمنين بالجسد الواحد كما عن إمامنا الصادق عليه السلام: «المؤمنون في تبارّهم، وترابّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكي تداعى له سائره بالسهر والحمى»^(٥)، وأمثالها، وهذه المسألة في غاية الوضوح ولا تحتاج إلى مزيد من البيان، وسيرة المؤمنين وروح الإسلام وتكاليفه الجماعية والاجتماعية -كصلاة الجمعة والجماعة والحج والعزوة والزكاة الخ- شاهدة عليها.

نعم تتفاوت هذه المسؤولية من حيث الشدة والضعف والأهمية، فقد تكون إلزامية وواجبة في بعض الحالات وقد تكون دون ذلك.



هل تختص المسؤولية بطلاب العلم؟

❖ هل المسؤولية الاجتماعية تختص بطلاب العلم فقط كما يتصور بعض الناس، أم تشمل غيره من المؤمنين؟ وما هي طبيعة هذه المسؤوليات الملقاة على عاتقه إن وجدت؟

المؤسلية لا تقف على شخص دون آخر، ولا ترتبط بكون هذا الفرد طالب علم أو غيره... فهي مسؤولية كل مؤمن وإنسان يدعي أنَّ لديه اتِّباعُ الله ولشرعه، وأنَّه غيورٌ على دينه وأهداف الدين ولا يوجد استثناء، وإنما صار التركيز على طالب العلم في بعض الجنبات من ناحية موقعه وصدراته في المجتمع وكونه المتحدث الأوَّل عن الدين والتكليف والشرع، وإلا إذا قلنا أنَّ المسؤولية التربوية في الأسرة والبيت هي على عاتق الأبوين فهل ننتظر أن يأتي طالب العلم لكي يحلَّ بدلاً عنهمما في أداء وظيفتهما!!، ولو اتفق أن نشأت مشكلة بين طالب ومدرسته أو بين جار وجاره أو زوج وزوجة أو تفشت ظاهرة سيئة وما شابه ذلك فهل تتوقع أن الجميع يجلس يتفرَّج وتنحصر المسؤولية في العلاج على طالب العلم، فهذا غير ممكن ولن يسعه تغطية كلَّ هذه المشاكل، فالكلَّ مسؤول بقدره وبحجم تأثيره وموقعه، نعم أكيد أن دور طالب العلم يكون في الطبيعة بلحاظ موقعه وتأثيره على الناس ولا يعني انحصر المسؤولية به.

ولو أردنا أن نذكر ظاهرةً واقعيةً كمسألة الحجاب أو العفة للفتاة مثلاً فلطلاب العلم أن يحيث المجتمع على رعاية هذا التكليف ويتابع مع أولياء الأمور الأسلوب الناجح لإقناع فتياتهم ولكن إذا لم يتعاون معه نفس

ال المجتمع في ترسیخ هذه الفكرة وإذا لم يتجاوب معه الآباء في إيصال صوته ورسالته بالتأكيد لن يتمکن من فعل المطلوب، كما أن الأدلة السابقة التي تتحدث عن مسؤولية الناس في المجتمع لم تفرق بين طالب العلم وغيره من أفراد المجتمع.

♦ كثيرون من طلبة العلم نراهم مبتعدين عن المجتمع، وفي المقابل هناك نماذج مشرفة طول التاريخ، بماذا تجيب بعض الناس الذين ينتقدون طلبة العلم كافة لوجود بعضِ منهم بعيدٍ عن المسؤولية؟ وماذا تقول من يُؤخذ ذلك ذريعةً للهروب من المسؤولية؟

هذه المسألة لا بدّ أن نلتفت إليها من عدة زوايا:

أولاً: اتهام طالب العلم بالتقدير إذا كان ناتجاً من تخيل انحصر التكليف وأداء المسؤوليات به وتبرئة ساحة غيره عنها فهو بالتأكيد مجاف للصحة لأنّه ناجمٌ من تصوّر خاطئ بالأساس.

ثانياً: وإذا كان ناتجاً من كثرة القضايا والتحديات التي هي فوق طاقة ووسع وقدرة طالب العلم فلا بدّ أن نصفه ولا نحمله ما لا يحتمل؛ إذ لا ينشأ الخلل من تقديره حينئذ.

إلا أن السؤال يبدو أنه لا يتحدد عن هذين الأمرين فيتركز ذكرهما للتنويه فقط.

ثالثاً: تقاعس بعض طلبة العلم عن أداء واجبهم الاجتماعي لا ينبغي أن يسحب ويرُر على الجميع فهذا من الظلم، وهذا التقدير موجود في كلّ الفئات الأخرى، فينبعي أنّ نخصّ الانتقاد للفئة المقصّرة منهم فقط؛ وإلا فهم تحملوا على مدى التاريخ صنوفاً من المشاق والمتابع وضحاها

بأنفسهم في سبيل خدمة الدين وأهله حتى حافظوا على شعلة الإيمان
وهاجة وحية في نفوسنا إلى يومنا هذا ولا زالوا يقدّمون، ولو لا جهاد
المخلصين منهم لاندرست الشريعة.

رابعاً: ابتعد بعض طلبة العلم عن ساحة العمل الاجتماعي عمل غير مبرر وهو غريب عن مفهوم التكليف والمسؤولية المتلقاة من الشرع وتعاليم أهل بيته العصمة والطهارة عليهما السلام، فلم نسمع بإمام معصوم أو عالم حقيقي مخلص ينتمي إلى هذه المدرسة الأصيلة قد انكفا في بيته وعزف عن قضاء حاجات الناس وحل مشاكلهم، بل المعروف عن حقيقة دور طالب العلم أنه نسخة مصغرّة عن دور الأنبياء والأولياء عليهما السلام، فهو على الدوام يراقب ويواكب ما يجري في المجتمع ويتحسّس ما يجري فيه ويتفقد آلام وأحساس الناس ويدخل في عمق ما يبتلون به يومياً؛ فيسعى في تخفيف آهاتهم، وامتصاص همومهم، وفضّل نزاعاتهم بتهئة الأطراف والبحث عن الشيء النصف، وهذا ما ينتظره المجتمع منه ويأمله فيه، وبالذات في المساحة التي لا حظ لهم فيها وتفتقر إلى تشخيص التكليف.

وبالتالي فالمطلوب من الطلبة -وأنا أقلّهم- الاهتمام بهذه المساحة وهذا الدور العظيم؛ لأنّها هي جزءٌ من الغاية الكبرى التي على أساسها كان انطلاقنا إلى طلب العلم.

خامساً: إنّ أداء التكليف والنهوض بالواجب هو بالأصلّة تعامل مع الله تعالى وليس مع الناس، والمنظلق فيه يجب أن يكون الحبّ والطاعة لله وللإخلاص والتفاني في نيل رضاه، وهذا هو ما تعلّمناه من سادتنا وقادتنا الإلهيّين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا

شُكُورًا^(٧)، وبالتالي لا حجّة لمن تذرّ عن أداء دوره بداعي تذمّر الناس وذمّهم فهذا نوع من المروّب عن المسؤولية.

طالب العلم المبتدئ:

❖ لا زال المجتمع المؤمن بشكل إجمالي -ولله الحمد- يكن احتراماً خاصاً لطلاب العلم خصوصاً للعالم العامل، السؤال يتعلّق بطالب العلم المبتدئ، كيف يجب عليه أن يتصرّف مع هذا العنوان الجديد الذي تلبّس به، سواء كان له حضور سابق في المجتمع أم لا؟ وكيف يجب على المؤمنين التصرف معه؟ يقدمونه في كل شيء؟ أم يختبرونه أولاً؟ أم ماذا؟

أمّا بخصوص القسم الأول من السؤال:

أتصرّر بأنّه لا ينبغي لطالب العلم المبتدئ أن يستعجل ويدخل للمجتمع في كل أبوابه -وهذه نقطة مهمة-، بل لا يدخل إلا في الباب الذي قد صار وارداً فيه كالتعليم المسجدي ودروس الأطفال فهذا المقدار من المفترض أن يكون متمكناً منه.

أمّا أن يدخل في كل القضايا الاجتماعية ويتصدّى للجماعة أو يقرّ القرارات المصيرية -التي تتطلّب المستوى الرفيع من العلم والتجربة والخبرة والتي قد يحتاج في بعضها إلى تشخيص فقيه- فهذا التصرّف يضرُ أكثر من أن ينفع، فأقل ما يقال إليه أنه لم يصل إلى مرحلة يقدر بها أن يفرق بين الصالح وغيره، ولكن بدارسته الحوزوية وتقديمه في سلم الدرس واحتكافه مع أهل العلم سيتوافّر على الأهلية بالتدريج وستنفتح عليه الكثير من الآفاق بعد ذلك.

وهنا نقطة جديرة بالتأمّل، وهي أن المجتمع قد يقوم برفع شخص



سريراً بأبسط مزية ولو لنفس الشروع في طلب العلم ولكنه أيضاً قد ينزله سريعاً لأدنى خلل، فإذا استعجل طالب العلم في تولي المسؤوليات فمن الطبيعي جداً أنه سيواجه التحديات الصعبة، فلو تلّكاً في واحدة منها فربما يسقطه الناس من أعينهم مباشرةً ولا يسعفه كونه طالباً في تلك اللحظة، فالذي يرتفع سريعاً يهوي سريعاً أيضاً وهذه سنة الحياة، خاصة إذا لاحظنا أن الطالب يكون مرصوداً ومراقباً في عامّة سلوكياته وتصرّفاتـه.

أما الشقُّ الثاني من السؤال وهو المرتبط بطبيعة تعاطي المجتمع مع طالب العلم المبتدئ فهو كذلك ينبغي عليه أن لا يستعجل، ولا تقوده ثقلُ الحاجة الاجتماعية إلى التوسل بأيّ شخص في سدهـا ولو كان عبر المبتدئ، إذ اللجوء إلى الطالب الحـدث مفيدٌ في تسخير بعض الأمور والمشاريع بصورة عاجلة أحياناً إلا أنه مع مرور الوقت فقد يكون ضرره بالغاً، باعتبار أنَّ المجتمع قد يتعرّض إلى منعطفات خطيرة تحتاج إلى موقف وتشخيص دقيق وإلى شخص ذي بصيرة وخبرة كافية وهذا ما يفتقدـه المبتدئ عادةً، أو يضطر المؤمنون أحياناً إلى إزواءـ هذا الطالب وتجاهله بعد أن ساهموا هـم أنفسـهم في إبرازـه وإعطائه هـالة مميزةـ وهذا ما لا يكون مناسباً.

ثم إنـ هنا توصية من الـضرورة أنـ يعيـها المجتمع، وهي أنـ لا يطلب من طالبـ العلم فوقـ مستوىـه؛ فلا بدـ من التـفرقـ بينـ من استغرقـ مثلاً عـشرينـ عامـاًـ فيـ الحـوزـةـ وقدـ أثبتـ جـدارـتهـ وأصبحـ عـالـماًـ ثـقـيلاًـ وبينـ منـ كانـ مـبـتدـئـاًـ فيـ أـيـامـ درـاستـهـ الأولىـ، فلاـ يـنـبـغـيـ تحـمـيلـ الثـانـيـ كماـ يـحـمـلـ الأولـ، بلـ يـؤـخـذـ منهـ بـقـدـرـ المـسـتوـىـ الوـاصلـ إـلـيـهـ، وأـتـصـورـ بـأـنـ المجتمعـ

يحتوي على مقدار من الوعي في ذلك لا بأس به، وإن كان يحتاج إلى مقدار منه أكبر.

نعم، لا ننكر وجود الاستثناءات، ففي بعض الأحيان يوجد فردٌ مبتدئ لكنه صاحب ملكات خاصةً ومحفوظةٍ يشهد بها الجميع، فلا يعد تقدیمه بما يناسب ملكاته حينئذٍ مجانبٍ للصواب.

الحضور في المجتمع:

♦ من الملاحظ في عصرنا الحاضر عند فئة غير قليلة من الناس أنهم يكونون حاضرين وبشكل فعال في وسائل التواصل الاجتماعي -خصوصاً الواتساب- ولكنك لا تجدهم في المجتمع على أرض الواقع، بل ربما تمرُّ شهور والشخص مخفي عن الناس، ما تقييمك لهذه الظاهرة؟ وما هي أسبابها؟

لا يوجد في الأساس مشكلة فيما إذا تخصص شخصٌ ما في بعض الحالات والطرق في إيصال المعاية إلى الناس، فإذا كان هو مبدعاً في العالم الافتراضي فلا عيب في ذلك لو اقتصر على هذا الجانب في التبليغ دون غيره ولكن شريطة أن يوجد من يغطي عنه -من الآخرين- سائر الجوانب الأخرى، فإذا كان من باب تنظيم وتوزيع الأدوار فلا توجد مشكلة، فكلما تخصصَ الفردُ في جنبة معينة فإنَّ النفع يكون أكبر.

إلا أنَّ المشكلة تقع فيما إذا تحول الدور الرئيسي للمؤمن في انعزاز الناس والاكتفاء في التواصل معهم بالرسائل ووسائل التواصل الاجتماعي، فهنا يقضي على دوره الفعال والحيي ويستعراض بدلاً عنه بدورٍ باهتٍ وضعيف لا يعكس إلا مقدارٍ يسير من فوائد وغيارات تواصله المباشر.

فوسائل التواصل الاجتماعي بالرغم من كونها مفيدة وتحتقر المسافات

وتسمم في السرعة في انتشار الخبر والمعلومة إلى الناس إلا أنّ لها مضاراً أيضاً لا أحد ينكرها؛ لأنّها تجعل من الشخص لا يواجه المجتمع بالصراحة، ولا يتلمس حاجاته بالمخالطة، بل يكتفي بالشاشات ولوحات التحكم فهذه في بعض الأحيان يكون فيها الفرد سليباً -لا سيّما في بعض الموضع كما في حالة المرض-؛ فإنّه فرقٌ كبيرٌ على مستوى المشاعر وتدفق الأحساس بين الزيارة المباشرة للمرضى والحضور الشخصي له وبين الاقتصار على إرسال رسالة مواساة عابرة عبر وسائل التواصل، وبالتالي نقول بأنّ مثل هذه الوسائل مهمة في حد ذاتها إلا أنّ الحاصل في المجتمع أنّها تجعل هي الأساس ومعتمد فتسطو على بقية الحقوق والواجبات باعتبارها البديل المريح عنها، وتفاقم هذه الحالة يعني بقاء نسبٍ كبيرة من المشاكل والضغوط النفسية والقضايا الاجتماعية بدون حل.

والإنسان خلق لكي يتعارف ويجتمع مع الآخرين، فإذا غطّت الرسالة أو الصورة عبر الوسائل الحديثة مقداراً من هذا الاجتماع والتعارف فإنها لا تسدّ وتغطي حاجة المدار الآخر -الذي هو أكبر وأهم-.

❖ مداخلة: أحسنتم شيخنا، لكن أليست القضية أوسع من مجرد مسألة حل المشاكل؟ أليس نفس حضور الشخص في المجتمع من خلال المسجد أو المأتم أو بين المؤمنين أصل هذا الوجود .. ألا يكون شبه تكليف اجتماعي إن صاح التعبير..

نعم، لا بدّ من الحفاظ على المظاهر الاجتماعية؛ لأنّها هي مصدر الراحة والصحة النفسية للمجتمع، وهذه البيئة الصالحة هي التي ينمو فيها الإنسان المؤمن فهو صحيحاً، وبالتالي فإنّ أيّ خروج عن هذه الدائرة سيسبب نوعاً من النقص، ووسائل التواصل لا تغطي إلا مقداراً يسيراً

جداً من الواجبات الاجتماعية، بل هي عاجزة عن تلبية جملة من الحاجات الخارجية للمؤمن أحياناً، فكم من عقدة نفسية لا تعالج إلا بالحضور المباشر وكم من فعالية وعبادة لا تؤدي إلا بصورة الاجتماع الواقعي كما هو الحال في العبادات الجماعية كصلاة الجمعة و المجالس الإحياء والذكر، ناهيك عن أن نفس الحضور والتجمع في هذه المحافل يمثل مظهراً للوحدة والتآلف ومصدراً للسعادة والاطمئنان وراحة البال، ويشكل رعباً للأعداء الذين يرهبون مثل هذه المجتمعات ويخشونها ولذا هي أول ما يسعون لمحاربتها.

دور التزاور والمجتمعات العبادية في تقوية العلاقات الاجتماعية:

♦ التزاور بين المؤمنين من العبادات المهمة التي وردت فيها كثيرٌ من الروايات، ما هي الآثار الإيجابية لهذه العبادة الاجتماعية -إن صحَّ التعبير؟ وكيف نحافظ عليها عن الضعف والضياع؟

قبل أن نسأل عن كيفية الحافظة عليها فلا بدَّ من الإشارة إلى حجم الخطورة من تركها، فالمجتمع لحمةٌ واحدة، فإذا صار تقصيرٌ في جنبةٍ من جنباته كترك التزاور وأدى ذلك إلى زيادة التوتر والضغط النفسي عبر أفراده، سيسبب متاعبَ من جهات أخرى تنشأ من هذه الزيادة، فيصير المجتمع بؤرة لتركيز الكثير من العقد والمشاكل التي تتضاعد، والفرد إذا بقي لوحده وأصابته الهموم والغموم وبقيت في صدره ولم تخرج فإنَّ هذا الفرد سيكون -مع مرور الوقت- معرضاً للانفجار أو الانهيار في أي وقت مما يؤدي إلى قلةِ حيوائه وابتسماته واحتضانه وأعصابه، مما ينعكس على أهله وأولاده، وعلى المراجعين إن كان موظفاً مثلاً، وسينعكس على أيٍّ تصرُّفٍ يصدر من الآخرين.. وهذا ما يولد مشاكل إضافية على ما عنده من مشاكل.

لكن لو عملنا بالمحرى الطبيعي لعلاج هذه المظاهر كالتزاور الذى يساهم في تخفيف الضغط والتعب الموجود في النفس فلا شك أن المبتلى بهذه المسائل سيكون أكثر حيوية واستعداد للتفاعل مع الآخرين والتجاوب معهم بأريحية.

وقنوات التواصل المذكورة لو أمكن استغلالها في الترويج للتزاور بدلاً أن تأخذ مكانه لكن بالتأكيد أفضل وأكرم وأبهج للمزور.

❖ نلاحظ أن بعض العبادات الشرعية قد ركز الشارع المقدس عليها كثيراً وفيها جنبة اجتماعية كصلة الجمعة أو الجمعة مثلاً، لماذا اهتمام الشارع بذلك؟ ولماذا يستغل الشارع العبادة في تقوية الجانب الاجتماعي؟

باعتبار أنّ من أهمّ عناصر القوّة في الدين هو كونه مجتمعاً متمسكاً، ويدون إيجاد هذه العبادات الجماعية فقد لا نتوجّه إلى أهميّة التجمع وضرورة كون أيديينا واحدة وأن في العبادة المشتركة التي تؤدي في زمان ومكان واحد مضمّنين وبركات عالية.

فهي أولاً: رسالة إلى أعداء الدين بأنّ المؤمنين بينهم حالة اتحاد بتمسّكهم، وأنّ نفس التجمّع هو استناد وتأزر، وأنّ المنتمي لهذه الجماعة لا يستشعر بالاستفراد والضعف، بخلاف من يعيش لوحده؛ فإنه سرعان ما ينكسر ويُسيطر عليه، فاستقواء الجماعة ببعضها يكون متبدلاً، فهذا يستقوى بذلك والآخر كذلك، فيكون من مظاهر العزة والكرامة.

ثانياً: إنّ هذه التجمعات مفيدة للتعرّف عن كثب ويتلمس واقعي عن أحوال الناس وقضاياهم المثارة، والتحليلات الموجودة حولها، وهذه المعلومات نافعة جداً وقد لا تزال بغير هذه الطريقة.

ثالثاً: هذه العبادات الجماعية هي وقاية للإنسان من الوقوع في الانحراف؛ لأنَّ الإنسان إذا عاش في أوساط جماعية فهو يحسُّ بوجود أكثر من عينٍ رقيبةٍ عليه، فإذا صدر منه خللٌ فإنَّ غيره ينبعه على ذلك مما يعزز حالة التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهذا يظهر أيضاً في حالات الأزمات والنكبات؛ فإنَّ هذه المظاهر الجماعية تعين على شد العضد والأزر والمحث على التحمل والصبر ومواجهة كل التحدّيات وإن عظمت -وما أكثر الأزمات التي يبتلي بها المؤمن-، والخلاصة: أن وجود مثل هذه العبادات هو نوع من المحسنة وتفریغ الهموم والشحنات والأتعاب.

رابعاً: إن هذه العبادات تتأثر إيجاباً بزيادة العدد، إما من ناحية الشواب كمضاعفة ثواب المصلين في صلاة الجمعة كلما ازدادوا، وإما من ناحية الجو الروحي الذي يبرزه نفس التفاعل المشترك وهيبة المجتمع وبركة أنفاس المؤمنين.

❖ كانت ولا زالت بشكلٍ آخر ما يسمى (الرحلات الجماعية) لأهل القرية أو للمجموعات الشبابية بأن يذهبوا لمخيم مثلاً أو بركة سباحة أو حديقة عامة، هل تؤيدون مثل هذه الرحلات؟ وهل تحثون كبار السن في المشاركة فيها؟ ولماذا؟

أماماً بخصوص أصل هذه الرحلات فهي مطلوبة في حد ذاتها؛ فهي باب واسع للتنفيس بالنسبة للمؤمنين، وهي باب واسع للتعرُّف على الآخرين؛ لأنَّ في مثل هذه الرحلات تُرفع بعض الحاجز بين الإخوان، مما يساهم في تقاربهم وتألفهم، ويعطى الفرد فرصة أكبر لاكتشاف الآخر، وأنت في المجتمع تحتاج إلى التعرُّف على طرق التعامل مع الآخرين، ومثل

هذه الرحلات تساعده على هذا الأمر، وقد تتعزّف من خلاها أيضًا على الطريقة المناسبة للتعامل مع هذا أو ذاك.

وكذلك فإنَّ هذه الرحلات بابٌ لحلٍّ بعض القضايا الاجتماعية؛ ففي مثل هذه الأوقات تأنسُ فيها النفوس وتكون مستعدة لتقبيل الآخر وتقبل التغاضي عن زلَّات الآخرين، كما أنها تساعده في إيصال بعض المفاهيم الصحيحة، وإعانته من يحتاج إلى ذلك للأخذ بيده إلى سبيل الهدایة.

كما أنَّ هناك أشخاصٌ قليلو الكلام، ولا يبِثُون ما بهم من هموم بسهولة، فمن خلال هذه الأجواء من الممكن أن تدخل الراحةُ على نفوسهم وتحفَّزُهم على التعبير عمّا يجول في خواطِرِهم فتغدو فرصة لحل مشاكلهم.

أمّا أنه هل ينبغي للكبار السنّ أن يشاركو فيها فما المانع من ذلك طالما أنه لا يوجد محدود معين قد ينشأ بعض المحيطيات، ولا ينبغي أن يعزف الكبار عن رحلات الشباب إن أمكن؛ لأنَّ وجودهم أشبه ما يكون بالضامن؛ فهم أصحابُ خبرة وسنين من التجربة، فهذه فرصة لنقل تجاربهم إلى الآخرين.

وكذا للحفاظ على الرسالة الصحيحة لهذه الرحلات من الانفلات، وحتى لا تكون هناك تجاوزات وتنشأ بعض المحدودات، فوجود الحكيم القادر على التصرُّف بشكل لائق مهم في مثل هذه المجتمعات العامة.

دور الأسرة:

❖ يبدأ المجتمع القوي من الأسرة القوية، ما هي الأمور التي يمكن أن يزرعها الآباء في نفوس الأبناء والبنات لكي يكون لهم دور مستقبلي في المجتمع؟ وما هو السن الذي تبدأ التربية الاجتماعية معهم؟

أجيب أولاً عن الشق الثاني من السؤال:

التربية تبدأ من تربية الأب نفسه قبل أن يقدم على الزواج، ثم عندما يبدأ التفكير في الزوجة من جهة اعتبارها الحضن الذي سيضم الأبناء ويربيهم.

ثم يأتي بعد ذلك التفكير والتخطيط الصحيح لعقد النطفة، فلا بد من رعاية نشوئها من مال حلال ومن أكل حلال، ثم يتدرج الحال بعد ذلك في بناء البيئة الأولى للأبناء وهي محاط الأسرة الذي يلزم أن يكون هادئاً ومبنياً على التفاهم والابتعاد عن التشنجات العائلية والمشاحنات، فإن ذلك يساعد في هدوء النفسية مما يعين ذلك على التربية، وقد سُئل بعض الأشخاص الذين أنشؤهم من حفاظ القرآن الكريم عن بداية تنشئتهم على تعلم القرآن وحفظه فقالوا بأن البداية كانت في مدة الحمل حيث يكون صوت القرآن قريباً من الأم في غالب الأوقات، ولم ينقطع صوت القرآن عنه؛ فكان أثر ذلك بعد حين؛ حيث صار عند الأولاد قابلية كبيرة على فهم القرآن وحفظه، وكان كثير مما كان يحفظه هو استذكار وتشبيت لما اعتمد على استماعه.

أما مسألة التعليم فهذا متوقف على توفر الاستعداد عند الأولاد لذلك، فيرس لهم إلى جهة معينة أو يقوم هو بذلك.



وأما عن الشق الأول من السؤال فهو واسعٌ وأذكر جملة من الأمور المتعلقة به ممّا تطلبُ داخل البيت أو خارجه:

منها ما يرتبط بمسألة الأمان والأمان، فمن الخطأ أن يعيش الطفل حالة فقد الأمان، ويعيش الخوف والإرهاب عبر الضرب والتوعيد والصراخ، والعقاب السلبي الذي فيه التشفي والإهانة والحرمان الذي هو فوق كاهم الطفل، أو أن يتحول البيت إلى ساحة شجار بين الأبوين فينشأ الطفل مضطرباً ومرتباً يعيش القلق والخوف باستمرار.

فالالمأمول من الأسرة أن تكون سكناً فيه المودة والرحمة المتبادلة لا سيما بين الزوجين، فإذا لم يكن أحدهما يحترم الآخر فإنه يحفز الأولاد على عدم الاحترام لأبويهما، وكذا في مسألة الاختلاف فيما بينهما لا ينبغي أن يكون عبئاً للأبناء ويلزم أن يكون بعيداً عنهم حتى لا يتآثروا منه وتطبع فيهم العقد.

ومنها ما يرتبط بطبعية النظافة والنظام، وإدارة المنزل من خلال ترتيبه ونظامه وجمال هيئته فإنْ كان مليئاً بالفوضى فإنه يعين على عدم تنشئة الطفل على النظام والترتيب والاحساس بالمسؤولية، وقد يؤدي إلى حدوث نوع من النقص في استقامة الحالة النفسية والتعامل الطبيعي مع الناس، إذ أن عدم ترتيب البيت وحسن إدارته قد تسبب في عدم استقبال الضيوف والأصدقاء للأولاد فيصابوا بالخيبة وضعف الشخصية مثلاً.

ومنها ما يرتبط بلباس الأبوين المحتشم، فاللأم وإن كانت في بيتها لها الجانب الواسع والحريري في ارتداء ما تشاء إلا أنَّ هذا لا يعني أنها تلبس ما

فيه إبراز ما لا يليق إبرازه أمام الأطفال -ذكوراً أو إناثاً- فعواقبه جداً سلبية في بروز وتحفيز عناصر الشهوة على نفوسهم، وكذلك الحال بالنسبة إلى لباس الرجل وهيأته، فإذا كان ممن يستهوي اللبس الذي لا يدل على الرجلة أو يهوى التسريحات الغير مناسبة مثلاً فلا غرو من انعكاسه على روحية وفكر أبنائه.

وأما ما يتعلّق بمسألة تغيير الجو وإضفاء حالة التنفيذ في البيت فإنه لا ينبغي أن يعيش الأبوان حالة الجدية التامة مع الأبناء، فإن ذلك يساهم في إيجاد حالة الضغط عليهم، فقد يطلب من الطفل أن يعيش الجو الدراسي بعد رجوعه من المدرسة بصورة مبالغ فيها، فيكون في حالة جادة من خلال الدرس من الصباح إلى قبيل النوم وهكذا، بينما الطفل بطبيعته يحتاج إلى اللعب، وإلى أن يمضي وقتاً مع الأطفال، ويحتاج إلى التحدث مع الآخرين، وكذا ممارسة الهوايات واللعب مع الأقران.

ثم هنا نقطة مهمة في تعليم الأطفال، وهي أن زيادة المحرص السلبي والمبالغ فيه على سلامه الطفل قد يسلبه الحصول على الكثير من المهارات والوظائف؛ فينشأ من دون أن يحمل خبرة عملية، فضلاً عن انعدام الثقة في النفس، فالفتاة قد تصل إلى عمر العشرين عاماً وهي لا تحسن الطبخ، ذلك لخوف أمها عليها من نار الموقد مثلاً، أو أن صبياً يكبر وهو فاقد للثقة في نفسه لأنه لم يفسح له المجال يوماً في إمساك مطرقة أو مفك أو إنجاز بعض الوظائف اليقيرة يدوياً، فلا بد إذن من فسح المجال إلى الأبناء لاكتساب هذه المهارات الذاتية ليتعلّم من خلالها كيفية التعامل مع المحيط واكتساب الخبرة.

وأماماً ما يرتبط باختلاط الأبناء مع الأطفال الآخرين والاختلاف معهم أحياناً أو حصول حالة التشاجر فهو من الأمور الطبيعية والتي ليس بالضرورة يكون ناشئاً عن خبث سريرة، فلا ينبغي أن يتعامل مع هذا الأمر كما يتعامل مع الكبار، ومن الخطأ الفادح أن يحرم الأبناء من مشاركة أفرادهم بحجج أنهم تعاركوا فيما بينهم سابقاً، ويغفل عن أنهم لو تركوا يتفاهموا فيما بينهم لرجعوا بعد مدة قصيرة إلى إتمام اللعب وكأن أي شيء لم يحصل.

ومن الأمور المهمة أيضاً في التربية هو ضرورة إعطاء الطفل مساحة للتعبير عما يحبُّ من أشياء وعدم جبره على نطق معين، إلا أن يتم ذلك مع المراقبة المعقولة؛ لأنَّ الكل يريد أن يتلقفه من أصحاب السوء وغيرهم، فهم مستهدفون من قبل أعداء الدين، فالجميع مستهدف ولا سيما مع هذه الأجهزة الالكترونية، وهنا يحسن التأكيد على أنه لا ينبغي ترك الأبناء منفردين مع هذه الأجهزة لساعات ولو حدهم من دون رقابة، ويمكن جعل مثل جهاز الكمبيوتر في وسط المنزل مثلاً حتى يجد من ظاهرة سوء الاستفادة منه بأقصى ما يمكن، وكذا لا ينبغي الاستعجال في شراء الأجهزة، وإذا صار اضطرار إلى ذلك فلا بدَّ من متابعة المادة الموجودة في هذا الهاتف ولكن بصورة صحيحة غير هدامه وسلبية، والأفضل أن يحاول زرع الثقة في نفس الطفل بأن تكون له حصانة ذاتية من داخله وعدم كسره بكيل الاتهامات إليه.

فالطريقة الدينية المثلثي في مثل هذه الموارد هو أن يفهم الطفل ويعلم كيفية أن يتحاشى مادة الحرام وأنه لو حصل وأن أخطأ فباب التوبة والرجوع إلى الجادة السليمة مفتوح من أوسع أبوابه، فهذا أسلوب جيد

للتعامل مع الأولاد، فمع المراقبة والنصح لا بدّ من فتح الأبواب له للرجوع والتصحيح.

أمّا من جهة خارجية فلا بدّ من أن يكون الالتفات إلى أنَّ الطفل خارج البيت له حصة من التربية ولا تنحصر في بيئه البيت والأسرة، وبالتالي لا يحرم منها، ولكن لكون الخارج مليء بالتوجهات المتعددة فحربيًّا أن يساعدك على اختيار البيئة النظيفة والأجواء المناسبة، شريطة أن لا يصدر عليه حرية اختياره.

ولا بدّ من جعل الطفل عنصراً فاعلاً في المستقبل، فيشجع على البرامج النافعة الدينية وغيرها التي تصبُّ في صالح الطفل، كالدورات الصحية والرياضية لكي لا يعيش حالة السأم والملل، شريطة أن يدفع الطفل إلى الأيدي الأمينة، وكذلك من الضروري اكتشاف الملائكة الحميدة عنده ويحاول إبرازها في المجتمع، فإنْ كان صاحب صوت جميل مثلاً دفعه في مجالات الإنشاد وما شاكل، وإن كانت عنده قدرة على الحفظ يدفعه للاشتراك في مسابقات الحفظ وغيرها من البرامج المفيدة، وهكذا.

❖ المراهقة من أصعب المراحل التي يمرُّ بها الشاب، وهي في الوقت التي تكون فيه مهمة، فهي خطيرة جداً، وما يحصل فيها ربما يحدُّ مصير الشاب، كيف نحافظ على شبابنا المراهقين خصوصاً في ظلِّ انتشار أسباب الانحراف وسهولتها، وكونها في متناول الأطفال فضلاً عن المراهقين؟

مرحلة المراهقة من المراحل المهمة جداً في الحياة فقبل كلِّ شيء ينبغي لمن يريد التعامل معها من تفهمها جيداً، وفيها يكون الشاب يميل إلى الاستقلالية، وتبرز له احتياجاتٌ خاصةٌ به، فمعرفة ما هي شروط

هذه المرحلة واحتياجاتها وطبيعة انعكاساتها على الشاب أمر مهم جداً، وذلك لكي نستطيع من خلالها أن نوجد حلقة التفاهم والوصل، فبعض الآباء في تعاملهم في مثل هذا المرحلة من عمر الشاب إما أن يتساهل أو يتشدد من دون الاطلاع الكافي على الاحتياجات الخاصة للمرأهق؛ مما يؤدي إلى عدم القبول أو الانزعاج والنفور من قبل الشاب قبلاً نصائح وتعامل الأبوين معه.

ثم إن هذه المرحلة قد نتعامل معها من جهة وقائية، وذلك عندما نريد تحصين المرأة من الواقع في الانحراف، وأخرى نتعامل معها من ناحية علاجية، وذلك فيما لو بدر منه انحراف وأردنا علاجه.

❖ أما فيما يرتبط بالمرحلة الأولى (الوقاية) :

فالشاب في هذا السن يحتاج إلى مراعاة جملة من الأمور من بينها الجانب النفسي والأمني والذي يكون حساساً جداً، فالمرأهق الذي لم يجد بيته آمناً بالنسبة إليه فإنه فسيمارس طاقاته وهو اياته خارج البيت، وفي الحال الذي لا يكون منزله مكاناً للراحة النفسية ومحلاً لتبادل المشاعر الصادقة والحب والولئام سليجاً مباشرة إلى البحث عن البديل من الخارج، وأغلب المرأةين الذين يقضون الساعات الطوال خارج البيت هو بسبب فقدانهم لما يروي غليتهم من هذه الناحية داخل البيت.

كما أن المرأة يحتاج إلى أن يستشعر رجلته، وأنه صار معتمدأ عليه، فمن اللازم المعاملة معه كوزير، فهو إذا قسمّنا مراحل التربية - كما في مضمون الرواية إلى ثلاثة^(٨) - يكون سيداً في السبع سنوات الأولى، وعبدًا مطيناً في السبع الثانية وزيراً في السبع الثالثة - وهذه هي التي

تكون عادة في سن المراهقة - يكون في مرحلة الاستشارة والتهيئة لتحمل المسؤولية، فيستحسن في هذه المرحلة بأن يكتفى من الاعتماد عليه حتى يحسّ بأنّ له مكانة مرموقة في البيت، وأنّ له دوراً أساسياً؛ لأنّ أيّ خللٍ فإنه سيسبب له نفوراً، وسيحاول أن يُبرّزَ شخصيّته خارج البيت، وإذا انفلت من البيت صعب التحكّم فيه أو إرشاده، والشاب في هذه المرحلة يحتاج إلى تهيئه سابقة كما ذكرنا سابقاً بحيث يبدأ الإعداد من حين اختيار الزوجة وما شاكل.

والراهن في هذه المرحلة في حاجة إلى أنْ يُحسنَ الظنُّ به؛ فالإنسان خطاء، ومرحلة المراهقة فيها نوع من الطاقة القوية جداً والحركة التي لا بدّ أن تفرّغ، وبطبيعة الحال في هذا السن يكون الشابُ قليل التجربة، ووقوعه في بعض الأخطاء أمرٌ اعتيادي، فليس من الصحيح أن نسيء الظنَّ به في كلّ موقف يصدرُ منه ونسى حالة الاضطراب وقلة التجربة والعجلة التي تغلب سلوكه وطبعه، فالصحيح هو إعطائه الفسحة في التصحّح والتقويم.

وأيضاً يحتاج إلى توفير البيئة الحاضنة له والتعليم المناسب له، خاصة فيما يرتبط بمسائل التكليف والبلوغ وأنه أصبح رجلاً فيحاسب كالكبار في جميع أحكام الشرع المقدّس؛ وذلك كي لا يقع في ابتلاءات لا يحمد عقباها، فقد يتسبّب الجهل بذلك بانتكاسات مستقبلية.

أما من ناحية الطريقة المثلثى لعلاج حالة المراهق لو تحقّق منه الوقوع في الانحراف (العلاج):

هذه المرحلة مرحلة حساسة فيستحسن أن يكون الذي يتعامل معه

صاحب خبرة، فإذا افتقد كلا الأبوين أو أحدهما الخبرة الكافية فليس عيناً أن يستعينا بال Maher الخبير من عالم أو غيره من المؤمنين.

فالبعض يُقصي هذا المراهق أو يعاقبه معاقبة شديدة أو يحرمه من أمر أساسيٍّ بالنسبة إليه، وهذا ما يسبِّبُ نوعاً من ردَّات الفعل القوية، وحيث يكون الشابُ أقوى من أبيه من الناحية الجسديةٍ ويكون أكثر منهما حيويةٍ وتحملاً في بعض المسائل فالتعامل الشديد معه يسبب زيادةً في التمادي والانفلات والضياع من قبله.

والحكمة والحذر والتأني والصبر الكبير هي من عناصر الفلاح والنجاح في إنقاذ هذا المراهق من الانحراف.

ومن الجيد التأكيد مرة أخرى أنه على طول الطريق للمراهق يفضل تعزيز الرقابة الذاتية بداخله عبر زرع الثقة في نفسه وتهيئة الأرضية الإيجابية المخبأة فيه للبروز، بحيث يسعى هذا المراهق إلى الابتعاد عن المواد الفاسدة والعلاقات المحرمة من تلقاء نفسه.

والذي يعين في هذا الأمر أنَّ في هذا السن يبرز عند المراهق حسُّ التدين بقوَّة، فيحفزه إلى تغذية هذا الحسُّ بالعبادة والرجوع إلى الله وحسن طاعته، فتكون عنده حالة من التعامل، ففي الوقت الذي ينفتح عنده جانب الغريزة يكون بإزاره حسُّ التدين موازياً وبارزاً، فتخفَّف الكثيرُ من المشاكل وتذللُ بنسب عالية إن شاء الله تعالى.

الزواج وبعض معوقاته:

♦ يشتكي بعض الشباب الراغبين في الزواج عدم دعم الأب له، إماً بعدم قبول الأب أصل زواجه لصغره أو لكونه لا يعمل، وإما بعدم الاهتمام بذلك

وكانَ الأبُ لا يهمه ذلك، ما هي المسؤلية الشرعية للأب حول هذه المسألة؟
وبماذا تتصحونه؟

دور الأب بالنسبة للشاب المقبل على الزواج دورٌ ثقيلٌ وكبيرٌ جداً،
فیقع على عاتقه مثلاً:

التشفيف: أن يقف ابنه فيما يتعلق بمسألة الزواج، وأنه خيرٌ علاج
هدوء واستقرار وسكن النفس، فيعلم أنه الإنسان يسير بصورة طبيعية
عندما يتزوج ويأخذ دوره في الحياة.

الإعانة: أن يعين الأب ابنه حتى لو كان هذا الابن يعمل، فمسؤولية
الأب تجاه الابن لا تنتهي ببلوغ الابن، فهو وإن كان له نحو من
الاستقلالية لكن إذا رجعنا إلى الشارع المقدس نجد في هذا الجانب يحكم
 بأنَّ الغني منهما عليه أن يعين الفقير، فإنْ كان الأب هو الفقير لزم على
الابن إعانته، وكذا العكس، ولا يقف هذا على مدة معينة، هذا على
مستوى الوجوب، وأما على مستوى الندب والاستحباب فمجاهاً أوسع،
فيكون من المندوب للأب أن يعين ابنه على قضاء حاجياته التي من أهمها
الزواج، وما يرتبط بها من متطلبات، ولعلَّ الجانب المادي يشكل ضغطاً
كثيراً في الغالب، فليس من الصحيح ترك الأب لابنه في هذا المنعطف
الحساس والأساسي الذي يتمناه كلُّ ابن من أبيه.

ثم إنَّه يشاهد أحياناً وجود نوع من التدخل السلبي للأب أو من
الأبوين عموماً، وهو أنَّ الأب والأم في بعض الأحيان يقدمان اختيارهما
على اختيار ابنهما في اختيار الزوجة أو التدخل في اختيار الزوج، وكانَ
الأبوين هما من يودآن الدخول في مشروع الزواج لا الأبناء، وهذا مما لا



شكًّا أنه يفسد حالة التفاهم والوئام بين الزوجين فمسائل الحب مما لا تقبل الإكراه والإجبار.

ولو ترك الأب مسؤوليته لعذر كما لو كان فقيراً، فقد يكون معذوراً ولكن هذا لا يخلّي مسؤوليته عن باقي الوظائف، أما مع يساره فلا يكون معذوراً بلا شك.

❖ مداخلة: أحسنتم شيخنا الجليل، لقد رأينا بعض الآباء وللأسف الشديد يقف سداً مانعاً عن زواج الابن، فماذا تتصحّح هذا الأب لا سيما مع حاجة الابن للزواج ومعرفة الأب بذلك.

هذه ثقافة خاطئة جداً ومردوداتها سلبية لما لها من تأثير على نفسية الابن بشكل كبير؛ لأنّه في الوقت الذي يحتاج فيه إلى الزواج وهدوء النفس سيُمنع، وهذا يعني أنه سيلجأ إلى البديل التي قد لا تكون صالحة، وهذا يعني أنَّ الأب قد ساهم في انحراف الابن، أو على الأقل ساهم في عدم استقراره، أو تسبب في تعذيبه بدون مبرر، حتى التبرير بالدراسة (فيما لو كان الشاب طالباً في الجامعة مثلاً) حيث لا يوجد تنافس بين الزواج والدراسة أو العمل، بل على العكس من ذلك فإنَّ الشاب إذا أحسن بالمسؤولية فكثير من سلوكياته ستقوم، وإذا أراد أن يُفرغ ما عنده من مشاعر وعواطف فإنه يجد من يتلقّفها بشكل شرعي.

فمنع الشاب من الزواج يعني أنه ممنوع عن تفريغ هذه المشاعر الطبيعية، وهذا أكبر باب للانحراف، لأنَّ الكثير من العلاقات المحرّمة إنما هي بسبب الحاجة إلى التفريغ النفسي - وليس بالضرورة أن يكون ذلك لوجود رغبة في الانحراف - فقد يكون الشاب أو الشابة يعيشان حالة من

الضغط النفسي، وكلّ منهما يلقي بالضغط الذي في نفسه على الآخر فتنشأ حالة من الألفة والراحة النفسية فتتبعها العلاقات غير الشرعية.

❖ الزواج هو أحد الحصون للإنسان من الانزلاق في المعصية، ولكن الملاحظ في أكثر مجتمعاتنا صعوبة الزواج، كيف يمكن تذليل صعوبات الزواج؟ وعلى من تقع المسؤولية؟

من ناحية من المسؤول، فإنّ المسؤولية تقع على الجميع؛ لأنّ هذه الأفكار من الذي يخلقها في المجتمع؟! أليس من يتبنى عليها هم نفس أبناء المجتمع؟! فهم عبر نظرهم وتقليلهم لبعض يخلقون هذه العادات والصعوبات، وبالتالي فالجميع معنيّ بهذا الأمر.

وإذا استقرّانا المتزوجين الذين كان البذل في زواجهم مبالغ فيه -بعد مرور فترة من زواجهم- عن رأيهم فيما صرفوه في المهر والمحفل ومقدّمات الزواج لوجدنا أن جواهيم سلبيّ وأنهم نادمون على ذلك، ثم يعيّبون على المجتمع الذي أوجد هذه الحالة، ولم يوجد لهم التثقيف اللازم، هذا ناهيك عن ورود الروايات الحاثة على تسهيل أمر الزواج التي عادة ما تكون مغفولة، كما روى: «أنّ من بركة المرأة قلة مهرها، ومن شؤمها كثرة مهرها»^(٩).

وقد تتسبّب هذه الحالة من الإسراف إلى إيجاد الكثير من المشاكل وتوّلد ضغطاً نفسياً على الزوج وقد تتحول إلى حالة انتقام!

❖ مداخلة: هل يمكننا أن نقول بأنّ المسؤولية الأولى تقع على عاتق الفتاة في هذا الأمر؟

الفتاة لها نصيب في هذا الشأن بلا شكّ، كما أنّ الأهل لهم نصيب من

المسؤولية أيضاً؛ لأن الفتاة إذا كانت جريئة وواعية فمن الممكن أن تعين زوجها، وتجابه العادات الجارية التي قد تسبّب حالات اضطراب في حياتهم الزوجية المستقبلية، ولا سيّما أنَّ الكثير من الأمور كالخلافات بكيفيات خاصة وأماكن معينة ليس لها المردود الإيجابي عليها ولا على زوجها.

ولا أعلم أنَّ من لم يقم بهذه المظاهر البادخة هل نقصٌ من حياتهم شيء، أو تخلخل وجودهم الاجتماعي أو ما شاكل؟!!!، المظنون هو العكس.

وإن وجدت مشاكل فهي مشاكل بسبب التحسُّس من نظرات الناس، وهذا ليس مقياساً، فنظرية عامة الناس لا تكون مبنية إلا على الظاهر وليس على الأسباب الواقعية والرئيسية، وبالتالي فإنَّ المقدَّم هو كلٌّ ما يبعث على الراحة على الزوجين.

❖ مداخلة: ولهن في الزهراء قدوة.

نعم، إن كانت هناك امرأة لها الحق في أن تطلب وتشترط فالحق هي الزهراء عليهما السلام؛ لأنَّها امرأة عظيمة الشأن لا يستحقها شخص إلا من طراز الأنبياء والأوصياء عليهما السلام.

وأهل البيت عليهما السلام هم قدوتنا ولم يكن الفعل الصادر عنهم ذوقياً وإنما كلَّ فعل يصدر منهم هو مصدر لإرشادنا إلى الطريقة الأنفع والأصلح للاستقرار بين الزوجين، وبالتالي فإنَّ هذه المسؤولية تقع على أهل الحال والعقد والشأن في المجتمع بأن يتصدِّوا لكلَّ حالة من هذا النوع.

وبالإضافة إلى التخفيف لا بد من أن يكون الجانب العملي بارزاً كما هو الحال في مثل الزواجات الجماعية حيث يكون فيها المهر ومراسم الفرح معقولاً، بحيث يحفظ الشاب فيه وضعه النفسي والاقتصادي.

وهنا (في الزواج) قد يضطر الشاب إلى اقتراض المال الكثير لكي يصرفه على حفل الزواج الذي لا يتجاوز الليلة الواحدة، وبعد ذلك يعيش فترة طويلة من التعب والنكد، فمن المستفيد من هذا؟! حتى الزوجة نفسها لا تستفيد شيئاً، بخلاف الزوجة الذكية العاقلة، فهي التي تقتصر على المصاريف المعقولة حال الزواج، حتى لو كان حفلها ومتعلقاته أقل من غيرها بل حتى لو بلغ بها الأمر إلى أن تهب زوجها مهرها، وفي مضمون الرواية أنه يستحب للزوجة أن تهب مهرها للزوج^(١٠)، -والفرض أنها لم تقبل إلا بالمؤمن المأمون - وهذا ليس خفّة في العقل، بل لأنّ مردود كل ذلك يعود عليها بالنفع بالدرجة الأساس؛ فإذا اعتدل شأن زوجها ولم يتضعضع ساهم في التوسيع عليها في المنزل الملبي والترفيه أيضاً.

❖ الطلاق أمر طبيعي ويحصل في كل المجتمعات على اختلاف ثقافاتها، ولا يمكن منع حدوثه حتى في مجتمع الم الدينين، ولكن لا شك في إمكان التخفيف منه، بماذا تنصح الشاب المقبل على الزواج ليتجنب الوقوع في أبغض الحال عند الله تعالى؟

سؤال ممتاز، بخصوص الشاب فهو عادة تتقاذفه الأحساس والمشاعر فلا ينطلق إلى الزواج إلا من باب الفراغ وال الحاجة، وال الحاجة في الوقت الذي تدفع الشاب دفعاً قوياً إلى الزواج فقد تسبّب له نوعاً من الاستعجال وتقديم المشاعر على التعقل فيستعجل في اختيار الزوجة المناسبة، لأنّه إذا

كان محتاجاً قد يقبل بأقل نوع من الاستجابة من الطرف الآخر، فيقف عقله وتتحرّك مشاعره فيعجب بالطرف المقابل من جهة عاطفية فقط ويعمّي عن الأمور الأساسية في الحياة الزوجية الدائمة، وعندهما يقدم على الزواج فإنه يصطدم بسلوكياتها فيقع الشجار واللجوء إلى الانفصال.

وباب آخر هو مسألة شياع العلاقات المحرّمة، وهذه تفتت الكثير من الثقة بين الزوجين، فإذا علمت الفتاة بأنَّ زوجها يتحدّث مع النساء بلا ضوابط فهذا يساهم في زلزلة ثقتها به، ونفس الأمر بالنسبة إلى الزوج، وما أكثر حالات الطلاق جرّاء هذا الوباء الفتاك.

ووجود وسائل التواصل حيث يكون التبادل للرسائل بين غير المحارم هو من هذا الإطار أيضاً وله نفس النتائج الوخيمة.

وأمر آخر هو مسألة عدم الثقافة السلوكية داخل البيت، فكثير من الأحيان يكون الزوجان كلَّ منهما إنسان صالح في حدّ نفسه لكن عدم تشقّفهم بما هو المطلوب في الحياة الزوجية والإدارة الجيدة والصحيحة داخل البيت الزوجي يؤدي بهما إلى عدم التفاهم، فالزوج مثلاً عندما يقبل من العمل ويدخل بيت الزوجة فإنه يتوقع من الزوجة أن تفرّغ له وتعدّ له حاجاته الضرورية فإذا تعذرّت بالانشغال أو الأولاد بمنحو مستمرٍ ويوميٍ يضجّ منها، وفي فترة المساء مثلاً قد يحدث العكس، بأن تكون الزوجة بحاجة إلى أن تتحدّث مع زوجها وتناقشه وما شاكل وهو يقابلها بشعوره بالتعب أو برغبته في الخروج من المنزل مع أصدقائه فتشعر بالامتعاض والإحباط.

فهنا تنشأ المشاكل ونوع من القطيعة حيث كلَّ منهما يرى بأنَّ الآخر

لا يلبي هذه الاحتياجات العادلة البسيطة، ومع مرور الوقت تنشأ قناعة من الزوجين على وجود الصعوبة في التفاهم ويزداد هذا ويتفاقم حتى يسعى كلّ منهما إلى اللجوء إلى تلبية حاجته من خارج البيت حتى تصل النوبة إلى الطلاق.

وتوجد أسباب أخرى أيضاً إلا أنّ هذه أهمّها.

❖ في العصر الحاضر وفي أغلب المجتمعات أصبح دخول الجامعة شبه ضروري في نظر أغلب الناس ومن الجنسين، كيف يحافظ الشاب والشابة على تدينهما في الوسط الجامعي المختلط والمفتوح وربما المتفسّخ أخلاقياً؟ هل يتزوج مثلاً لتحسين نفسه؟ أم يصبح انعزاليّاً مثلاً منعاً من الوقوع في الشبهات؟ أم ماذا يصنع؟

لا نستطيع أن ننكر ضرورة الدراسة ولسنا ضد العلم وطلبه، ولكن لمواجهة هذه التحدّيات قد تقع أموراً في اليد من الممكن أن تخفّف مثل هذه الحالة، فمثلاً لو كان هناك عدّة خيارات وبعضها نسبة الضرر والانحراف فيها أقل فمن الممكن الذهاب إلى الأوساط التي تكون هي أقل، ومن أمكن أن يتحصن بالزواج فهو المطلوب ولا سيّما في هذا السن.

كما أنّ بالإمكان الاستعانة من الشّلة المؤمنة الصالحة، فالتحرّز بترك الوحدة والانفراد والتحصن بالمؤمنين هو أعظم حصانة من بعد الله تعالى، وفي ظل هذه التحدّيات لا بدّ أن تكون الاحتياطات الدينية أكبر والعبادة تحتاج إلى مضاعفة؛ إذ من يستشعر بوجود العدوّ أمامه فإنّ تحصيناته في حاجة إلى تقوية كي لا يقع فريسة سائغة له، وذلك

باجتناب الأمور التي تجذب الطرف الآخر كالعطور وما شاكل مما تدخل في عنوان اللامبالاة فإن التقليل منها يساهم في مسألة التحصين.

إلا أن أقوى وقاية وتحصّن هو المداومة على المساجد والمآتم والجلس في مجالس المؤمنين والاستعانة برقبتهم، وهذا بحسب التجربة وهو مضمون مجموع جملة من الروايات الشريفة، فأفضل ضمان في هذه المرحلة هي الجماعة الصالحة وهي جماعة المسجد، جماعة المآتم، جماعة المؤمنين، فإن صلحت هذه الجماعة صعب اختراقها من الشيطان ومكائده لأن كل فرد من هذه الجماعة يذكر الآخر.

فالجماعة التي تستنكر اللباس الشاذ إذا صدر من أحد أفرادها مثلاً ستكون خير معين على عدم التجربة للبس هذا اللباس وهكذا، وهو ما يمكن التعبير عنه بالرقابة الاجتماعية التي هي باب من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

❖ من المشاكل الاجتماعية ما يخلفه الفراغ من انحرافات وأمراض نفسية، وأهمُّ أسبابه البطالة وترك الزواج، حيث لا مسؤولية ولا شيء يلتئم به، كيف يمكن حفظ الشباب من هذا الفراغ؟ وماذا يجب على الشاب المبتلى بذلك ليقي نفسه من سلبيات الفراغ؟

هناك شيءٌ مبالغٌ فيه لدى بعض الشباب في هذه المسألة، وهو أنه لا يوجد عمل في المجتمع، طبعاً لا أدعى سهولته ولكن بنفس الوقت ليس من الصحيح القول بأنه لا يمكن إيجاد شيءٍ يقبل العمل، فهذا لا يخلو من تفاصيل، وليس عيناً أن يعمل الإنسان بأيّ نحو من أنواع العمل، نعم ببقى المطلوب أن يسعى الشاب للحصول على العمل اللائق ولكن مع

عدم الحصول عليه ابتداء ليس من المسوغ القول بعدم وجود العمل ولو بالمستوى الأقل من الطموح، وطبيعة النجاح والتقدم يكون بنحو التدرج والابتداء بالقناعة والقليل، ومن لا يطلب إلا المستويات الراقية فقد لا يصل.

الأمر الآخر لو قلنا بأنه في فترة من الفترات ولتكن فترة البحث عن العمل لم يجد الشاب ما يقوم به من عمل فمن الخطأ جداً أن يلجأ للانزعال لما له من تعزيز لحالة الإحباط والفراغ عنده، ويكون باباً واسعاً لتغلغل الشيطان في امنياته وخيالاته التي تفسد نفسيته، فمن اللازم تقلص حالة الانزعال.

وحيينها لن يكون أنجع وأفضل من الاستعانة بالجماعة المؤمنة كما تم بيان ذلك في بعض الأسئلة السابقة، أو يحاول الشاب شغل وقته بالمفید الذي يقضي على الفراغ بقدر الإمكان، كممارسة بعض الهوايات والرياضات مثلاً، أو تعلم بعض المهارات ... المهم أن لا يقضي أوقات الفراغ بصورة سلبية بالانزعال عن الآخرين فضلاً عن ملئه بما كان مفسداً له ولمن حوله.

أما المجتمع فهو مسؤول عن توفير فرص العمل والتعليم إلى أمثال هذه الطاقات ويستثمرها فإن لم يبدأ الشاب بالبحث والطلب للعمل فعلى المجتمع المساهمة الفاعلة في تذليل هذا الأمر ولو من خلال إيجاد فرص للعمل في الأنشطة الاجتماعية والتربوية.

❖ كلمةأخيرة سماحةالشيخ نختم بها هذا الحوار:

لا يسع في الختام إلا إعادة توجيه الشكر لكم على فسح المجال هذه

المشاركة متميّزاً لكم التوفيق والسداد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ونشر تعاليمه وسنن دينه، كما أسأل الله تعالى أن يحفظ بلاد المسلمين والمجتمع المؤمن من كل آفة وضلال وأن يجنب شبابها الطاهر من الوقوع في الزلات والانحرافات ويهبي الجميع للطاعة البهية والغرة الحميدة لصاحب الأمر والزمان أرواحنا فداء، وأن يجعل ذلك قريباً، ليعم الخير والصلاح والمهدى جميع أرجاء الأرض وهي تنعم في رغدٍ ورخاء، إن الله على كل شيء قادر، والحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سادة خلقه الطيبين الطاهرين المنتجبين.

الهوامش:

(١) هو سماحة الشيخ عبد الرؤوف حسن الربيع، من علماء البحرين المقيمين في قم المقدسة، والحاصل على درجة الماجستير في الفقه والمعارف الإسلامية في رسالته تحت عنوان (نظيرية تعويض الأسانيد، المفهوم، الحجية، الحدود)، يشتغل الآن بدرجة الدكتوراه في (علوم القرآن)، وله مزيد من النشاطات التبلغية في البحرين والإرشاد في الحج، وكذلك في قم المقدسة، وله عدة كتابات نشر بعضها في هذه المجلة (رسالة القلم) والذي يشغل فيها منصب المشرف العام.

(٢) سورة الحجر: ٩٢.

(٣) سورة الصافات: ٢٤.

(٤) سورة الحجرات: ١٠.

(٥) غرر الحكم، الآمدي، ح ٧٢٥٤.

(٦) كتاب المؤمن، الحسين بن سعيد الكوفي، ص ٣٩، وعنده في مستدرك الوسائل، الحدث النوري، ج ١٢، ص ٤٢٤.

(٧) سورة الإنسان: ٩.

(٨) كما عن النبي ﷺ: «الولد سيد سبع سنين وعبد سبع سنين ووزير سبع سنين»،

فإن رضيت أخلاقه لاحدى وعشرين وإلا فاضرب على جنبه فقد أعتذر إلى الله تعالى» مكارم الأخلاق، ص ٢٢٢.

(٩) كتاب من لا يحضره الفقيه، الصدوق، ج ٣، ص ٣٨٧.

(١٠) عقد المحر العاملی بابا في الوسائل تحت عنوان استحباب تصدق الزوجة على زوجها بغيرها وبغيره قبل الدخول وبعد، وذكر عدة روايات منها: عن النبي ﷺ : «أيما امرأة تصدق على زوجها بغيرها قبل أن يدخل بها إلا كتب الله لها بكل دينار عتق رقبة»، قيل: يا رسول الله فكيف بالهبة بعد الدخول؟ قال: «إينا ذلك من المودة والألفة». وعن ورام بن أبي فراس في كتابه قال: قال عليه السلام: «أيما امرأة وهبت مهرها لبعلها فلها بكل مثقال ذهب كأجر عتق رقبة». قال عليه السلام: «ثلاث من النساء يرفع الله عنهن عذاب القبر، ويكون محشرهن مع فاطمة بنت محمد ﷺ : امرأة صبرت على غيره زوجها، وامرأة صبرت على سوء خلق زوجها، وأمرأة وهبت صداقها لزوجها، يعطي الله كل واحدة منهن ثواب ألف شهيد، ويكتب لكل واحدة منهن عبادة سننها» وسائل الشيعة، الباب ٢٦ من أبواب المهرور، ج ٢١، ص ٢٨٤-٢٨٥.

قضايا اجتماعية

الشيخ محمد منسي شبيب

الملخص:

شرع الكاتب ببيان عنوان مقاله، ثم ذكر أن طالب العلم في حاجة إلى ملاحظة عنصر التقوية والترميم للمجتمع كي يمارس دوره بجدارة في حل الكثير من القضايا الاجتماعية، وقد عرض جملة من اللفتات المهمة منطلقاً فيها من خبرته في هذا المجال.

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وآلله الطيبين الطاهرين وللعنة الدائم على آعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

المقصود من العنوان:

هو كلّ القضايا والأمور المرتبطة بالحالة الاجتماعية والروابط بين أفراد المجتمع المؤمن وما يكتنفها من أمور مقوية أو مضعفة لها على مستوى الأفراد والأسر والمجتمع، ووظيفة ومهمة طالب العلم (عالم الدين)

في ذلك بما يمثله من علم ووعي وهم رساليّ كبير. ولا شك في أن طالب العلم دوراً وتأثيراً في هذا المضمار، ويمكن تقسيم ذلك إلى قسمين: تقوية وترميم.

أولاً: التقوية:

والمراد من ذلك هو الأمور التي تقوم بترسيخ وزيادة الأواصر والعلاقات القوية والمتينة بين أفراد وجماعات المجتمع المؤمن، وبها يعرف قوّة المجتمع وضعفه.

ويكن تقسيمه أيضاً إلى قسمين: نظري وعملي.

١- القسم النظري حيث توجد كثير من المفاهيم والمبادئ والتوجيهات والإرشادات التي وردت عن طريق الشريعة الإسلامية من خلال الآيات القرآنية والسنّة النبوية من الأحاديث والروايات والسيرة للنبي الأعظم وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام والتي تشكّل دستوراً ومنهاجاً غنياً وقوياً نافعاً ناجعاً للمؤمنين.

وطالب العلم باعتباره عالماً ومبلغًا عما ورد من الدين فله دورٌ كبير في تعليم وإرشاد وتوجيه المجتمع وأفكاره من خلال الطرح والتبليغ المسجدي والمنبري والخطابي والكتابي وغيره، ولديه في هذا المجال كنزٌ عظيم لا ينضب مما ورد عن الشريعة يستطيع أن ينهل منه ويعرف ما يمكنه ويوصله إلى الناس بالأساليب والوسائل المفيدة والمؤثرة.

٢- القسم العملي وأعني به السلوك العملي والممارسة الشخصية لطالب العلم وتطبيقه العملي لتلك المفاهيم والمبادئ والتعاليم الشرعية حيث يكون له الدور الكبير والمؤثر على المجتمع وذلك لكون طالب العلم معلماً



ومربّياً بالقول والعمل، ولأنه يعلم الناس التطبيق الصحيح للمفاهيم، ولأنه موقعه قدوةٌ حسنة يقتدي به الناس ويحذون حذوه.

والناس تنظر وتراقب طالب العلم وتقارن بين قوله وعمله وسلوكه وبقدار ذلك يكون التأثير والقبول والاتباع.

أمثلة على الأمور المقوية نظريًا وعمليًا:

١ - الأخوة الإيمانية والحقوق المتبادلة.

٢ - العلاقات الزوجية والأسرية.

٣ - صلة الأرحام والأقارب.

٤ - التواصل والتزاور بين المؤمنين.

٥ - عيادة المرضى والمسافرين.

٦ - مواساة المصابين والفاقدين.

٧ - تشيع الجناز و المشاركة في مجالس العزاء.

٨ - التكافل الاجتماعي (المادي والمعنوي).

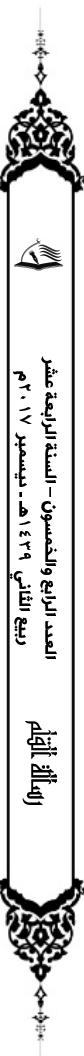
٩ - دعم المشاريع الخيرية ومساندتها وتجيئها.

١٠ - صلوات الجماعة والشعائر الدينية.

١١ - الاستجابة لدعوة المؤمنين ومشاركتهم أفرادهم.

١٢ - قضاء حوائج المؤمنين.

ثانيًا: الترميم (الإصلاح) من طبيعة البشر الاختلاف وذلك لاختلاف الفهم والوعي والإدراك والميول والرغبات والتقديرات وغيرها، ولذا فمن



العدد الرابع والخمسون - السنة الرابعة عشر
٢٠١٧ هـ - ديسمبر
ربيع الثاني ٣٦

٤٤

الطبيعي أن يكون هناك اختلاف بل ونزاع وعداوات في بعض الأحيان حتى الفراق والمفارقة بين أفراد الأسرة والمجتمع المؤمن حاله كحال بقية البشر ولشياطين الجن والإنس عمل دؤوب ومساهمة في ذلك.

والإسلام لم يغفل هذا الجانب من حياة المجتمع المؤمن لأنّه دائمًا يضع الوقاية والعلاج لقضايا الناس، ولذا وضع الحلول والعلاجات لحالات الاختلاف وقُنِّ القوانين الشرعية في ذلك وأوصل الإرشادات والتوجيهات للمؤمنين في هذا السبيل، ويمكن تقسيمها -أيضاً- إلى نظرية وعملية.

وهنا أيضًا يأتي دور طالب العلم في تربية المجتمع وتوجيهه في مسائل الاختلاف، وكذلك في الممارسة العملية والسلوكية له في هذا المجال بما يشكّله من موقع القدوة والمطبق الصحيح للفاهيم وتعاليم الإسلام.

أمثلة على وسائل الترميم:

- ١- إصلاح ذات البين.
- ٢- فض النزاعات والخصومات.
- ٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ٤- النصيحة والتواصي بالحق والصبر والمرحمة.
- ٥- رصد ومواجهة العناصر والمشاريع الهدامة.

موقع طالب العلم وتكاليفه:

صحيح أن التكليف ليس حصرًا على طالب العلم وإنما يشمل كلّ عنصر أو جهة مؤثرة وفعالة في المجتمع المؤمن كلّ بما لديه من علم ووعي وإدراك وشعور بالمسؤولية.

ولكن من الواضح من كلّ ما مضى من الكلام أنَّ المسؤولية الأكبر تكون في الغالب على طالب العلم بما يثله من موقع وبما يحمله من علم ووعي وتكليف بتبيين الدين ورعاية المؤمنين.

ولا شكّ في أنَّ طلَّاب العلوم الدينية كغيرهم من البشر تتفاوت مستوياتهم وقدراتهم وإمكاناتهم، فقد يكون التكليف عينياً على البعض في بعض الموارد وقد يكون التكليف كفائياً، وقد لا يناسبه في بعض الأحيان، ومن هنا تأتي ضرورة تأهيل طالب العلم نفسه وغيره من تلاميذه أو زملائه في هذه الجوانب.

لماذا يرجع الناس في كثير من قضاياهم إلى طالب العلم؟

وذلك لما لديه من صفات ومؤهلات منها:

١- العلم والفهم والوعي.

٢- الثقة والإخلاص.

٣- الوجاهة والمكانة الاجتماعية والدينية.

٤- الخبرة والحنكة.

ولذا لا بد من أن يتم تأهيل طالب العلم نفسه أو غيره بهذه الصفات والمؤهلات، كما أنه لا بد من إرشاد الناس إلى ذلك وتوجيههم إلى من يكون حائزًا على المؤهلات، وأن لا يختار الناس في قضاياهم إلا المؤهل لذلك.

كيف يكتسب الخبرة في ذلك؟

يمكن ذلك من خلال أمور منها:

لفتات مهمة:

هناك أمور وملحوظات لا بد لأنّي طالب العلم -وفقه الله- أن يلتفت إليها أثناء ممارسته دور الإصلاح الاجتماعي والأسري، أذكر منها:

التقييم الدقيق:

أي لا بد من أن يقوم بعمل دراسة للقضية والموضوع ويدقق جيداً لتقييم إمكانية الإصلاح أم لا، والكيفية والأسلوب الأفضل للعلاج والإصلاح.

المقبولة من الأطراف:

حيث إنّه (لا رأي لمن لا يطاع) وهذه تحدث كثيراً بأن يأتي أحد الطرفين أو الأطراف في المشكلة ويلجأ إلى طالب العلم الفلاني ويرتضيه مصلحاً في الموضوع، بينما الطرف الآخر قد لا يعرف هذا الطالب أو لا يرتضيه.

فلا بد من التأكّد من أن كلّ الأطراف تقبل وترتضى هذا العالم، بل أحياناً ينبغي التأكّد من أن القضية مطروحة عليه فقط أم وصلت إلى المحاكم الرسمية -مثلاً-

الحيادية:

طالب العلم له حالة أبوية لكل المؤمنين حتى المتنازعين والمتخاصمين، فلا بد من أن يكون منصفاً ومحايداً على مسافة واحدة في الاستماع للأطراف والتفهم، وعليه أن لا يبدي -قدر الإمكان- رأياً مستعجلأً وارتجالياً لأحد الأطراف قبل الاستماع إلى الطرف الثاني.

وعليه أن يكون دقيقاً وملتفتاً إلى أنّ الغالب في أطراف النزاع والخلاف تريد أن يكون طالب العلم في صفها وموافقاً لرأيها بل ومنفذًا لما تريده، فلا بد من أن يلتفت جيداً لذلك.

الحذر والاحتياط:

الحذر والاحتياط في الدخول في أي قضية وملابساتها، أن يكون حذراً للأطراف وأسرارهم وخصوصياتهم وكيفية التعامل معهم وخصوصاً مع النساء أو القضايا المالية لحساسية المواقف والمواضيع. بل ويكون حذراً لنفسه أيضاً بأن لا يكون فحّاً منصوباً له أو أن ينزلق في أحابيل الشياطين -لا سمح الله.-

الاستعانة بالآخرين:

وذلك وفق متطلبات الموضوع، فقد يحتاج إلى الاستعانة بقريب أو صديق لأحد الأطراف أو حتى بعالم الدين لمنطقة أحد الأطراف، بل قد يقوم بتحويل أصل الموضوع إلى طالب علم آخر أو رجل مؤمن ثقة يراه أكثر تأثيراً وفائدة في الموضوع.

وقد يستعين أحياناً بزوجته أو إحدى نسائه الأقارب إذا كانت مناسبة وذلك في قضايا النساء مثلاً.

وأحياناً قد يتطلب الأمر تشكيل مجموعة في حل بعض القضايا ولا يكفي فرد واحد خصوصاً إذا كانت القضية تشكل ظاهرة أو مشروعاً فاسداً.

الصبر والتحمل:

حيث إنه طريق شائك أحياناً ويحتاج إلى تحمل الأذى فيه والصبر لتحقيق النتائج المرجوة، فبعض القضايا تكون سريعة وبعضها تأخذ وقتاً طويلاً قد يبلغ أشهراً أو سنين.

لوجه الله:

وهو الأهم في كل ذلك، أن هذا العمل يكون خالصاً لوجه الله وهو عبادة من العبادات يتقرب بها المؤمن إلى الله بِرَبِّكُنَّ وبقدار الإخلاص يكون التوفيق والقبول من الله بِرَبِّكُنَّ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبْلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُخْسِنِينَ﴾^(٢).

الخاتمة:

هذه بعض كلمات وجمل مختصرة في الموضوع (ولعلها تكون مشروع كتاب مفصل) أسأل الله بِرَبِّكُنَّ أن ينفعني بها وإخوتي الأعزاء في خدمة دين الله وعباده.

كما الشكر موصول لكم ولكل الأحبة القائمين على هذه المجلة المباركة أسأل الله لي ولكم جميعاً القبول والتوفيق لكل خير.

الهوامش:

(١) سورة آل عمران: ١٠٤.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٩.



التكافل الاجتماعي..

فرض أم نفل؟

الشيخ علي أحمد الجفيري

الملاخّص:

تعرّض كاتبُ المقال إلى مسألة مهمّة جداً وهي مسألة التكافل الاجتماعي، وما يوجبه العقل والفطرة والشرع في ذلك، وذكر مصاديق اجتماعية مهمّة حتّى عليها الشارعُ المقدّس، وبينَ العلاقة بينَ الجانب الفقهي الذي تكون فيه كثيرٌ من مظاهر التكافل الاجتماعية مندوبة ومستحبة وبينَ الجانب الروائي والعقيدي الظاهر في وجوب كثيرٍ منها، وبينَ الحكمة من الندب والوجوب.

مقدمة:

ورد عن سيدنا ومولانا أبي الحسن الكاظم ع عليهما السلام أنّه قال: «من قصد إليه رجل من إخوانه مستجيرا به في بعض أحواله، فلم يجره بعد أن يقدر عليه، فقد قطع ولایة الله تعالى»^(١).

لمفهوم المسؤولية حضورٌ فاعلٌ في معادلة الحياة، حيث إنَّ هذا المفهوم هو الذي يُشعر الإنسانَ بقيمته أمام ذاته، وكذلك أمام مجتمعه، وكون الإنسان مسؤولاً هو الذي يُبعده عن حياة العبث واللاماهدية، وذلك بغض

النظر عن مصدر المسائلة الذي يعتدُّ به المسؤول، فقد يكون المسائل الذي يجعل الإنسان مسؤلته ميزاناً في تقييم أدائه هو الله سبحانه، أو هو من دونه، فنفس استشعار المسؤولية يجعل الإنسان هادفاً في عمله، مقيماً ومقوماً له، وكذلك محاسباً فيه.

هذا أصلٌ متفقٌ عليه، غير أنَّ موضع الخلاف انصبَّ في جهة من جهاته، متمثلةً في السؤال التالي: ما هو متعلق هذه المسؤولية؟!

وبعبارة أوضح: الإنسان المسؤول، ينبغي أن يكون مسؤولاً عن ماذا؟! وهذا تتعدد الاحتمالات، فقد يقال: إنَّ الإنسان مسؤول عن نفسه فقط وفقط، وقد يقال: هو مسؤول عن نفسه وعن غيره مطلقاً على حد سواء، أو عن بعضِ من غيره، وهناك احتمال آخر، وهو: أنَّ الإنسان مسؤول عن نفسه وعن غيره لا بحد الاستواء، فهو عن نفسه مسؤول أولاً، وعن غيره ثانياً، وربما تجد من يقول: هو مسؤول عن غيره بدرجة أولى، وعن نفسه بدرجة ثانية، وهكذا تتعدد الاحتمالات.

ولا شكَّ في أنَّ الإسلام يلغي احتمال التمحض في الذاتية تجاه المسؤولية، كما أنه يلغي احتمال التمحض في الغيرية تجاهها، وأنَّه يثبت ضرورة أن تكون المسؤولية ذات جهتين، نفسية، وغيرية، ومع تتبع النصوص نجد في بعض الحالات أنَّ الشارع يرى الأولوية للالتزام بمسؤولية النفس، فيقدمها على المسؤولية تجاه الغير في مورد التزاحم، وكذلك الأمر بالعكس في بعض الحالات الأخرى، وأماماً في الحالات التي لا يكون الأمر فيها من موارد التزاحم، فإننا نجد الإسلام يهتمُّ بتفعيل المسؤولية بجهتيها معاً، مع تركيزِ -في بعض الأحيان- على المسؤولية تجاه

الغير؛ معالجة لإغفالها الحاصل لدى كثirين، وهذا ما وَلَدَ لنا التنبُّه إلى عنوان (التكافل الاجتماعي)، ذلك لأنَّه عنوان يفعِّل جانب المسؤولية في خصوص بعدها الغيري، وقد رَكَّزَت عليه النصوص، فنجد أنه عنواناً حاضراً، وفاعلاً، وملموساً في أدبيات وتشريعات الإسلام، وهذا سنتناوله ضمن ثلات نقاط:

الأولى: حول معنى التكافل الاجتماعي.

الثانية: حول مستنته ودليله بحسب الرؤية الدينية.

الثالثة: في الحديث حول ملاكه، وما يترتب عليه من آثار.

النقطة الأولى: معنى التكافل الاجتماعي

ينبغي أن نسأل أولاً: ما هو المقصود من التكافل الاجتماعي؟

والجواب: أنَّ (التكافل) على وزن: (تفاعل)، وهي صيغة تفيد: المشاركة في مادة الفعل بين طرفين، والتكافل من مادة: (كفل)، أي: ضمن، أو أعلى، أو: قام بالأمر، والشأن^(٢). وعليه يكون معنى التكافل لغة هو: التشارك في ضمانة الآخرين، فيكون أفراد المجتمع بعضهم ضامنوا بعض، ومعيلو بعض، ويقييم كلُّ واحد منهم شأن الآخر، فيجد نفسه معنياً به، وبكلِّ ما يصلح حال الآخرين، ويسدُّ عوزهم.

ونرى أنَّ (التكافل) في هذا المصطلح مضاد إلى الكلمة: (الاجتماعي)، بمعنى أنَّ المقصود هنا من التكافل هو ما يكون في البعد الاجتماعي، أي: ما يرتبط مباشرة بجانب العلاقات بين أفراد المجتمع، والروابط التي تجمع بينهم، بختلف عناوينها، ولকثرتها ينبغي تحديد الجامع بينها مما ينبغي لها

أن تؤول إليه، وهذا الجامع الذي هو في مورد الحديث هو: إطار الإيمان، والانتساب إلى الدين.

والنتيجة النهائية هي: أنَّ المقصود من (التكافل الاجتماعي) -من الناحية المفهومية- هو: التضامن، والتكافل بين أفراد المجتمع المؤمن، ويكون ذلك من الناحية العملية الصدقية: بأن يعدَّ كُلُّ مؤمن نفسه مسؤولاً عن شؤون غيره من المؤمنين، مما يرتبط بالحاجة، والنقص، وذلك بما لا يقتصر على مستوى الشعور فقط، بل يتعدَّاه إلى مستوى ترتيب الأثر العملي، بحيث يعدُّ نفسه ضامناً -حسب استطاعته- لـكُلِّ من تلبَّس بعنوان الإيمان، معيلاً ومعيناً له، ومعنىًّا بأمره، وقاضياً لحاجاته، ساعياً في إنجازها، سواء كانت مالية، أم اجتماعية، أم أمنية، أم معيشية، أو غير ذلك، فكما يكون الإنسان ضامناً، وكفيلاً، ومسؤولاً عن أبنائه، فبدرجات ما هو أيضاً مسؤولاً عن كُلِّ من تلبَّس بالإيمان، من بلدٍ كان أم لا، من عرقٍ كان أم لا، من أقربائه كان أم لا.

وهذا المصطلح بهذا المعنى، وإن لم يكن قرآنياً أو روائياً من جهة لفظه، حيث لا تجد نصَّ هذا الاستعمال في لسان الشارع المقدَّس لا قرآنَا ولا روایة، إلا أنه كذلك -بلا شكٍ- من جهة دلالته، ومضمونه، ومعناه، ومن هنا نحن نحاول أن نثبت حثَّ الشارع بشكْل وبآخر -أتباعه على هذا النوع من التكافل، وهذا يحتاج إلى إثبات؛ حيث فيه كلفة زائدة، فهو تكليف تترتب عليه الكثير من الآثار، ولذلك ينبغي علينا أن نسأل: ما هو مستند مطلوبية هذا المصطلح بهذا المعنى الواسع في الرؤية الدينية؟ وما هو دليله؟ وهذا ما نتناوله إن شاء الله في النقطة الثانية.

النقطة الثانية: مستند التكافل

السؤال هنا: لماذا أكون معنياً بغيري من المؤمنين، مسؤولاً عنه، فأعدّ مقصراً معه إذا لم أسع في حاجاته -إن كنت قادراً على ذلك-. ومؤاخذاً على هذا التقصير؟! ما هو الدليل على ذلك؟!

والجواب: من الممكن أن يكون من خلال وجوه متعددة، اختار منها ثلاثة، وذلك لوقوع هذا الموضوع في منطقة الإهمال لدى الكثيرين، رغم حساسيته، وخطورته كما سوف يتضح من هذه الوجوه الثلاثة:

أولاً: الوجه العقلائي: وهو بعد الذي يعتمد على حكم العقل العملي لدى العقلاء تجاه هذا المفهوم القيمي، وهذا الحكم يعتمد على مقدمتين:

الأولى: أنَّ في التكافل بالمعنى المذكور مصلحةٌ تلزم من تفوتها مفسدة اجتماعية عظيمة، وتمثل هذه المصلحة في أنَّ نظم أي مجتمع يعتمد على وجود ظاهرة التكافل بين أفراده، حيث إنَّ انعدام حالة التكافل يعني تكسراً في الروابط الاجتماعية، وذوباناً في الأنانية، وتكريراً لحالات العوز، وتوسيعاً لفوهة الاحتياج، وبالتالي: تزاحماً على المصالح رغبةً في استجلابها على حساب الآخرين، مما يستوجب عرakaً، واستنزافاً، وحرباً، وقتلاً، وسحقاً، وسرقة، وظلمًا، وعدواناً، وهذا كله يعني: اختلال النظم.

إذاً: التكافل الاجتماعي فيه تعديل لحالة الإنسانية، والتعاضد، والتعاون، وسد الحاجات، واقتلاع جذور الجريمة، وأسباب التعدي، وهذا ما يحفظ نظم المجتمع، وبهذا يظهر من المقدمة الأولى أنَّ نظم المجتمع مصلحة مترتبة على التكافل، وهي من المصالح العظيمة.

الثانية: أنَّ العقل العملي يلزم بعدم جواز تفويت المصالح العظيمة، وإلا خرج المفوتُ لها عن اتزانه، وصار محطًا لمعاتبة العقلاء، ولو مهم، وتقبيلهم لتفويتها.

والنتيجة: لا يجوز عقلائيًّا ترك التكافل الاجتماعي، ولو ما كان منه بدرجة حفظ النظم الاجتماعي على الأقل.

ثانياً: الوجه الفطري: وهو يعتمد أيضاً على مقدمتين:

الأولى: أنَّ الإنسان -كما يتباين بعضُ الحقيقين- مدنيٌّ واجتماعيٌّ بالفطرة، فهو من طبيعة خلقته يتوجه إلى تكوين العلاقات الاجتماعية، ومع افتقادها يكون فاقداً لحاجة فطرية ملحة، ولذلك كان من أنواع العقوبات المتعارفة: السجن الانفرادي، الذي يُفقد الإنسان هذه الحاجة الفطرية لديه، فيصلح بذلك للعقاب في نظر المدحوب -بغض النظر عن حقаниته في عقابه من عدمها.

الثانية: أنَّ من أهم ما يسهم في إيجاد هذه العلاقات الاجتماعية أولاً، والمحافظة عليها ثانياً: التكافل الاجتماعي، وهذا واضح لا يحتاج إلى دليل، فكلُّنا نعيش ضمن مجتمع، ونرى وجданاً أنه كلَّما زادت درجة حسُّ التكافل لدى الآخر، كان ذلك أدعى للميل إليه، والتمسُّك به، والعكس صحيح، بل إنَّ ملاك استمرار العلاقات كثيراً ما يكون متمثلاً في درجة حس التكافل الاجتماعي الذي يتلكه طرفاً العلاقة.

والنتيجة: أنَّ التكافل الاجتماعي يبني العلاقات الاجتماعية، ويحافظ عليها، ويقاد يكونُ هو الطريق الأبرز في بناء العلاقات، والمحافظة عليها، فيليبي بذلك الحاجة الفطرية، ومع فقده تبقى هذه الحاجة شاغرة، مما

يتسبب بجملة من المشاكل الخطيرة؛ ذلك أن الطرف الذي يرى هذه الحاجة الفطرية معطلةً عنده، قد يتوجه إلى سدّها ولو بالطرق غير المشروعة، وبذلك نستطيع أن نقول: إنَّ الفطرة تقضي بلزوم تفعيل حالة التكافل بين أفراد المجتمع.

ثالثاً: الوجه التعبدي: وهذا يعدّ من أهم الوجوه، وبه ينكشف ولو وجهٌ من ملاك التكافل الذي أوجب القول بطلوبيته، فإنه بالنظر إلى أقوال الشارع المقدَّس، نفهم أنَّ هذا النوع من التكافل مطلوب بدرجة شديدة، تجعل المكلَّف في وارد المسائلة والمؤاخذة على تقصيره تجاهه، وهذا هنا بعض النصوص التي تدلُّ على ذلك:

١ - عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْأَنْبَاءِ قال: «اخبروا شيعتي بخصلتين: المحافظة على أوقات الصلاة، والمواساة لأخوهم بالمال، فإن لم تكونا فأعزب ثم أعزب، ثم أعزب»^(٣)، أي: إن لم يتوفَّر على خصلة المواساة بالمال، فقد بعد عن حظيرة الولاية والتشييع، ونرى هنا بوضوح أنَّ من علامات الإيمان على مستوى السلوك: المواساة بالمال، التي هي من أبرز مصاديق التكافل الاجتماعي، فمتي ما وجد الإيمان، دعا بطبيعته صاحبه إلى المواساة، ومتى ما فقد، فإنَّ ذلك يكشف عن وجود خلل في الإيمان.

٢ - ورد عن سيدنا الصادق عَلَيْهِ الْأَنْبَاءِ أنه قال يوماً لأصحابه: «ما لكم تستخفون بنا؟» فأنبرى إليه رجل من أهل خراسان فقال له: معاذ الله أن تستخفَّ بك أو بشيء من أمرك، فأجابه الإمام عَلَيْهِ الْأَنْبَاءُ وهو مغيظ قائلاً له: «إنَّك أحد من استخفَّ بنا»، فقال: معاذ الله أن تستخفَّ بك! فقال عَلَيْهِ الْأَنْبَاءُ: «ويحك! ألم تسمع فلاناً ونحن بقرب الجحفة وهو يقول لك: احملني قدر ميل فقد

والله أعييت، والله ما رفعت له رأساً، لقد استخففت به، ومن استخفَّ بمؤمنينا
استخفَّ، وضيَّع حرمة الله عَزَّوجلَّ^(٤)، وهذا مثال آخر للتكافل، متمثلاً في
الإعانة، ولو بغير المال، واضح أنَّ الذي يأنف عن تقديم الإعانة إلى
إخوانه، ولو كانت بهذا المستوى البسيط، فإنَّه مستخفٌ بأمرهم، وهذا
يعني الاستخفاف بالأئمة، مما يوجب تضييع حرمة الله تعالى! وعليه:
فحفظ حرمة الله مرهون بالتكافل بين إخوة الإيمان، وهذا ما أكد عليه
حديث آخر عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من عظَّم دين الله عظِّم حقَّ إخوانه، ومن استخفَّ بدینه
استخفَّ بإخوانه»^(٥).

٣- سُئل الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ عن أدنى حقٍّ المؤمن على أخيه، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ:
«ألا يستأثر عليه بما هو أحوج إليه منه»^(٦)، وفي هذا الحديث ضابطة عامة في
حدِّ التكافل، تثلِّ أدنى مستوياته، وقد عبرَت عن ذلك بالحق، ودلالته لا
تخفي.

٤- عن الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من قصد إليه رجل من إخوانه مستجيراً به في بعض
أحواله فلم يجره بعد أن يقدر عليه فقد قطع ولایة الله عَزَّوجلَّ»^(٧)، فالحافظة على
الولایة الحقيقة متوقفة على التكافل.

٥- وعن الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضاً: «إِنَّ من واجب حق أخيك ألا تكتمه شيئاً
تنفعه به لأمر دنياه وآخرته، ولا تخُل بینه وبين عدوه من الناس»^(٨)، فخذلان الأخ
المؤمن مع قدرتك على نصرته، ومعاونته، وحمايته، تضييع لقمه،
واستخفاف بأمره.

ومن جملة ما تقدَّمَ نفهم: أنَّ المؤمن لكي يكون مؤمناً حقيقةً لا بدَّ
من أن يتلبَّس بالإيمان نظراً وعملاً، بأن يؤدي ويلتزم بما يقتضيه الإيمان،

وَمَا يقتضيه الإيمان: تحقيق علاقة الأخوة حقيقة بين المنتسبين إليه، ثم هذه الأخوة تلزم بالتكافل، والتعاون، والاهتمام، والإجارة، والحماية، والتباذل، والمساعدة، والإيثار، فحقيقة الأخوة هي التكافل، فإذا ترك الإنسان التكافل، أخل بعلاقة الأخوة، مما يعني بأنه أخل بإيمانه المتصل بجزئية الإخلال على الأقل.

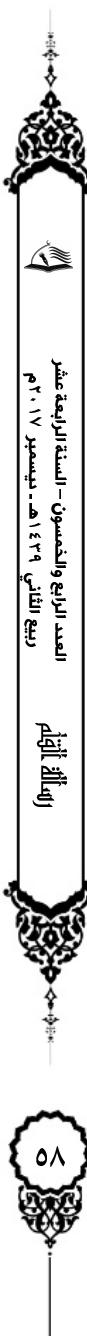
وبهذه الأدلة وغيرها يظهر مدى اهتمام الشارع بالتكافل، حتى انعكس ذلك على الكثير من أحکامه الشرعية بشكل واضح وملموس، وهذا بحد ذاته يكشف عن وجود ملاك ومصلحة يطلب بها مفهوم التكافل، فهو من المفاهيم القيمية ذات المطلوبية لدى الشارع المقدس، وقد يظهر مما تقدم أن هذا الملاك يصل إلى حد الإيجاب؛ إذ يتوقف الإيمان والولاية على التكافل، وأن من لا يتكافل يستخف بأمر الله تعالى والعياذ بالله، ولكننا لا نجد من فقهائنا من يوجب هذا النوع من المواساة بهذا الوضوح، وبهذه السعة، وأنهم يقتصرن على إيجاب بعض الأحكام الشرعية التي لوحظ فيها مضمون عنوان التكافل من ناحية التشريع، كالزكاة، والخمس، والكافارات، ووجوب إنقاذ المؤمن، وحفظ حرمته، وغير ذلك، وأماما المساحة الباقية، فإنهم يقتصرن على الإفتاء باستحسابها ونديها غالباً، ومن هنا ينشأ هذا التساؤل: ما هي درجة مطلوبية هذا الملاك؟ هل تقتصر على الندب والاستحباب دون إلزام؟ أم أنها تصل إلى حد الوجوب؟ والجواب عن هذا السؤال سيكشف عن مدى أهمية المسألة في نظر الشارع..

النقطة الثالثة: ملاك التكافل

عندما نفتّش في فقه الشريعة، فإنّنا سنجد -فيما يرتبط بعنوان التكافل الاجتماعي- إزاماً تارة، واستحباباً تارة أخرى، وما نتكلّم عنه هنا من مصاديق للتكافل قد وقع أغلبه تحت عنوان المندوب والمستحب، لا تحت عنوان الواجب إلا في حالات قليلة، ونادرة، فمثلاً: مواساتي أخي المؤمن بالي حين أعلم أنه محارب في رزقه، وإيوائي لطريد أو مستجير بلاحقه عدوه لينكل به، ومدّي يد العون لمريض يحتاج يشارف على الموت مع توفر العلاج له، والمساهمة في تعليم من وقع ضحية لمشاريع التجهيز، ومساعدتي لمدين لا ينام الليل من كثرة ديونه وملاحقة دائنيه، وتزويجي للأعزب، وغير ذلك من أمثلة لا تحصى، هذا كلّه مطلوبٌ على نحو الفرض؟ أم النفل؟

الظاهر أنَّ أغلب ما ذُكر في أغلب حالاته مطلوب على نحو الندب لا الوجوب، وهكذا يتعامل معه أغلب الناس..

وقد يقول قائل: إنَّ مقدار ما أوجبه الشارع مما يتحقق عنوان التكافل كافٍ في نفسه للخروج عن عهدة المسؤولية تجاه هذا العنوان، بعبارة أوضح: قد يقول قائل: إنَّ التزامي بالزكاة، والخمس، وغير ذلك من الأحكام الواجبة المحقّقة لعنوان التكافل، يبرئ ذمتي، ويخلّي مسؤوليتي أمام الله تعالى، وإلا لو لم يكن ذلك كافياً، لأوجب الله تعالى عليَّ غيره، والفرض أنه لم يفعل، وعليه: لا عيب في الاقتصار على الأحكام الواجبة في تفعيل عنوان التكافل، ولا ينبغي أن نُوجب في هذا العنوان ما لم يوجبه الله تعالى..



وهذا الكلام على إطلاقه غير صحيح، وذلك قد اتّضح من بعض الأحاديث المتقدّمة؛ حيث إنَّ ترك بعض السلوكيات -ولو كانت مستحبة- إذا كان ماله إلى الخدش في أصلٍ عقائدي، فإنَّ تركها يحرّم من هذه الجهة، وهو يكون كافشاً عن خللٍ في الإيمان من هذه الجهة، وترك التكافل مع المؤمنين -مع القدرة عليه- قد يكون في كثيرٍ من الأحيان مسبباً عن الاستخفاف، وهذا يكون حراماً لجهة الاستخفاف بأمر المؤمن، الذي يعني استخفافاً بأمر الإمام، وتضييقاً لحرمة الله، وقطعاً لحبل الولاية.

وكثيراً ما يكون ترك التكافل متلازماً مع هذه العناوين، وحينئذ لا يُقال: إني ساكتفي بما أوجبه الله تعالى عليّ؛ لأنَّ تركي أخي المؤمن في حاجته -مع قدرتي على نفعه واستنقاده ورفع حاجته- يعني خللاً في الإيمان.

ويؤكّد هذه الفكرة ما قد يفهم من بعض النصوص -ودلت عليه بعض الروايات- أنَّ ملاك التكافل الاجتماعي بهذه السعة المذكورة، إنما هو ملاك يصل في حدّ ذاته إلى الوجوب بحسب أهميته في نفس الأمر والواقع، إلا أنَّ هناك مصلحة أخرى تعارضه، وأوجبت التخلّي عن إيجاب التكافل بهذه السعة حتى لا يقع المكلَّف بحسب نوعه في محدود أكبر، وقد تكون هذه المصلحة الأخرى هي مصلحة التسهيل؛ أي: التخفيف عن هذه الأمة حتى لا تقع في محدود ارتكاب المحرّم من خلال وقوعها في مظنة المخالفة، وقد ورد في ذلك عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ : «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ثلاثة لا تطيقها هذه الأمة [ومنها]: المواساة للأخر في ماله»^(٩)، ولذلك جُعل التكافل مستحبًا أكيداً رغم توفر مقتضى الوجوب فيه، ثم بقيت الحالات

الضرورية على ملائكتها الأول -الوجوب-، لا أنها أوجبت لطرو ملائكة الضرورة كما قد يُظن.

وعليه: لم يدخل أهل البيت عليهم السلام جهداً في بيان الآثار الأخروية المترتبة على عنوان التكافل -فضلاً عن الدنيوية منها- ترغيباً لأتباعهم في ممارسته، وأقتصر على ذكر بعض الأحاديث التي تكشف بعض الآثار المهمة، والمطلوبة:

الحديث الأول: عن الصادق عليه السلام: «من نَفَسَ عن مؤمن كربة نَفَسَ الله عنه كرب الآخرة، وخرج من قبره وهو ثلج الفواد، ومن أطعمه من جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، ومن سقاه شربة سقاه الله من الرحيم المختوم»^(١٠).

الحديث الثاني: عن الأمير عليه السلام: «من كُفَّارات الذُّنوب العظام: إغاثة الملتهوف، والتَّفَيُّس عن المكروب»^(١١).

الحديث الثالث: عن الباقر عليه السلام: «تنافسوا في المعروف لإخوانكم، وكونوا من أهله، فِإِنَّ لِلْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الْمَعْرُوفُ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا مَنْ اصْطَنَعَ الْمَعْرُوفَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فِإِنَّ الْعَبْدَ لِيَمْشِيَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ فَيُوَكِّلُ اللَّهُ بِهِ مَلْكِيْنَ، وَاحِدٌ عَنْ يَمِينِهِ، وَآخَرٌ عَنْ شَمَائِلِهِ، يَسْتَغْفِرَانِ لَهُ رَبَّهُ، وَيَدْعُوَانِ لَهُ بِقَضَاءِ حَاجَتِهِ»^(١٢)، وعنه عليه السلام: «لَا يَرِي أَحَدُكُمْ إِذَا دَخَلَ عَلَى مُؤْمِنٍ سَرُورًا أَنَّهُ عَلَيْهِ أَدْخَلَهُ فَقْطًا، بَلْ وَاللَّهُ عَلَيْنَا، بَلْ وَاللَّهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ عليه السلام»^(١٣)..

وفي الطرف المقابل أيضاً: من يقصّر في التكافل وهو قادر عليه، يلقى آثاراً وخيمةً في الآخرة، فمن الصادق عليه السلام: «أَئِمَّا مُؤْمِنٌ مَنْعَ مُؤْمِنًا شَيْئًا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ -وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ عَنْدِهِ أَوْ مِنْ عَنْدِ غَيْرِهِ-، أَقَامَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَسْوِدًا

ووجهه، مزرقة عيناه، مغلولة يداه إلى عنقه، فيقال: هذا الحائن الذي خان الله ورسوله، ثم يؤمر به إلى النار»^(١٤).

ويترتب على ذلك:

أنه لا ينبغي أن يُصغي إلى محاولات الاستحواذ على ظاهرة التكافل الاجتماعي، وتجريها، والتخييف منها، كما لا ينبغي التقصير تجاه مسؤولية هذا الواجب الأخلاقي بحجّة ما قد يُدخله من ضرر، بل ينبغي أن تقاوم محاولات تعويق هذا المشروع الإلهي بشتى السبل المشروعة، وذلك بلاحظة طبيعة الظروف المختلفة، والتكيف معها بما لا يوجب تخليًّا عن أصل هذه المسؤولية العظيمة.

والحمد لله أولاً وآخراً.

الهوامش:

(١) الكافي، الكليني، ج ٢، ص ٣٦٦.

(٢) الصاحب، الجوهرى، ج ٥، ١٨٧، وقال: (كفل) يدل على تضمن الشيء للشيء، انظر: لسان العرب، ابن منظور، ج ١١، ص ٥٨٩.

(٣) مستدرك نهج البلاغة، الشيخ هادي كاشف الغطاء، ص ١٦٣، وفي كتاب مصادقة الإخوان للشيخ الصدوق، ص ٤٧: عن المفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام «اختر شيعتنا في خصلتين، فإن كانتا فيهم وإلا فاعزب، ثم اعزب»، قلت ما هما؟ قال: «المحافظة على الصلوات في مواليتهن، والمواساة للأخوان وإن كان الشيء قليلاً».

(٤) الكافي، الكليني، ج ٨، ص ١٠٢.

(٥) الأمالي، الطوسي، ص ٩٨.

(٦) الخصال، الصدوق، ص ٨.

- (٧) الكافي، الكليني، ج ٢، ص ٣٦٦.
 - (٨) نفس المصدر: ج ٨، ص ١٢٦.
 - (٩) مصادقة الإخوان، الصدوق، ص ٣٨.
 - (١٠) الكافي، الكليني، ج ٢، ص ٢٠٠.
 - (١١) نهج البلاغة، ج ٤، ص ٧.
 - (١٢) الكافي، الكليني، ج ٢، ص ١٦٥.
 - (١٣) نفس المصدر، ج ٢، ص ١٨٩، ومصادقة الإخوان، الصدوق، ص ٦٠.
 - (١٤) الكافي، الكليني، ج ٢، ص ٣٦٧.

العدد الرابع والخمسون - السنة الرابعة عشر
ربيع الثاني ١٤٣٩ هـ - ديسمبر ٢٠١٧

۲۰۷

ד

عادات وتقالييد في ميزان الشرع

الشيخ عزيز حسن الخضران

الملاخّص:

ذكر الكاتب في مقالته سبعاً من العادات والتقاليد الاجتماعية المتنوعة، وحاول ذكر الإيجابي فيها، ومعالجة السلبيات التي تتعلق بها، وكل ذلك حسب الميزان الشرعي، ومن أهم هذه العادات التي ذكرها مسألة التأخر في الزواج وأسبابها، وما هو رأي الشرع الحنيف فيها، وكيفية علاجها.

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلَّى اللهُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ.

هناك عادات وتقالييد اجتماعية كثيرة، بعضها له جذوره الدينية والشرعية وبعضها لا يُدرى ما هي جذوره وكيف تحولت إلى عادات، ولا شك في أن العادات والتقاليد تحكي وتشير إلى الثقافة العامة التي يحملها

المجتمع؛ فهي تؤثر في نظرة الآخرين سلباً أو إيجاباً، وهذا يعني أهمية هذه المسألة ومعالجتها.

وકإسهام في تصحيح بعض هذه العادات الخاطئة والتقاليد غير المتواقة مع القيم الدينية والأحكام الشرعية نحاول في هذا البحث المختصر إحصاء بعض هذه العادات ومناقشتها وتصحيح الخطأ منها وتشجيع الصحيح منها، وكلامنا سيكون حول المجتمع الإسلامي بشكل عام.

وقبل البدء في ذكر هذه العادات لا بد من الإشارة إلى بعض الأمور المهددة:

الأمر الأول: معنى العادة والتقليد

العادة: بمعنى الدأب على الشيء وملازمته والاعتياض والتّعود عليه^(١)، وقُسمت العادة إلى اختيارية وأضطراريه، فالاختيارية "كتعود شرب النبيذ وما يجري مجرى ما يكثر الإنسان فعله فيعتاده ويصعب عليه مفارقته، والاضطرار مثل أكل الطعام وشرب الماء لإقامة الجسد وبقاء الروح وما شاكل ذلك"^(٢).

التقليد: وهو إلزام النفس بشيء معين، وجعله في عنقه^(٣)، ومنه القلادة حيث توضع على عنق المرأة، ومنه أيضاً التقليد في الدين^(٤)، هو الرجوع إلى الفقيه في المسألة الشرعية وإلزام النفس بفتواه.

فالعادات والتقاليد هي الأفعال والمارسات التي اعتاد عليها الناس وألزموا بها أنفسهم، فأصبحت جزءاً من ممارساتهم الحياتية الطبيعية.

الأمر الثاني: قدسيّة العادات والتقاليد في الذهنية الاجتماعية

العاداتُ والتقاليدُ تختلفُ من مجتمعٍ لآخرٍ وتختلفُ من حيث التعلقُ والرسوخُ والتمسُكُ بها:

فمنها: العادات التي تصل إلى مستوى تكون كالعقيدة والدين الذي لا يمكن أن يتخلّى عنه الإنسان بسبب توارثه جيلاً بعد جيل، ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(٥)، ﴿إِذَا قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾^(٦)، ولذلك ذكر أنَّ من معاني العادة الدين.^(٧)

ومنها: العادات التي تكون أقل رسوخاً وتجذراً.

ويرتبط الرسوخ والتعلق بحسب منشأ العادة، فهناك عادات لها علاقة بالدين؛ بمعنى نسبتها إلى الدين بغض النظر عن صحة النسبة، وهناك عادات لا علاقة لها بالدين، بل هي عادات قبلية أو عائلية أو قومية.

الأمر الثالث: كيف يمكن تصحيح العادات الخاطئة أو مواجهتها؟

رغم صعوبة تغيير العادات لما تحمل من قدسيّة في الذهنية العامة للناس، لكن لا يعني ذلك عدم القدرة على معالجتها، فقد استطاع الإسلام العظيم أنْ يغيّر أمّةً بأكملها من خلال السعي الكبير الذي قام به رسولنا الكريم ﷺ، مع أنَّ الأمة في ذلك الوقت تحمل من العادات والتقاليد المتजذرة ما يجعل من الصعب تغييرها بالشكل الذي حصل، وهو من معاجز النبي الأعظم ﷺ.

ومن العادات التي غيرها النبي ﷺ بخطوة عملية، هي مسألة التبني،

٢٠١٧ - السنة الرابعة عشر
٤٤ هـ - الموسوعة الدينية
٣٦ - رباعي الثاني
٢٠١٨ - العدد الرابع والستون

القسم

٦٦

فقد كان العرب يتبنون بعض الأشخاص كأبناء، ثم يعطونهم كل حقوق البنوة ويرتبون عليهم كل الآثار، وقد تبني النبي ﷺ زيد بن الحارثة قبلبعثة حيث كان زيد قد أصيب في السبي وباعه أحدهم على خديجة فوهبته للنبي ﷺ، وجاء أبوه يطالبه فخيّر النبي ﷺ في البقاء معه أو الذهاب مع أبيه فاختار رسول الله ﷺ فاعتقه وتبنّاه فكانوا يسمونه زيد بن محمد، وفي المدينة زوجه بابنة عمته زينب بن جحش، ثم طلقها زيد فتزوجها رسول الله ﷺ وأراد بذلك أن يكسر الحاجز حيث إنها زوجة ابنه بالتبني، ولا يجوز الزواج بزوجة ابن عندهم ولو كان بالتبني، وأخذ المنافقون يتتكلّمون في هذا الأمر، ونزل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَذْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ رَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِّيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبِدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى رَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَا رَوْجَنَا كَهَا لَيْكَ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرْجٌ فِي أَرْوَاجِ أَذْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرَا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾^(٢).

نماذج من العادات والتقاليد:

نحاول هنا أن نذكر بعض العادات والتقاليد المترسّخة في المجتمع، ونرى مقدار توافقها مع الدين، ونعالج ما فيها من أخطاء، ونساهم في تعزيز الصحيح منها:

العادة الأولى: إحياء ليلتي النصف من شعبان ومن شهر رمضان

من العادات المنتشرة في البحرين ودول الخليج بالإضافة إلى

العراق^(١٠)، هو إحياء ليلة النصف من شهر شعبان وشهر رمضان، ليس ب مجرد الاحتفال -فإن ذلك عام لكل المناسبات الدينية وعند جميع الشيعة-، بل بما يسمى بـ(النافع) وهو خروج الأطفال والشباب وبعض النساء لليلة النصف لأخذ ما يسمى عند البعض بالبركة وما يوزّعه الناس على أبواب بيوتهم من النقود والحلويات وما شاكل، ولملفت أن هذه الطريقة ليست خاصة بالشيعة بل حتى السنة يقومون بها ويسمونها (القرقاعون).

هذا المقدار من الإحياء لم يرد فيه شيء في الروايات الشريفة، ولا يعلم المنشأ الأساس لهذه العادة المتجدّرة عند الناس، ولكنّها في نفس الوقت لا يوجد فيها محذور شرعي إذا روعي فيها الشرع من عدم الاختلاط، وعدم الإسراف وما شاكل.

ويكُن أَنْ يَكُونُ الْمَنْشَاً هُوَ الْمَنَاسِبَتَيْنِ الْمُوْجَدَدِيْنِ فِي هَاتِيْنِ الْلَّيْلَتَيْنِ، فِي النَّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ وَلَدِ الْإِمَامِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِيْنَ وَهُوَ الْإِمَامُ الْمَهْدِيُّ الْمُنْتَظَرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي النَّصْفِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمَبَارَكِ وَلَدِ الْإِمَامِ الثَّانِي مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِيْنَ وَهُوَ الْإِمَامُ الْحَسَنُ الْمُجْتَبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، خَصْوَصًا أَنَّ الْإِحْيَاءِ يَكُونُ بِشَكْلِ الْفَرَحِ الَّذِي يُشَبِّهُ الْعِيدَ، وَهُوَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْمَنَاسِبَاتِ مِنْ هَذَا النَّوْعِ.

فعلى فرض كون هذا هو المنشأ فيكون لها جذرها الديني، وهذا ما يحتم علينا الحذر أكثر من بعض الممارسات التي يمكن أن يكون فيها مخالفة للدين فمن الملاحظ في الآونة الأخيرة بعض المظاهر غير الجيدة - وهي لا تختص بهاتين المناسبتين - وهو المبالغة في إذاعة الأناشيد التي

تسمى بالإسلامية مع ما فيها من الموسيقى الصاخبة والميوعة التي لا تناسب هاتين المناسبتين، بل قد يكون بعضها حراماً لمناسبتها أهل اللهو واللعب، وجدير بالمؤمنين أن يراعوا حرمة هاتين الليلتين.

وقد ورد في أعمال ليلة النصف من شهر شعبان الإحياء بالعبادة لأنّها أفضل ليلة بعد ليلة القدر، وفيها أعمال كثيرة^(١١)، وهي ليلة شريفة وليلة عبادة عند أهل السنة أيضاً كما ورد في رواياتهم^(١٢) وإن لم نر خارجاً العمل بذلك، ولليلة النصف من شهر رمضان كذلك فيها بعض الأعمال الخاصة حيث تقع في الشهر المبارك الذي هو شهر العبادة والتقوى^(١٣).

العادة الثانية: قراءة القرآن في شهر رمضان

من العادات التي تشمل أغلب أو كل الشعوب الإسلامية، هي فتح المجالس القرآنية العامة في المساجد والمنازل، حيث الأجواء الإيانية لشهر الله الكريم، وفي الرواية: «لكل شيءٍ ربٍ ربٍ في رمضان شهر رمضان»^(١٤).

ويُختتم القرآن فيه مرّة واحدة على أقل التقادير، وورد في بعض روایاتنا ختمه في كل ليلة في شهر رمضان وفي بعضها كل ثلاث ليالي، وفي غير شهر رمضان كل ست ليالي حسب الفراغ^(١٥).

إذاً هذه العادة من العادات التي لها جذرها الديني الواضح، نعم مسألة فتح المنازل والقراءة الجماعية ربما لم يرد فيها نص خاص ولكنّها مصداق من مصاديق إحياء الشهر الكريم بالعبادة، ولو لا وجود هذه المجالس لغفل الكثير عن قراءة القرآن أو الاستماع إليه.

نعم هناك بعض الملاحظات في بعض هذه الأجواء الإيمانية على المؤمنين الالتفات إليها:

أولاً: عملية الإصغاء لقارئ القرآن، فالذهاب للمجلس القرآني وإنْ كان في حدّ نفسه ترويجاً للدين ومطلوباً من المؤمنين، ولكن المطلوب الأهم هو المشاركة ولو ب مجرد الاستماع والإصغاء، والإصغاء يستبطن التفكّر والتمعّن في كلام المتكلّم، وهو ما أمرنا به القرآن الكريم، بل وعاتب المشركين على عدمه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَفَقَالُهَا﴾^(١٦).

والأفضل من ذلك هو المتابعة لكلام الله تعالى بأنْ يقرأ مع القارئ ولو بصوت خفيف ليحصل على ثواب المستمع والقارئ، ففرقٌ بين الاستماع وبين المتابعة بالقراءة.

ثانياً: يلاحظ في بعض المجالس اللغو والأحاديث الجانبية المنافية لقدسية القرآن الكريم، وقد ورد عن عبد الله بن أبي يعفور عن أبي عبد الله عليهما السلام قال: قلت له: "الرجل يقرأ القرآن أ يجب على من سمعه الإنصات له والاستماع؟" قال: «نعم، إذا قرأ عندك القرآن وجب عليك الإنصات والاستماع»^(١٧).

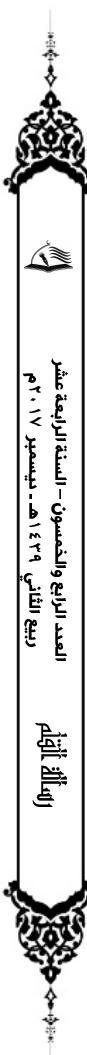
ثالثاً: الملاحظ أنَّ فتح المجالس القرآنية خاصٌ بالفترة الليلية، وربما يكون المرء معدوراً حيث يكون منهاكاً نهاراً -خصوصاً إذا كان يمارس عملاً أو وظيفةً ما أثناء النهار-، ولكن في مثل هذه السنوات حيث يكون النهار طويلاً لا ينبغي الغفلة عن النهار، وقراءة القرآن ليس خاصاً بالليل، وما رُوي من أنه يختتم القرآن في شهر رمضان عشر مرات كل ثلاثة أيام

ختمة^(١٨) يدلّ على ذلك، فمن المستبعد قراءة عشرة أجزاء في خصوص الليلة الواحدة، خصوصاً وأنّ الرواية عبرت بـ (أيام) وليس ليالٍ، واليوم يطلق على النهار، أو مجموع الليل والنهار، فالنهار داخل في الفرضين.

رابعاً: يتصور أكثرنا بأنه إذا حضر بعض هذه المجالس القرآنية يكون قد أدى ما عليه تجاه كتاب الله تعالى، مع أنه مجرد حاضر، وربما كان غافلاً طوال الوقت عن القارئ، ولم يتابعه في آية واحدة أو يتفكّر فيها ويتأمل! ويلهו بقية اليوم عن القرآن الكريم كأنّه لم يمرّ على سمعه خطبة الرسول الأعظم ﷺ في استقبال شهر رمضان: «فاسألو الله ربكم بنيات صادقة وقلوب طاهرة أن يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه، فإن الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر العظيم... ومن تلا فيه آية من القرآن كان له مثل أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور»^(١٩).

العادة الثالثة: عيادة المرضى

من العادات الحسنة والمطلوبة هي زيارة المرضى، إما في المستشفى أو في البيوت، وتندرج هذه في الواجبات الشرعية لو كان المريض من الأرحام حيث إنّها من أبرز مصاديق صلة الرحم، ومن المستحبّات المؤكّدة في غيرهم، بل من حقوق المؤمن على المؤمن خصوصاً بين الأصدقاء والجيران، وللأسف هناك بعض الناس من لا يهتمُ بهذا الأمر، وربما لو مرض هو ولم يزره أحد لحزن في نفسه وتقى لو يزوره الناس لما في ذلك من تأثير إيجابي على النفس، وما في ذلك من تقوية العلاقات الاجتماعية، والجدير بالذكر أنّه لا ينبغي التفرّق في ذلك بين الغني والفقير.



ومن الروايات اللطيفة في هذا الأمر ما روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «يعيّرُ الله عبادَه يوم القيمة، فيقول: عبدي، ما منعك إذ مرضت أنْ تعودني؟ فيقول: سبحانك، أنت ربُّ العباد لا تألم ولا تمرض! فيقول: مرض أخوك المؤمن فلم تعرّه، وعزّي وجلاّي لو عدته لوجدتني عنده، ثم لتكلّفت بحوائجك فقضيتها لك، وذلك من كرامة عبدي المؤمن، وأنا الرحمن الرحيم»^(٢٠).

وي يكن أنْ يفهم من هذه الرواية أنَّ زيارة المريض من حقوق المؤمن على أخيه.

العادة الرابعة: زيارة زوار مَكَّة والمراقد المقدّسة

من العادات المهمَّة والتي كانت في السابق أكثر جاذبية هي زيارة الراجعين من حجَّ بيت الله الحرام أو من زيارة المراقد المقدّسة؛ حيث لم يكن الجميع يذهب إلى الحجَّ والزيارة بهذه الكثرة الحاصلة حالياً، ولا زالت هذه العادة موجودة في بعض البلدان الإسلامية بقوة كما في الجمهورية الإسلامية، فنرى اللافتات المرحّبة على منزل الزائر للتهنئة.

الملحوظ في الفترة الأخيرة (لا أقل في بلدنا البحرين) ضعف هذه العادة، لأسباب عدّة:

منها: كثرة السفر وكثرة المسافرين، فمثلاً في زيارة الأربعين تذهب نسبة كبيرة من الناس إلى كربلاء، وربما تجد بعض العوائل الزائرات فيها أكثر من الباقيين، وكذلك في العمرة الرجبية وعمره عيد الفطر، وهذا يخلق نوعاً من الفتور والسأم في زيارة هذا العدد الكبير كلَّ في منزله، بل نفس الزوار والحجاج قد لا يتھيأون لاستقبال أحد لعدم أهميته في نظرهم.

ومنها: وسائل التواصل الاجتماعي التي أصبحت بديلاً عن التلاقي المباشر، فيكتفي الزائر وال الحاج بالكتابة في (الواتساب) أئن قد رجعت من الحج أو الزيارة، وترى التعليقات من الآخرين بالدعاء والتحميد على السلامة، ويعتبر كل واحد منهم أئن أدى الواجب الذي عليه.

وهذا الأمر يحتاج إلى نظر من قبل المؤمنين، فإنّه يفوّت عليهم بعض الأمور المهمة التي تستهدفها هذه العادة:

فزيارة الحاج وزوار المرقد المقدسة فرصة ثمينة وكبيرة لتنمية العلاقات الاجتماعية فلا تفوّتها على نفسك، وقد يقول قائل إنّا لا نستطيع زيارـة كلـ الحاج والزوار بل أكثرـهم لا يجلسـون لاستقبال أحدـ، والجواب أئن لا يسقط الميسور بالمعسـور، وليس المطلوب هو زيارة الكلـ خصوصـاً إذا كانت زيارة سريـعةً ومتكرـرةً كما فيـمن يـكثـر السـفر، فلتـكن الـزيارة للأـرحـام والمـقربـين، ولـلـجـيرـان مـن يـذـهـبون لأـول مرـة أو كـانت زـيارـتهم طـوـيلة.

وعلى الحاجـ والزوار أنفسـهم التـهيـؤ لاستقبال المؤمنـين، وأـلا يـبالغـوا في طـرـيقـة الاستـقبـال ولـتكن التـهيـة لـذلك بـسيـطـة وـعـفـوـية، وعلى المؤمنـين عدمـ المـكـوتـ كثيرـاً إـذا كانـ ذـلـك يـسـبـب الضـيـقـ والـحـرجـ.

ومن فوائد زيارة الحاجـ والزوار الشـوابـ العـظـيمـ الذي ذـكرـته الروـاـياتـ الكـثـيرـةـ، أـذـكـرـ بـعـضـهاـ: عنـ النـبـيـ عـلـيـهـ وـآلـهـ وـصـلـهـ: «إـذا لـقـيـتـ الحاجـ فـسـلـمـ عـلـيـهـ، وـصـافـحـهـ، وـمـرـأـهـ أـنـ يـسـتـغـفـرـ لـكـ قـبـلـ أـنـ يـدـخـلـ بـيـتـهـ، فـإـنـهـ مـغـفـرـ لـهـ». فـهـذهـ الرـوـاـيـةـ تـحـثـ عـلـى استـقبـالـ الحاجـ عـنـدـ وـصـولـهـ لـلـبـلـدـ وـقـبـلـ دـخـولـهـ مـنـزـلـهـ.

وـعـنـ الـأـمـيرـ عـلـيـهـ: «إـذا قـدـمـ أـخـوـكـ مـنـ مـكـةـ فـقـبـلـ بـيـنـ عـيـنـيـهـ، وـفـاءـ الـذـي قـبـلـ بـهـ

الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ الَّذِي قَبْلَهُ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْعَيْنُ الَّتِي نَظَرَ إِلَيْهَا إِلَى بَيْتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَبْلَ مَوْضِعِ سُبُودِهِ وَوَجْهِهِ، إِذَا هَنَّأُوهُ فَقُولُوا لَهُ: قَبْلَ اللَّهِ نُسُكْكَ، وَرَحْمَ سَعِيْكَ، وَأَخْلَفَ عَلَيْكَ نَفَقَتَكَ، وَلَا جَعَلَهُ آخِرَ عَهْدِكَ بِبَيْتِهِ الْحَرَامِ».

وعن الإمام زين العابدين ع: «بادِروا بِالسَّلَامِ عَلَى الْحَاجِ وَالْمُعْتَمِرِ وَمُصَافَحَتِهِمْ، مِنْ قَبْلِ أَنْ تُخَالِطُهُمُ الدُّنْوُبُ»، وعن ع ع: «يَا مَعْشَرَ مَنْ لَمْ يَجْعَلْ، اسْتَبِرُوا بِالْحَاجِ وَصَافَحُوهُمْ وَعَظَمُوهُمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَبْعِثُ عَلَيْكُمْ، تُشَارِكُوهُمْ فِي الْأَجْرِ». وعن الإمام الباقر ع: «وَقَرُوا الْحَاجَ وَالْمُعْتَمِرِ، فَإِنَّ ذَلِكَ وَاحِدٌ عَلَيْكُمْ». وعن الإمام الصادق ع: «مَنْ لَقِيَ حَاجًا فَصَافَحَهُ كَانَ كَمِنْ اسْتَلَمَ الْحَجَرَ». وعن ع ع: «مَنْ عَانَقَ حَاجًا بِعُبَارِهِ كَانَ كَمِنْ اسْتَلَمَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ»^(٢١).

وهذه الروايات وإن لم تدل على الزيارة في المنزل فيكتفي لقاء الحاج في المسجد أو أي مكان آخر، لكن ذلك لا يعني عدم مطلوبية قصد المؤمن في منزله؛ خصوصاً إذا كان من الأرحام والمقربين، وقد يكون مصداقاً لصلة الرحم التي هي من الواجبات، والتي أصبح التقصير فيها مشهوداً ومتساهلاً فيه، فالأخ أو العم أو الحال أو أبناء العمومة والخوالة ينتظرون من قربهم زيارته لهم في المنزل، أي أن يكون هناك قصد للزيارة، لا أن يكتفي بالحديث في وسائل التواصل الاجتماعي أو اللقاء العفوبي والذي يقع صدفة، ولعل هذا هو أحد أسباب ضعف العلاقات الاجتماعية، وعلى المؤمنين التأمل والتفكير في ذلك جيداً.

العادة الخامسة: المجتمعات العائلية

من العادات الموجودة عند أكثر المجتمعات هو التجمع العائلي الذي

يحصل أسبوعياً أو شهرياً خصوصاً على وجبة الطعام، وهذا له جذوره الشرعية سواء كان الدافع للجتماع هو الشعّر أم لمجرد العادة، فإنه من أجل مصاديق صلة الأرحام والتي هي من الواجبات الشرعية خصوصاً بالنسبة إلى الأبوين والأخوة والأخوات، عادةً بعد زواج الأبناء والبنات يقل الالتفاء خصوصاً إذا كان كلّ واحد يعيش في منطقة مختلفة، فهذا التجمع يكون فرصة مهمة.

وربما يتعدّرُ الكثير عن حضور هذا التجمّع أو يتّساهل في أهميّته، مع أنه من الأمور المهمة في تقوية الروابط والعلاقات الأسرية وبين الأرحام.

الاختلاط العائلي:

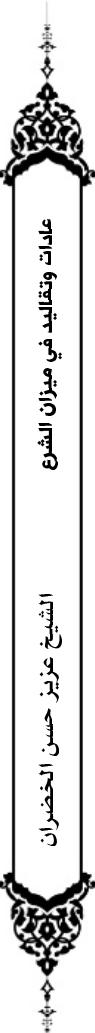
نعم يحاول البعض التملّص من هذه التجمعات لجذور شرعية فيها وهو الاختلاط الموجود بين النساء والرجال، فيجلس الجميع على سفرة واحدة ويكون الشخص بجنبه زوجة أخيه أو ابنة عمه أو ابنة خاله، مع ما يصاحبه من الحديث المتبدّل والضحكات كما هو طبيعة هذه التجمعات، وهذا قد يكون في بعض المجتمعات المنفتحة بشكل كبير، وهو قليلٌ في مجتمعنا البحرياني حيث إنّه من أكثر المجتمعات محافظة، وإذا وزّناً هذا في ميزان الشرع فسنجد مطلوبية الفصل بين النساء والرجال الأجانب حتى لو كانوا من الأرحام، فلييس كلُّ رحم فهو من المحارم كما هو واضح، والمؤمن يبتعد عن مثل هذه المواطن التي يكون الشيطان حاضراً فيها.

والعادة لا تبرّر للمؤمنين التساهل في الأمور الشرعية، والخرج - بسبب العادة الملزمة للحضور - إنّما يجب أنْ يكون في اقتراف

المعصية، وعلى كل حال يجب حينها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول الشيخ محمد صنقولـ^{حـ} في بعض أجوبته على هذه المسألة (الاختلاط العائلي): "الظاهره غير محموده بل هي محرمة لو استلزمت ظهور بعض ما يجب ستره على المرأة كشيء من ذراعها أو شعرها أو ظاهر قدميها كما يكون هذا العمل محرماً لو استلزم النظر إلى وجه الأجنبية برببة، وأما المزاح والتضاحك فهو محرم أيضاً مع المرأة الأجنبية، فقد ورد عن الرسول الكريم ﷺ أنه قال: «ومن صافح امرأة حراماً جاء يوم القيمة مغلولاً ثم يؤمر به إلى النار، ومن فاكه امرأة لا يملكها حبسه الله بكلّ كلمة في الدنيا ألف عام...»^(٢٢)، على أنه لو لم يستلزم الاختلاط العائلي أي محدود شرعي فهو مع ذلك يكون مرجحاً شرعاً لأنّه مظنة للوقوع في المفسدة، فلا يأمن الرجل على نفسه من أن يقع نظره على جسد زوجة أخيه أو ابنة عمه فيكون نظر ريبة وكذلك العكس، فإنّ ذلك مقتضى طبيعة الرجل والمرأة...»^(٢٣).

العادة السادسة: التأخُّر في الزواج

قبل ذكر هذه العادة تجدر الإشارة إلى الفرق بين العادة وبين الظاهرة، فالعادة (ونقصد خصوص العادة الاجتماعية) هي الأمور المترسخة في المجتمع والتي تمارس بشكلها الطبيعي دون حرج، بينما الظاهرة فهي عمل طارئ على سلوك المجتمع وفي الغالب يكون محدوداً في مجموعة من الناس، نعم هذه الظاهرة مع الوقت قد تتحول إلى عادة وتقليد، وحدينا إِنَّما هو عن العادات والتقاليد الموروثة جيلاً بعد جيل، وأمّا الظواهر فعلّنا نوفق للحديث عنها في فرصة أخرى.



عادة الأجداد في الزواج:

لقد كانت عادة الآباء والأجداد في أمور الزواج تعتبر أفضل من زماننا في بعض الأمور، كالسهولة في الزواج وعدم التعقيد، وطريقة الزفاف الشعبية التي تنشر حالة من الفرح الكبير على نفس الزوجين بل وكل العائلة والمقربين وعموم المؤمنين، ومنها التبكيير في الزواج الذي حثّ عليه الرواياتُ الشريفَةُ خصوصاً في الفتاة، ويمكن معرفة ذلك بسهولة من خلال النظر إلى أعمار الآباء والأمهات بالنسبة إلى الولد الأكبر، ففي الغالب يكون الفارق دون العشرين سنة مما يدل على الزواج المبكر للأب وبالأخص الأم.

سن الزواج:

وأمّا في زماننا فأصبح السنُ المتعارفُ للزواج هو فوق العشرين، ولعلَّ بعض البلدان يكون السن المتعارف فوق الثلاثين، وأدرجت هذا الأمر في العادات؛ لأنَّه فعلًا أصبح أمراً راسخاً ومتجذراً؛ بحيث لو أراد الأب والأم تزويج ابنتهما في سن الرابعة عشر أو الخامسة عشر فكأنهما جنِيَا جنِيَا في حقها لا تغترر، ولو أراد الشاب في سن السادسة عشر أو السابعة عشر الزواج لرَدَّ عليه باستهزاء بأنَّك لا زلت صغيراً وفي مرحلة الطفولة بالنسبة للزواج !!

والحديث عن هذه العادة مهم جداً ويحتاج إلى نقاش موسّع، ولكن نختصره قدر المستطاع في نقاط عدة:

النقطة الأولى: الروايات الواردة في التبكيير في الزواج:

المهم للمؤمن هو النظر إلى رأي الدين في هذه المسألة التي لا يمكن للناس معرفة العلل والأسباب والآثار المتنوعة المترتبة على تبكيـر الزواج أو تأخـيره، بل الله تعالى الخالق لهذا الإنسان والجـاعل فيه الغـائز والشهـوات والـ حاجـات، هو العـالم بما يـصلـحـه وما يـفسـدـه، ولـذا عـلـينا النـظر إلى روـاـيات أـهـلـ بـيـتـ العـصـمـةـ وـالـطـهـارـةـ.

أما البنت: فورد عن النبي ﷺ أنه قال: «من سعادة الرجل ألا تحـيـضـ ابـنـتـهـ فيـ بـيـتـهـ»^(٢٤)، وهذا يعني أنـ يـزوـجـهاـ فيـ العـاـشـرـةـ وـالـثـانـيـةـ عـشـرـ، حيث إنـ الحـيـضـ يـجيـءـ عـادـةـ فيـ هـذـاـ السـنـ، وـالـتـعبـيرـ عـنـ ذـلـكـ بـأـنـهـ «من سـعادـةـ الرـجـلـ» لـعـلـهـ يـشـيرـ إـلـىـ اـطـمـئـنـانـهـ عـلـىـ اـبـنـتـهـ مـنـ الـانـحرـافـ وـالـانـزـلـاقـ حـينـ تـزـوـجـ فـيـ هـذـاـ السـنـ الـمـبـكـرـ، وـقـبـلـ أـنـ تـشـتـدـ بـهـ الشـهـوـةـ وـتـنـزـلـقـ فـيـ الـمـعـصـيـةـ، وـلـذاـ وـرـدـ عـنـ إـلـيـامـ الصـادـقـ عـلـيـهـ الـسـلـيـلـ أـنـهـ قـالـ: «كـانـ عـلـيـ بـنـ الـحـسـينـ عـلـيـهـ الـسـلـيـلـ إـذـاـ أـتـاهـ خـتـنـهـ عـلـىـ أـخـتـهـ أـوـ عـلـىـ أـخـتـهـ بـسـطـ لـهـ رـدـاـهـ ثـمـ أـجـلـسـهـ ثـمـ يـقـولـ: مـرـحـباـ بـمـنـ كـفـىـ الـمـؤـنـةـ وـسـتـرـ الـعـورـةـ»^(٢٥)، وقد يـعـبـرـ فـيـ الـعـرـفـ الـعـامـيـ لـدـيـنـاـ أـنـهـ بـنـتـ سـتـرـ اللـهـ عـلـيـهـاـ، فـالـزـوـاجـ سـتـرـ، فـلـيـكـ هـذـاـ سـتـرـ مـبـكـراـ.

وكـذـلـكـ يـفـهـمـ مـنـ روـاـيـاتـ أـنـ المـعيـارـ فـيـ المـتـقـدـمـ أـنـ يـكـونـ مـتـدـيـنـاـ وـخـلـوقـاـ، فـمـقـىـ أـتـىـ لـزـمـ قـبـولـهـ، وـلـاـ يـلـحـظـ سـنـهـ أـوـ سـنـ الـبـنـتـ، كـمـ رـوـيـ عـنـ إـبـرـاهـيمـ بـنـ مـحـمـدـ الـهـمـدـانـيـ قـالـ: «كـتـبـتـ إـلـىـ أـبـيـ جـعـفـرـ عـلـيـهـ الـسـلـيـلـ فـيـ التـزـوـيجـ، فـأـتـانـيـ كـتـابـهـ بـخـطـهـ: «قـالـ رـسـوـلـ اللـهـ عـلـيـهـ وـالـهـ أـنـهـ: إـذـاـ جـاءـ كـمـ مـنـ تـرـضـوـنـ خـلـقـهـ وـدـيـنـهـ فـزـوـجـوـهـ، إـلـاـ تـفـعـلـوـهـ تـكـنـ فـتـنـةـ فـيـ الـأـرـضـ وـفـسـادـ كـبـيرـ»^(٢٦). وـعـنـ رـاوـيـ آخـرـ كـتـبـتـ إـلـىـ أـبـيـ جـعـفـرـ عـلـيـهـ الـسـلـيـلـ أـسـأـلـهـ عـنـ النـكـاحـ؟ فـكـتـبـ إـلـيـهـ: «مـنـ خـطـبـ إـلـيـكـمـ فـرـضـيـتـ دـيـنـهـ وـأـمـانـتـهـ فـزـوـجـوـهـ، إـلـاـ تـفـعـلـوـهـ تـكـنـ فـتـنـةـ فـيـ الـأـرـضـ وـفـسـادـ كـبـيرـ»^(٢٧).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الإمام الجواد عَلَيْهِ تزوُّج وهو حديث السن، وبنو العباس اعترضوا على ذلك ولكن ليس بسبب صغره بل خوفاً على ملكهم، مما يكشف عن أنَّ الزواج في تلك السن لم يكن شاذًا ونادرًا.

وقلنا بأنَّه حتى بالنسبة إلى الشاب لم تشترط الروايات سنًا معيناً، وإنْ كان هناك سنٌ متعارفٌ بحيث يصدق عليه عند العرف أنَّه سن الزواج، وبالتالي فهو لا يزيد على سن العشرين، وهذا ما كان عليه الآباء والأجداد فضلاً عن زمان النبي ﷺ والأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

عن علي عَلَيْهِ تزوُّج قال: «قال رسول الله عَلَيْهِ تزوُّج إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، قلت: يا رسول الله وإنْ كان دنياً في نسبه، قال: إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إلا تفعلوه تكون فتنة في الأرض وفساد كبير» ^(٢٨).

النقطة الثانية: أهم أسباب التأخُّر في الزواج:

هناك أسباب كثيرة لتأخر الزواج في زماننا المعاصر، من أهمها:

١- الحالة المادية: حيث ترى الكثير يتعذر بعدم الحصول على الوظيفة، فكيف يتزوج ويصرف على أهله، وكيف يوفر تكاليف الزواج المبالغ فيها في أكثر بلداننا، فيتأخر إلى أنْ يحصل على العمل ويجمع مقداراً من المال وهذا ما يحتاج إلى وقت طويل.

٢- الحالة الاجتماعية: والمقصود منها أنَّ الحياة الاجتماعية تغيرت فلا بد للمرأة من أنْ تدخل المدرسة ثم الجامعة ولا تخرج إلا فوق سن العشرين، ومتى من الزواج أيام الدراسة الجامعية فضلاً عن امتناعها أيام

المدرسة، وكذلك الشاب فلا يوجد لدينا من يتزوج قبل إتمام الثانوية على أقل التقادير^(٣٩).

ودخول الجميع للجامعات أولاً وبناتاً يحتاج إلى نظر في جدواه، لا يصلح المقام لمناقشته.

٣- العادة الاجتماعية والثقافية: وهو الأهم؛ حيث العادات والتقاليد تحكم على الجميع، فقد أصبح من المعيب أن تُتزوج البنت وهي في المدرسة ويعتبر انتهاكاً لحق الطفولة! وتضييقاً لمستقبل البنت!

وأما الشاب فكان من واجب الأب تزويجه وأصبح اليوم من الواجب على الشاب أن يتعب ويعتمد على نفسه في التمهيد والتخطيط للزواج من خلال الدراسة والعمل وجمع المال، وكونه لم يدخل هذه التجربة فلا حل له إلا التأخير.

للشرع في هذه الأمور رأياً ينبغي للمؤمنين الالتفات إليه لعلاج هذه العادة التي استحكمت في المجتمع، ولها آثارها الخطيرة التي تتغافل عنها.

النقطة الثالثة: الآثار السلبية لتأخير الزواج

وحتى تكون هناك جدية في العلاج لا بد أولاً من الإشارة إلى الآثار الخطيرة من هذه العادة، وباختصار نقول: إن من أهم الآثار الخطيرة هي حالة الانحراف الأخلاقي الذي يسبب العار أولاً على الأب والأم والعائلة، وثانياً ينشر الرذيلة والفساد والانحطاط في المجتمع، والآثار الاجتماعية والنفسية للزنا واللواء والفواحش غير خفية.

خصوصاً ونحن نعيش في زمن لا يخلو مكان وزمان فيه من الإثارة،

فمن البيت حيث التلفاز وقنواته المبتذلة، إلى الهواتف وشبكات التواصل التي سهلت على الأطفال فضلاً عن الشباب الوصول إلى ما يشتهون بشتى الأشكال والألوان، وصولاً إلى الشوارع وبيئة العمل ومكان الدارسة المختلطة وبالأخص في الجامعات حيث يتزامل الشاب مع الشابة، فمع كلّ هذا الجو المشحون بالإثارات مصحوباً بقوة الشهوة الجنسية في هذا السن، يقال بلزوم تأخير الزواج لتأمين المستقبل؟!

ومن الآثار السلبية للتأخير: قلة الإنجاب، قلة السكان، وقلة الروابط الاجتماعية، وصغر العائلة المكونة من الأب والأم والأولاد ثم قلة الأعمام والأحوال وبالتالي قلة أبناء العمومة والخوالة، والكثير لا يلتفت إلى هذا الأثر خصوصاً على المدى البعيد.

النقطة الرابعة: علاج هذه المشكلة^(٣٠)

لعلاج هذه المشكلة يحتاج المجتمع إلى تعزيز ثقافته الدينية وارتباطه بالأوامر الإلهية ومعرفة المصالح والمفاسد في التشريعات القرآنية، والنظر بثقة كاملة فيما قاله الموصومون عليهما السلام فيما يرتبط بكلّ الجوانب الحياتية، والعمل الجماعي لرفع هذه المشكلة برفع أسبابها:

وهنا نعرض بعض الروايات التي تثلج الحال إذا نزلم بها المؤمنون بالنسبة إلى الجانب المالي والذي هو من أهم موانع زواج الشباب، وسببه نحن المؤمنون الذين نتجاوز المعتول في الطلبات والمهور العالية وما رافقها من فستان باهظ، ومكان فاخر.. الخ، بينما يقول رسول الله ﷺ فيما روی عنه: «أفضل نساء أمتي أصبهن وجهها، وأقلهن مهرًا»^(٣١)، وعن زين العابدين عليهما السلام: «فاما شئ المرأة فكثرة مهرها، وعقم رحمها»^(٣٢).

إِنَّ مِنْ بَرَكَةَ الْمَرْأَةِ قُلْلَةٌ مَهْرَهَا، وَمِنْ شَوْمَهَا كُثْرَةٌ مَهْرَهَا.

وَهُلْ هُنَاكَ أَعْظَمُ مِنْ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهَا؟ فَكُمْ كَانَ مَهْرَهَا؟ وَمَا هُوَ عَفْشُ
بَيْتِهَا؟ فَهُلْ أَنْزَلَ ذَلِكَ مِنْ قَدْرِهَا؟ كَلَّا بَلْ هِيَ الْمَبْرُوكَةُ الْمَسْمُونَةُ، عَنِ
الصَّادِقِ عَلَيْهِ: «إِنَّ عَلَيَّ تَزْوِيجُ فَاطِمَةَ عَلَى جَرْدِ بَرْدِ وَدَرْعِ وَفَرَاشِ كَانَ مِنْ أَهَابِ
كَبْشِ». وَعَنْهِ عَلَيْهِ أَيْضًا: رَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا عَلَى درَعِ حَطْمِيَّةٍ
يُسُوِيُ ثَلَاثِينَ دَرَهَمًا»^(٣٣).

وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَيْ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ
وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءٍ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣٤)، وَهُلْ فَوْقُ وَعْدِ اللَّهِ
وَعَدْ؟! يَقُولُ إِمامُنَا الصَّادِقُ عَلَيْهِ فِي شَأنِ هَذِهِ الْآيَةِ: «مَنْ تَرَكَ التَّزْوِيجَ مُخَافَةً
الْعِيلَةِ فَقَدْ أَسَاءَ الظَّنَّ بِاللَّهِ تَعَالَى»^(٣٥)، وَعَلَى أُولَيَاءِ الْأَمْوَارِ عَدْمُ النَّظرِ إِلَى فَقْرِ
الرَّجُلِ الْمُتَقْدِمِ لَابْنِهِمْ بَلْ إِلَى دِينِهِ وَخَلْقِهِ^(٣٦).

وَأَمَّا الْجَانِبُ الْاجْتِمَاعِيُّ: وَتَغْيِيرُ الْحَالِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْدِرَاسَةِ فَلَا تَنْتَهِي
الشَّابَةُ مِنِ الْمَدْرَسَةِ وَالجَامِعَةِ إِلَّا بَعْدِ تَجاوزِ الْعَشِرِينَ، وَكَذَلِكَ الشَّابُ
فَهُنَا حَدِيثٌ طَوِيلٌ ذُو شَجُونٍ، اخْتَصَارُهُ أَنَّ تَقْدِيمَ الْدِرَاسَةِ عَلَى تَحْصِينِ
النَّفْسِ مِنِ الْانْحرَافِ هُوَ قُلْلَةٌ مُبَلَّةٌ، وَلَا نَعْنِي بِذَلِكَ تَرْكُ التَّعْلِمِ رَأْسًا بِلَّ
يُكَنُّ الْجَمْعُ، كَمَا هُوَ الْحَالُ عِنْدَ الْمُعْلِمَاتِ وَالْطَّبِيبَاتِ حِيثُ لَا مَانِعُ مِنِ
الرِّوَاجِ وَإِنْجَابِ الْأَوْلَادِ وَبَيْنِ عَمَلِهِنَّ، فَكَذَلِكَ التَّعْلِمُ فِي الْمَدْرَسَةِ أَوِ
الجَامِعَةِ، وَبِخَصْصَوْصِ الْفَتَاهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ التَّخْصِصُ الجَامِعِيُّ لَهُ دَخْلٌ فِيمَا
تَحْبُّ أَنْ تَعْمَلَ فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ فَالرَّأْيُ أَنَّ دُخُولَ الْجَامِعَةِ هُوَ تَضِيِيعُ
لِلْوَقْتِ وَالْعُمَرِ وَالدِّينِ أَيْضًا، وَلَا حَرْجٌ فِي عَدْمِ دُخُولِهَا الْجَامِعَةَ،
بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ عَمَلَ الْمَرْأَةِ فِي زَمَانِنَا وَبِالشَّكْلِ العَشَوَائِيِّ الْمُوْجُودِ

ضرره أكثر من نفعه، فإذا تفرّقت للعمل -مع أنه من وظائف ومسؤوليات الرجل دون المرأة إذا كان القصد هو الدخل المادي - فمن يقوم بالمهمة العظيمة والمسؤولية الجسيمة في تربية الأولاد؟! أليس ذلك عمل عظيم وفوائده تعم جميع المجتمع؟

وأما الشاب، فهو أعرف بنفسه، فإذا رأى بأنّ نفسه تتوق للزواج، والأجواء الجامعية وغيرها تؤثر سلباً على تدينه فهو مسؤول في تعجيل الزواج، ويكنه تأجيل الإنجاب قليلاً، وأما الجانب المادي فتقدّم الكلام فيه، وعليه أن يتوكّل على ربه.

وأما العادات الاجتماعية التي تنظر للبنت على أنها طفلة على الزواج ما دامت دون الثامنة عشر، فهو من دسائس الغرب حيث تحديد الطفولة بذلك، وأنّ الزواج قبل هذا السن يعتبر جنائية على البنت، حتى تجد بعض الدول الإسلامية تمنع زواج البنت رسمياً قبل هذا السن!!

وباختصار أقول: الغرب يستعيض للبنت عن زواجها قبل هذا السن بالصداقة مع أحد الشبان، بل -كما نقل أحد الأخوة- إنّهم يجبرون الشباب والشابات على اختيار الصديق أو الصديقة في المدرسة!! والشاب الذي لا يصادق بنتاً يعتبر مريضاً نفسياً!! وما هذه النّظرة إلا لكونهم يرون ضرورة إشباع هذه الغريزة ولكنّهم يختارون لها الطريق الخطأ والمنهي عنه في الشريعة.

أما نحن المسلمين فعلينا ألا نضيع بناتنا وأبنائنا، وعليينا تعجيل الزواج لهم امتثالاً للروايات الشريفة، فكيف يجوز أنْ تترك البنت عشر سنوات أو أكثر بعد البلوغ واستناد الحاجة الجنسية ومع هذا الجو

بدون زواج ونبرر ذلك بأنَّ النظرة الاجتماعية تغيرت؟! ألسنا جزء من المجتمع، بل نحن كل المجتمع، ويكتننا تغييره لو تعاونا في مثل هذه الأمور.

العادة السابعة: بعض مراسيم الزواج

الزواج أمر مقدس مبارك، وبالزواج يحرز المؤمن نصف دينه كما ورد في الروايات، وينبغي أنْ يعلم المؤمن والمؤمنة عظمته هذا الأمر وأنه نوع من أنواع الطاعة والعبادة التي حثَّ عليها الشرع كثيراً، ويكتفي ما روى عن الرسول الأعظم ﷺ: «من أحبَّ أنْ يكون على فطرتي فليستنِّ بستي وإنْ من سنتي النكاح»^(٣٧).

وهناك بعض ما يشوب هذه السنة المحمدية بالشوائب، فصحيح أنَّها ليلة فرح وسرور، وأباح الشرع ذلك ولكن في حدود الشريعة والدين، وللأسف نحتاج علاج بعض العادات المصاحبة للزواج ذكر منها أمرين:

الأول: دخول الزوج على الزوجة وسط النساء الأجانب

وحيث إنَّ طبيعة المناسبة أنْ تتزين النساء وتظهر تملُّك الزينة على وجوههن وشياههن، فهنا يقع المحدود الشرعي من النظر والريبة المحرمة ومن الطرفين، وكما لا يجوز للمرأة أنْ تظهر زينتها للرجال كذلك لا يجوز لها النظر إلى الرجل بريبة، وقد يكون الزوج الحاضر وسيماً جميلاً وبطبيعة الحال سوف يتمُّ الإمعان في النظر إليه، وقد ورد عن الصديقة الزهراء علَّيْها السلام: «ليس شيء خيراً للمرأة [من] ألا يراها الرجل ولا تراه»^(٣٨).

وهذه العادة للأسف لا زالت موجودة بشكل وآخر، بل في بعض البلدان الإسلامية -كما رأينا في الصحف والتلفاز- في الزواجات الفردية والجماعية يحضر العرسان مع زوجاتهم وهن بفستان الزواج وسط الجموع؟! ولا أدرى من أين هذه العادات الدخيلة؟! وكيف يسمح هذا الشاب لنفسه أن تُعرض زوجته بفستان زواجها على عموم الناس!!

الثاني: مكياج الزوجة وكذلك أهلها وأصدقاؤها

من الطبيعي أن تتزَّين المرأة ليلة زواجها وكذلك أهلها وأقربائها ومحبوها، وهذا من حقها، وليس ممنوعاً شرعاً، ولكن الإشكالية من ناحيتين:

الأولى: الإسراف؛ حيث تبالغ كثير من النساء من وضع المكياج سواء كانت المتزوجة قريبة منها أم بعيدة، وتجبر زوجها أو أبها على ذلك مع كراحتهما لذلك، ولكن دفعاً للشرارة والإصرار المتكرر -مثلاً- يوافقان على ذلك، وعلى المرأة المؤمنة أن تتحرّز في ذلك دفعاً لهذا المحدود الشرعي.

الثانية: إظهار الزينة للأجنبي؛ والأجنبي بالنسبة للمرأة يشمل أخ الزوج، وأولاد العم والعمة، وأولاد الحال والخالة، فضلاً عن البعيدين نسبياً عنها، فكلّ رجل يجوز للمرأة أن تتزوج به (عند كونها غير متزوجة) فهو أجنبي عنها، ولا يجوز إظهار الزينة بختلف أشكالها أمامه، حتى زينة اللباس والثياب فضلاً عن المكياج في الوجه واليدين.

أكتفي بهذا المقدار من ذكر العادات، وربما نوفق في مقالة أخرى بذكر غيرها، والتفصيل فيها أكثر، وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين..

الهوامش:

- (١) لسان العرب، ابن منظور، ج ١، ص ٣٦٨-٣٦٩، وج ٣، ص ٣١٨.
- (٢) الفروق اللغوية، أبو الملال العسكري، ص ٣٤٥-٣٤٦.
- (٣) كتاب العين، ج ٥، ص ١١٧.
- (٤) الصحاح، الجوهرى، ج ٢، ص ٥٢٧.
- (٥) سورة الشعراة: ٧٤.
- (٦) سورة الأنبياء: ٥٣-٥٢.
- (٧) كتاب العين، الخليل الفراهيدى، ج ٨، ص ٧٣، ومعجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج ٢، ص ٣١٩.
- (٨) سورة الأحزاب: ٤.
- (٩) سورة الأحزاب: ٣٧، راجع: بحار الأنوار، العلامة المجلسى، ج ٢٢، ص ١٧٢-١٧٣.
- (١٠) انظر: الموقع على الإنترنت (ويكيبيديا) تحت عنوان (قرقيعان).
- (١١) ذكرها الشيخ القمي في مفاتيح الجنان كالغسل ودعاة كميل وزيارة الإمام الحسين علیه السلام، وكثير من الأدعية والأعمال الأخرى، راجع أعمال ليلة النصف من شعبان.
- (١٢) راجع، سنن ابن ماجة، ج ١، ص ٤٤٥، وجمع الروائد للهيثمى، ج ٨، ص ٦٥، والمصنف لعبد الرزاق الصناعي، ج ٤، ص ٣١٧.
- (١٣) راجع مفاتيح الجنان، أعمال ليلة النصف من شهر رمضان.
- (١٤) ثواب الأعمال، الشيخ الصدوقي، ص ١٠٣.
- (١٥) جاء في الكافي، ج ٢، ص ٦١٨-٦١٩: عن علي بن المغيرة، عن أبي الحسن علیه السلام قال: قلت له: إنّ أبي سأله جدّك، عن ختم القرآن في كلّ ليلة، فقال له جدّك: «كلّ ليلة»، فقال له: في شهر رمضان، فقال له جدّك: «في شهر رمضان»، فقال له أبي: نعم ما استطعت. فكان أبي يختتمه أربعين ختمة في شهر رمضان، ثم ختمته بعد أبي فربما زدت

وربما نقصت على قدر فراغي وشغلي ونشاطي وكسلني فإذا كان في يوم الفطر جعلت لرسول الله ﷺ ختمة ولعلي عليه السلام أخرى لفاطمة عليها السلام أخرى، ثم للأئمة عليهم السلام حتى انتهيت إليك فصیرت لك واحدة منذ صرت في هذا الحال فأيّ شيء لي بذلك؟ قال: «لك بذلك أن تكون معهم يوم القيمة»، قلت: الله أكبر [ف] لي بذلك؟! قال: «نعم»، ثلث مرات». وعن علي بن أبي حمزة قال: سأله أبو بصير أبا عبد الله عليه السلام وأنا حاضر فقال له: جعلت فداك أقرأ القرآن في ليلة؟ فقال: «لا»، فقال في ليلتين؟ فقال: «لا»، حتى بلغ ست ليال وأشار بيده فقال: «ها»، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا أبا محمد إنَّ من كان قبلكم من أصحاب محمد عليه السلام كان يقرأ القرآن في شهر وأقل، إنَّ القرآن لا يقرأ هذرمة ولكن يرثِّل ترتيلًا؛ إذا مررت بآية فيها ذكر النار وقفتش عندها وتعوذت بالله من النار»، فقال أبو بصير: أقرأ القرآن في رمضان في ليلة؟ فقال: «لا»، فقال: في ليلتين؟ فقال: «لا»، فقال: في ثلاثة؟ فقال: «ها»، وأوْمًا بيده «نعم؛ شهر رمضان لا يشبهه شيء من الشهور، له حقٌّ وحرمة، أكثر من الصلاة ما استطعت».

(١٦) سورة محمد: ٢٤.

(١٧) وسائل الشيعة، المرجع العاملی، ج ٦، ص ٢١٤.

(١٨) المقنعة، المفید، ص ٣١١.

(١٩) الأمامی، الصدوق، ص ١٥٤-١٥٥.

(٢٠) أمالی الشیخ الطوسي، ص ٦٢٩.

(٢١) الحج والعمرة في الكتاب والسنة، الري شهري، ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٢٢) ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، الصدوق، ص ٢٨٣.

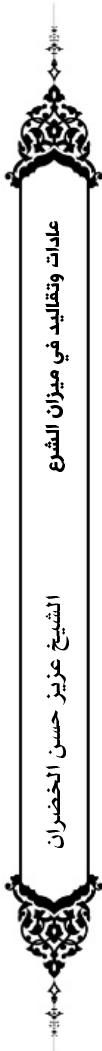
(٢٣) موقع حوزة المهدي. alhodacenter.net. المقالات الأخلاقية - الاختلاط العائلي.

(٢٤) من لا يحضره الفقيه، الشیخ الصدوق، ج ٣، ص ٤٧٢.

(٢٥) وسائل الشيعة، المرجع العاملی، ج ٢٠، ص ٦٥.

(٢٦) نفس المصدر، ص ٧٧.

(٢٧) نفس المصدر.



(٢٨) وسائل الشيعة، للحر العاملي، ص ٧٨.

(٢٩) يقول الشيخ السبحاني خلال حديثه عن زواج المتعة: "هذا وقد خُمِّ بعض فلاسفة الغرب في العصور الأخيرة من الذين اشتهروا بالتحرر من القيود والحرية في الرأي، أصواتهم إلى صوت الإسلام في تشريعه الخالد للنكاح المؤقت. فهذا هو (راسل) يرى أن سنن الزواج قد تأخرت بغير اختيار وتدبير؛ فإنَّ الطالب كان يستوفي علومه قبل مائة سنة أو مائتي سنة في نحو الثامنة عشرة أو العشرين فيتأهل للزواج في سن الرجولة الناضجة، ولا يطول به عهد الانتظار إلَّا إذا آثر الانقطاع للعلم مدى الحياة، وقلَّ من يؤثر ذلك بين المئات والألف من الشبان. أمَّا في العصر الحاضر فالطلاب يبدؤون التخصص في العلوم والصناعات بعد الثامنة عشرة أو العشرين، ويحتاجون بعد التخرج من الجامعات إلى زمن يستعدون فيه لكسب الرزق من طريق التجارة أو الأعمال الصناعية والاقتصادية. ولا يتستَّنَ لهم الزواج وتأسيس البيوت قبل الثلاثين، فهناك فترة طويلة يقضيها الشاب بين سن البلوغ وبين سن الزواج لم يحسب لها حسابها في التربية القدية. وهذه الفترة هي فترة النمو الجنسي، والرغبة الجامحة، وصعوبة المقاومة للمغربات، فهل من المستطاع أن نسقط حساب هذه الفترة من نظام المجتمع الإنساني، كما أسقطها الأقدمون وأبناء القرون الوسطى؟" الإنصاف في مسائل طال فيها الخلاف، الشيخ السبحاني، ج ١، ص ٤٧٩، وهذا الكلام يشمل جميع البلدان الغنية والمتوسطة، وأما الفقيرة، فحيث الكثير لا يذهب للجامعات أو حتى المدارس يكون سن الزواج فيها أكبر.

(٣٠) راجع الفتاوی الميسرة للسيد السيستاني، وكتاب حواریات فقهیة للسيد محمد سعید الحکیم. (زواج البنت)

(٣١) الكافي، الكلینی، ج ٥، ص ٣٢٤.

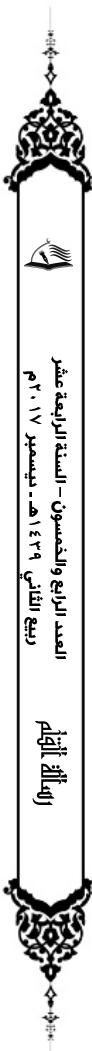
(٣٢) نفس المصدر، ص ٥٦٨.

(٣٣) نفس المصدر، ص ٣٧٧.

(٣٤) سورة النور: ٣٢.

(٣٥) الكافي، الكلینی، ج ٥، ص ٣٣١.

- (٣٦) راجع: الفتاوی الميسرة للسيد علی السیستانی، ص ٣٠١-٣٠٣، وكتاب حواریات فقهیة للسيد محمد سعید الحکیم، ص ٢٣٤-٢٣٦.
- (٣٧) الكافی، الكلینی، ج ٥، ص ٤٩٦.
- (٣٨) مناقب أمیر المؤمنین علیه السلام، محمد بن سلیمان الكوفی، ج ٢، ص ٢١١.



سُنن الْهَلاكِ وَالرُّقِيِّ فِي حَيَاةِ الْأَمَمِ وَالْمَجَامِعِ

- رؤية قرآنية -

الستيد حسن السيد أحمد الغريفي

الملخص:

يتعرض الكاتب إلى أهمية معرفة طرق الهلاك والرقي في المجتمعات، فيتعرض إلى أهمية التفكير في أحوال الماضين وسننهم والهدف من ذلك، ثم يُعرّج على ذكر الأغراض القرآنية لسرد القصة، وبعد ذلك يتطرق إلى رؤية القرآن للتاريخ وعطاءاته، ثم يتعرض إلى عوامل ووقت وصور هلاك الأمم وسقوطها وأفولها باتباعها بنموذج، ويختتم بذكر سنن رقي الأمم وسموها.

مقدمة:

من الموضوعات التي ركّز عليها القرآن الكريم في قصصه، وأمر بالتدبر فيها وأخذ العبر والمواعظ منها، موضوع مصير الأمم السالفة خصوصاً الأمم الهاكلة منها، وذلك عبر النظر فيها وما جرى على أقوامها من أحداث ووقائع وسنن وأحوال، هذه السنن لا شك في أنها

تقوم على علل ومبنيات، والآيات القرآنية طالما أشارت إليها بحيث جعلتها خطوطاً عاممة وعلامات واضحة يستشرف من خلالها المتذمّر الوعي حال الأمم السالفة، وكيف تعاطت مع رسائل الهداية من الله تعالى اسمه، وكيف صدّت نفسها عن طرق الهداية من مكنونات الفطرة والعقل ونهر الأنبياء والرسّل، هي قصص بلية ليست للإشارة والتّشويق بل قصص هداية ومنهج حياة لا تقتصر فقط على زمانها ومكانتها فحسب، بل هي مطردة تجري في كل زمان ومكان، بل لكلّ الأمم والمجتمعات البشرية.

قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١). ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَّمٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَأَخْذَنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾^(٢). ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَّتُنَّ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾^(٣). ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولَئِكَ الْمُنَذِّرِينَ﴾^(٤).

وإذا أردنا أن نطلق لواقعنا في الحياة الاجتماعية، ونستشرف معالم مستقبل حياتنا المنشودة على طريق الحقّ والهداية والصلاح، كان لزاماً علينا أن نبحث عن حركة الأمم في صعودها ورقيّها من جهة، وأيضاً عن عوامل سقوطها وهلاكها من جهة أخرى من خلال القرآن الكريم.

يدرك السيد الشهيد الصدر عليه السلام حول السنن القرآنية في المجتمعات البشرية: "إن القرآن يبيّن أن التاريخ يسير وفق نواميس وسنن. وإن التاريخ

بفضل هذه النواميس والقوانين الخاصة به دائم الصّيروة والحركة، شأنه شأن باقي ظواهر عالم الوجود التي تقوم على قوانين وسفن خاصة بها. والقرآن، ووفق صور وتعابير مختلفة، وانطلاقاً من العديد من الآيات، قد كشف هذه الحقائق ففي بعض الآيات تحدث مباشرة عن وجود هذه القوانين، ولو بنحو كليٍّ وعامٍ، حيث تحدث عن أنَّ التاريخ تحكمه نواميس وسفن خاصة به، كما عمل ضمن آيات أخرى على عرض مصاديق لبعض هذه القوانين والسنن التي تحكم عجلة تاريخ البشرية، كما وجدناه في آية أخرى يتحدث عن بعض النظريات، التي عرضها من خلال ذكره لمصاديق وقائع وأحداث تاريخية واقعية ولم يقتصر على نوع واحد من أنواع التعبير، بل كانت له القدرة على عرضها في أشكال مختلفة ومتنوعة، بمعنى أنَّ المصدق لم يكن هو الأصل في الآية أو الآيات، ولكن المفهوم الكليُّ الذي تكشفه هو المراد^(٥).

مفهوم الأمة:

الأمة لغة:

أَمْتَ إِلَيْهِ: إِذَا قَصَدْتُهُ، معنى الأمةُ في الدِّين أي أنَّ مقصد هم مقصد واحد^(٦).

الأمةُ: الطريقة والدين، يقال فلان لا أمة له أي لا دين له ولا نحلة له^(٧).

نجد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهَتَّدُونَ﴾^(٨).

وأيضاً ذُكرت بمعنى الجماعة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِينَ وَجَدَ

عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ^(٩) أي: جماعة من الناس.

وقد ذكر السيد الطباطبائي رحمه الله في تفسير الميزان: أنّ أصل الكلمة من أمّ، يؤمّ إذا قصد وقد أطلق على الجماعة لكن ليس كلّ جماعة، بل جماعة كانت ذا مقصد واحد وبغية واحدة^(١٠).

وقد وردت مفردات قرآنية عديدة مرادفة لمفردة (الأُمّة) في القرآن الكريم، مثل الجمع والقوم والشعب والقرية وأهل القرى وغيرها.

وعادةً ما يستعمل القرآن في خطابه للأنبياء والأمم المعاصرة لهم، مفردة (القوم):

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيَتَّبِعَ لَهُمْ فَيُضْلِلُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١١).

هنا الحديث عن جماعة النبي الذي ينتمي إليهم إما بأواصر القربي والتسب. وأخرى بمعنى أو اصر العلاقات الفكرية والاجتماعية التي تربطهم بالنبي.

كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١٢).

الأُمّة اصطلاحاً:

أماماً في الاستعمال القرآني نجد مفهوم (الأُمّة) في آيات عديدة: منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَإِنَّا رَبُّكُمْ فَاقْبَدُونَ﴾^(١٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَرَيْهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١٤).

الآيتان الكريمتان وغيرهما، فُسّرت بجماعات من الناس متعددة بحسب واقعها اللغوي والتاريخي الشعبي، إلّا أنها ترتبط فيما بينها بروابط فكرية وشعورية وسلوكية، كما ولها أهداف سياسية وحركية، بحيث تعبّر مجموعها عن مجتمع متكمّل، وأبرز مصدق لتلك الجماعات هي جماعة الأنبياء على مرّ التاريخ الإنساني.

أو كما يعبر الشهيد الصدر رحمه الله "الأمة بوصفها مجتمعاً ينشئ ما بين أفراده العلاقات والصلات القائمة على أساس مجموعة من الأفكار والمبادئ المسندة بمجموعة من القوى والقابليات".^(١٥)

مفهوم السنّن:

السّنة لغةً هي الطّريقة، وسّنة الله أي حكمته وسيرته في خليقته.^(١٦)

السّنن التاريخية اصطلاحاً: عبارة عن الضوابط والقوانين والتّواميس التي تتحكّم في عملية التاريخ والمجتمع.^(١٧)

سّنة الله تعالى بمعنى جريان من ظهور صفاته على ضوابط مخصوصة، تختلف هذه الضوابط باختلاف كلّ صفة وبمقتضى خصوصيتها!^(١٨)

وقد حتّت آيات عديدة على استقراء الحوادث وحياة الماضين وقصص الأنبياء وما جرى على أقوامهم، وذلك للوقوف على الأسباب والعوامل والسنن التي رسمت مصيرها.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنُنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقْبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾^(١٩).

مفهوم الخلافة:

الخلافة لغةً: صار مكانه أو قام مقامه^(٢٠).

اصطلاحاً: الخلافة أن يحاكي من استخلفه في صفاته وأعماله، فعلى خليفة الله في الأرض أن يتخلق بأخلاق الله، ويريد ويفعل ما يريد الله ويحكم ويقضي بما يقضي به الله - والله يقضي بالحق - ويسلك سبيل الله ولا يتعدّاه^(٢١).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢٢).

وهنا الاستخلاف كما يشير جملة من المفسّرين ليس لشخص آدم عليه السلام فحسب بل للجنس الآدمي البشري.

كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلِيفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾^(٢٣).

الهلاك:

لغةً: الشيء الذي يهوي ويسقط^(٢٤).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِمُهَلِّكِهِمْ مَوْعِدًا﴾^(٢٥)، أي لوقت هلاكهم أجلًا، ومن قرأ لـمُهَلِّكِهِم فمعناه لإهلاكهم.

أهمية التفكير في أحوال ومصير الأمم السابقة في القرآن:

أكّد القرآن الكريم من خلال آياته على حقائق عديدة، والتي ترتبط بحياة الناس ومصيرهم وتنظم شؤونهم وترسم طريق الصلاح والهداية

لهم، كما تقنع عنهم المزالق والأخطار التي تحدق بصيرهم ومستقبلهم.

ومن تلك الحقائق التي طالما ركّز عليها القرآن، هو موضوع بحثنا حول أهمية النّظر والتفكير في أحوال الماضين من الأمم السالفة، والأقوام الغابرة، وأخذ العبر والدّروس والتفكير فيها، وهي وقائع بطبيعتها لا تخصّ أمّة دون غيرها.

وقد تناولت آيات القرآن الكريم هذا المعنى من زوايا عدّة:

التفكير في أحوال الماضين:

هذه الدعوة القرآنية لم تأت لحب الاستطلاع، أو هي من نسج الخيال القصصي، بل هي حقيقة وواقع عاشتها أمم سالفة كانت لعلاقتها آثار عملية ارتبطت بصيرها وعاقبتها، من هنا تأتي الضرورة للتفكير فيها. يقول تعالى: ﴿فَاقْصِصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.^(٢٦)

وقد تناول القرآن حياة الأمم في قالب القصة التي هي أقرب للوجدان والمشاعر الإنسانية، وما فيها من تشليل يستثير العقول ويوقظ الوعي الإنساني، نحو آثار وأحوال الأمم ليس في ماهما فقط، بل أيضاً في المسببات وأنماط السلوك والممارسات التي لها صلة وشيقة بحياة الإنسان ومصيره.

الاطلاع على سنن الأولين:

يؤكّد القرآن الكريم دائماً علىأخذ السنن التّاريخية، والتي جرت على الأمم السالفة ومعرفة بصيرها سواءً في صعودها وتقدّمها أو في هلاكها وسقوطها، لذا من الضروري التّعرف على تلك السنن واكتشاف مسار تحقّقها.

ففي الوقت الذي يتعرض لحياة الأمم السابقة، يعرض كيف تعامل الأنبياء مع أقوامهم، وفق سنن وشروط تحكم هذه العلاقة، فهناك سنن للحق علينا الأخذ بها، وهناك سنن للباطل علينا اجتنابها وتركها، هذه السنن والتي بطبيعتها تتتصف بالحتمية، لا يمكن أن تتبدل أو تختلف من أمّة لأخرى ما دامت تسير على خطها ووفق سننها، يقول تعالى في هذا الصدد: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيَبْيَنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَّةَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتَوَبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢٧).

* ثبّيت الرّوح الإيمانية:

قال تعالى: ﴿وَكُلَّا نَقْصًّا عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هُذِهِ الْحُقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢٨).

كذلك لم يكن عرض حياة الأنبياء وأقوامهم مجرّداً للمعرفة والتفكير في القرآن، ولا أن نأخذ السنن منها فحسب، بل كان لها دور مهمٌ في ثبّيت قلوب المؤمنين والروح الرّسالية، في حالات المواجهة والصراع والمحنة، حيث تستحضر المدد الإلهي في حالات النّصر والهزيمة، وتربط الأسباب بيد خالقها فهو الحاكم والمهيمن وبيده مقاليد الأمور وإليه المصير.

هذا بعد يرتبط بالحالة الوجدانية أكثر ويحرّكها بشكل واعٍ وبصيرة ثاقبة.

أخذ العبر من المصير والعاقبة:

إنَّ القرآن كما يدعو للتفكير والتعقل لمارسات الأمم وحالات الصراع بينهم في الأساليب وطبيعة الأ giochi، يدعو إلى أن نأخذ العبر والدّروس في نتائجه ومصيره ومآلاته، فالسرد القصصي كما أشرنا

يهدف للأخذ من حياة الماضين من أجل أن نرسم حاضرنا أو نحدد مستقبلنا القادم.

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَحْيَنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾^(٢٩).

قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾^(٣٠).

يقول الإمام علي عليه السلام في إحدى خطب نوح البلاغة «واعتبروا بما قد رأيتم من مصارع القرون قبلكم». ويريد به الأمم الماضية أو الأجيال الماضية، فالقرن في اللغة جماعة الناس في عصر واحد فالإمام في هذا التعبير يوجه الأفكار نحو التأمل في مصائر الأمم والشعوب، وكيف ولماذا تضعف وتتفسخ ويصيبها الانحطاط والتخلف؟.

ويتساءل الإمام علي عليه السلام في حشد عام عن مصير الدول والشعوب القدية، فيقول مخاطباً أصحابه:

«... وإن لكم في القرون السالفة لعبرة، أين العمالقة وأبناء العمالقة؟ أين الفراعنة وأبناء الفراعنة؟ أين أصحاب مدائن الرسّ الذين قتلوا النبيين، وأطفأوا سُنن المسلمين، وأحيوا ستن الجبارين؟ أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا بالألوان، وعسكروا العساكر، ومدّنوا المدائن؟»^(٣١).

كما وتقسم الأغراض القرآنية من وراء السرد للقصة إلى قسمين:

الأول: ذا هدف موضوعي: من أجل إثبات صحة النبوة أو إثبات وحدة الرسالات أو شرح بعض القوانين والسنن التاريخية التي تحكم في مسيرة المجتمع الإنساني.

والثاني: ذا هدف تربويٌّ من أجل تربية الإنسان على الإيمان بالغيب، أو خضوعه للحكمة الإلهية أو الالتزام بالأخلاق والاعتبار بسير الماضين^(٣٢).

كما أنَّ التاريخ بحسب الرؤية القرآنية له عطاءات وثار على حياة الأمم والمجتمعات، ذلك من خلال تأكيده على أمرتين مهمتين:

أولاً: إنَّ للتاريخ ضوابط كليلة وموازين عامة

فالقرآن رفض بشدة النَّظرُ العَبْشِيَّةُ إلى التَّارِيخِ، وأشار إلى وجود قواعد كليلة وعامة: ﴿فَهُلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَخْوِيلًا﴾^(٣٣).

ثانياً: يؤكد على أن لإرادة الإنسان الدور الحاسم في تعين مسيرة حركة التاريخ

ويشير القرآن إلى هذه القاعدة التربوية التي تحكم التاريخ ضمن حقل قوانينه العامة، وذلك حين يؤكد على أنَّ البشرية إنما ترسم مصيرها بيدها كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا يَقُولُ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا يَأْنُفُسُهُم﴾^(٣٤).

حينما يتناول القرآن الكريم جزءاً كبيراً من حقائقه و المعارفه حول السنن والقوانين المتحكمَة في حركة الأمم ومصيرها، يقوم إما بإعطاء الفكرة ضمن صيغة كليلة وقاعدة عامة، أو من خلال تقديم النموذج والمصدق على مستوى التطبيق.

والغرض الأهم من كل ذلك، هو الاستفادة الوعية المتدبّرة للحوادث والمواقف لتلك الأمم البائدة، واستقراء تاريخها من أجل اكتشاف السنن

والقوانين الحاكمة عليها، فالقرآن لا يجد معنى للاستقراء من دون افتراض ذلك.

فحركة الأمم والمجتمعات وإن تحرّكت بوجب قانون العلية والسببية حركة حتمية، إلا أن ذلك يعتمد بشكل كبير على اختيار الإنسان وتفعيل إرادته، فهو بيده يمسك ناصية التاريخ ويحركها، بل يخضعها لاختياره وإرادته دون أن يخل أو ينتقص من قانون العلية وحتميتها.

ففي الوقت الذي يشير القرآن للإنسان بوصفه العنصر الفاعل والمؤثر في مجرى التاريخ، يشدد على تحمل مسؤولية اختياره وعمله، وأن يتحمّل نتائج آثار أفعاله وخياراته، ولا يستطيع أن يخرج من إطار العلية الاحتمالية، بل يمكن أن يحقق ما يريد في داخل دائرة الاحتمالية، ودون أن يتخلص من نتائج اختياره وإرادته.

هذه الحقيقة المركبة أشار إليها القرآن من خلال طائفتين من الآيات:

فمن جهة قانون عام. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾^(٣٥)، وضمن هذا القانون العادل إرادة الإنسان ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَأَتَقْوَا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٣٦)، فلا يمكن التوهم بالتناقض وأن السنن تفصل الإنسان عن دوره الإيجابي، أو تعطل إرادته و اختياره، بل على العكس تؤكد على المسؤولية الخطيرة من وراء اختياره.

لذا نجد دائماً يتحدث القرآن الكريم عن نموذجين من الأمم والمجتمعات، بينها تدافع وصراع مستمر في كل أدوار الحياة:
النموذج الأول: هم الأنبياء والرسل وأتباعهم المستضعفون القلة

المخلصة (أهل الحق) الذين كانوا يمثلون (النموذج الصالح الإنساني) الداعي إلى الله تعالى والفضيلة والصلاح في سبيل رقي الإنسانية وسموها.

النموذج الثاني: هم المترفون وكبار القوم، من أخذوا موقع التوجيه والسلطة في مجتمعاتهم، واستضعفوا أقوامهم بما استأثروا من نعم وثروات، بحيث كانوا يمثلون (النموذج السيء والمنحط) الغرق في الضلال والانحراف، والداعي إلى الفساد والدمار والهاوي بالسيرة الإنسانية للسقوط والهلاك.

سنن هلاك الأمم والمجتمعات:

لم يكتف القرآن الكريم بعرض محمل عن كلا النماذجين، بل ذهب للأسباب والسين والعوامل التي أدت إلى سوء ورقي الأمم أو هلاكها وانحطاطها.

سنن هلاك الأمم وسقوطها:

١- الكفر والشرك

القاعدة العقائدية التي يتأسس عليها المجتمع والأمة، لها الأثر البالغ في تشكيل هوية الأمة وسلوكها، ولها أيضاً أن تتحقق صعود وسوء الأمة أو انحطاطها وهلاكها.

وكان القضيّة الكبرى في رسالات الأنبياء هي التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، في قبال ذلك كانت حالة الكفر والوثنية وعبادة الأصنام، تسود بين الأمم آنذاك.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ



مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ^(٣٧). وَقَالَ: 《وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ^(٣٨)》， وَقَالَ: 《وَإِلَى ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ^(٣٩)》.

الكفر بالله هو العامل الرئيسي في انهيار الأمم وهلاكها، ويعتبر القاعدة الفاسدة التي تنبت كل المفاسد وعوامل التخريب والتمزق، وما ينتج من علاقات منحرفة وظالمة.

باعتبار أن الكفر والشرك يعني اتخاذ مثل علياً محدودة ومنخفضة، تعمل على تمجيد حركة المجتمع وإعاقة نموه وصعوده وبالتالي يكون سبباً في تفتته وانهياره.

قال تعالى: 《ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ^(٤٠)》， حالة الكفر والشرك في عبادة الأصنام والآلهة، وأيضاً في حجب الحقيقة عن عقولهم، عبر الإنكار.

٢- الظلم والاستكبار

تناول القرآن الكريم حالة الظلم والاستكبار بشكل واسع، وكيف أثراهما في تزويق المجتمع وهلاكه، وقد أشار القرآن نماذج للأمم الظالمة والمستكبرة.

قال تعالى: 《أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبِيُّ الدِّينِ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ نُوحٌ وَعَادٍ وَثُمُودٍ وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ^(٤١)》.

الظلم بما يمثل من تجاوز طريق الحق يقود إلى حالة الاستكبار

والطّغيان، سواءً في العلاقة مع الربّ المنعم عبر الشّرك والكفر وارتكاب المعاصي، أو تجاوز حق الآخرين من قبل فردٍ تجاه جماعة أو جماعة تجاه جماعة أخرى، وهناك آيات عديدة تشير إلى الظلم كسبب رئيسيٌّ في هلاك الأمم والمجتمعات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا الْفُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجَزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٤٢)، و﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾^(٤٣).

٣- تکذیب الرسل ومعاداتهم

يشير القرآن الكريم إلى أنّ من سنت هلاك الأمم، هو تکذیبهم لدعوة النبي المرسل إليهم، والاستهزاء به وبأتبعه والإيذاء النفسي والجسدي لهم.

قال تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُوحَ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْنَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٤٤)، حيث كانوا يواجهون الأنبياء عليهم وأتباعهم بحالة العناد والتعصّب والجدل والاستهزاء والرمي بالسحر والجنون. كما في قوم نوح عليهم وقوم عاد حالة الاستعلاء.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَكَ إِلَّا بَشَرًا مَثَلَنَا وَمَا تَرَكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُلَنَا بَادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نُظْنُكُمْ كَاذِبِينَ﴾^(٤٥)، و﴿فَالْأُولَا يَا هُودٌ مَا حِئْنَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِيْكِ آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٤٦)، و﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ، أَجْعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾^(٤٧)، بل يدفعهم الحقد والتمرد إلى أن يغلقوا على أنفسهم منبع

الخير والبركة، وذلك تعدٌ واضح للقيم الخيرية في الأمة، وانحدار وتسافل نحو هلاك الأمة وتلاشيهما.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْنَا بِهِ كَافِرُونَ ﴾
﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾^(٤٨)، الصراع القائم دائماً كان بين النبوة وأتباعهم، وموقع المترفين والمسرفيين في الأمم والمجتمعات، هو سنة قرآنية طوال التاريخ.

٤- الذنوب والمعاصي

يقوم المجتمع على العلاقات السائدة بين الناس، وهذه العلاقات إما أن تقوم على الطاعة والفضيلة وبذل الخير وإقامة العدل والخلافة المرسومة لحياة الإنسان من قبل الله تعالى، أو تقوم على أساس حب الذات والأهواء وتزيين الشيطان، فيتصور أنه باتباع رغباته وشهواته يحقق ما يصبو لذاته، فيقوم بالاستغلال السياسي كفرعون ﴿كَدَأْبٌ آلٌ فِرْعَوْنَ وَآلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٤٩).

أو الانحراف الأخلاقي كما في قوم لوط عليهما:

قال تعالى: ﴿وَلُولَّا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾^(٥٠).

أو عبر الخيانة الاقتصادية كما في قوم شعيب عليهما ﴿وَيَا قَوْمَ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيرَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٥١)، وتنوع ألوان الانحرافات من مجتمع لآخر، وفي الأخير

يقرّ القرآن هذه الحقيقة بأنّ الذّنوب والمعاصي طريق للسقوط والانحدار والهلاك.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوَا كُمْ أَهْلَكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مَنْ مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ
مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مَدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنَهَارَ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَدْشَانَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾^(٥٢).

٥- التّرف وكفران النّعمة

في ظل الشّعور بالنعم الإلهيّة والوفرة في الرّزق، تصبح المادة والنّعمة لدى بعض الأمم قيمة علّياً على أساسها يتفاصل المجتمع فيما بينه، ويشعر من يمسك بها ويستحوذ عليها بالاستغناء الذّاتي، وحاله الزّهو والاستعلاء على الآخرين من لا يمسكون بها، وبدلاً من الاستفادة من النّعم ووفرتها واستثمارها في صالح المجتمع، تتحول بيد المترفين وكبار القوم إلى حالة من الجشع والبطر، وتسود حالة الإسراف وسوء التّدبير مما يخلق ضياعاً للنعم وبطء المعيشة واستضعاف حقوق الغير.

قال تعالى: ﴿وَكُمْ أَهْلَكُنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرْتُ مَعِيشَتَهَا فَتَلَكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ
نُسْكِنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثُينَ﴾^(٥٣).

يدرك القرآن نموذج قوم عاد، حيث كانوا ذا بسطة في الخلق وأجسادهم طويلة، وأولي قوّة وبطش شديد، وكانت بلادهم عامرة بالخيرات والنّعم الوفرة فيها نخل وزرع، ولكن كفروا بأنّم الله وأغرقتهم الوثنية وحالة التّرف عن طريق الهدى وعبادة الله تعالى.

نَزُولُ الْهَلَكَ بَعْدِ إِتْمَامِ الْحَجَّةِ:

بعد إتمام الحجّة الإلهيّة على البشر، وبعث الرسّل والأنبياء الذين كان لهم الأثر في شمول الرحمة على الأمم و كانوا سبب هداية وصعود لها، وبعد فرص الإمهال الإلهي وإعطاء فرص التّوبّة، وصدود بعض الأمم عن دعوة الأنبياء بسبب أفعالهم وانتشار الفساد في الأمة، يأتي نزول الهلاك والعقاب وكثيراً ما أكد القرآن على ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلِلّٰهِ الْحَجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَى كُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٥٤)، و﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَا رَسُولًا يَتَنَلُّ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾^(٥٥).

صُورُ الْهَلَكَ وَالْعَقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا:

هناك (عقوبات معنوية) يذكرها القرآن مثل الختم على قلوب العصاة وإحباط أعمالهم، ويلبسهم لباس الذلة والمسكنة ويبيث الرعب في قلوبهم. قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِعَذَابٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحُقْقِ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾^(٥٦)، إضافة إلى ذلك (عقوبات حسية) كالصاعقة والغرق والرجفة والريح الشديدة والطوفان كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾^(٥٧).

بنو إسرائيل نموذج للأمة الهالكة^(٥٨)

ذكر صاحب (مجمع البيان): "إن إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام وإن (إسر) تعني: العبد، و(ئيل) بمعنى: الله، فيكون معنى إسرائيل عبد الله".

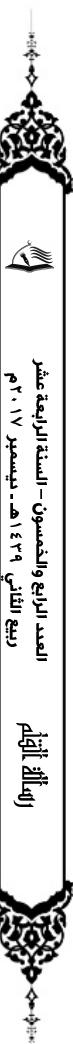
عبدة العجل:

بعد نجاةبني إسرائيل من قبضة الفرعون أمر موسى عليه السلام بالذهب إلى جبل الطور مدة ثلاثة ليالٍ لتسلّم ألواح التوراة، ثم مدت هذه الليلات إلى أربعين ليلة من أجل اختبار قومه، واستغل السامري الدجال هذه الفرصة، فجمع ما كان لدى بنى إسرائيل من ذهب الفرعون ومجوهراتهم، وصنع منها عجلًا له صوت خاص، ودعا بنى إسرائيل لعبادته. فاتبعه أكثر بنى إسرائيل، وبقي هارون - أخو موسى وخليفته - مع قلة من القوم على دين التوحيد، وحاول هؤلاء الموحدون الوقوف بوجه هذا الانحراف فلم يفلحوا، وأوشك المنحرفون أن يقضوا على حياة هارون أيضًا.

عصيان النبي:

بعد أن عاد موسى من جبل الطور تالم كثيراً لما رأه من قومه، ووبخهم بشدة فرجع بنو إسرائيل إلى رشدهم، وأدركوا خطأهم وطلبوa التوبة، فجاءهم أمر السماء بتوبة ليس لها نظير، يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٥٩).

أمر بنو إسرائيل لأن يتوجهوا إلى أرض فلسطين المقدسة، لكن عصوا هذا الأمر، وأصرّوا على عدم الذهب ما دام فيها قوم جبارون (العمالقة)، وأكثر من ذلك تركوا أمر مواجهة هؤلاء الظالمين لموسى وحده قائلين له: ﴿فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾^(٦٠)، فتألم موسى لهذا الموقف ودعا ربّه ﴿فَالَّرَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَنِّي فَأَفْرُقُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٦١) فكتب عليهم التّيه أربعين عاماً في صحراء سيناء.



لم يخلّ بنو إسرائيل عن حالتهم النفسيّة والثقافيّة الموروثة عن عصر الطّاغوت، بعد عصر من الذلّ والاستضعفاف والاستعباد، ولا بدّ من فترة بُرْزخٍ تمرّ بها كي تكون قادرة على إقامة حكم الله في الأرض، وفق معايير إلهيّة بعيدة عن مؤثّرات عصر الطّاغوت.

وسواء امتدّت هذه الفترة البرزخية أربعين عاماً كما حدث لبني إسرائيل، أو أقلّ أو أكثر، فهي فترة عقاب إلهي هدفها التزكية والإصلاح والبناء.

ولا بدّ من أن يبقى بنو إسرائيل مدة أربعين عاماً من التّيه في الصّحراء ليتربي جيلاً جديداً حاملاً لصفات توحيدية ثوريّة، ومؤهّل لإقامة الحكم الإلهي في الأرض المقدّسة.

مصير بنى إسرائيل

تفيد الآية الكريمة أنَّ بنى إسرائيل ﴿صُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا وَبِعَصْبَ مِنَ اللَّهِ﴾^(٦٢) لعاملين:

الأول: لکفرهم بآيات الله، وانحرافهم عن خطّ التّوحيد.

الثاني: لقتلهم الأنبياء بغير حقّ.

ظاهرة الانحراف عن خطّ التّوحيد وظاهرة القسوة والفظاظة، لا زالتا مشهودتين حتى اليوم عند جمّع من هؤلاء القوم، ولا زلتا سبباً لشقاوتهم وطيشهم وتعاستهم.

الذلة هي الصفة الملزمة لليهود والصغار الملتصق بهم أينما حلّوا ونزلوا، ليس حكماً تشرعياً كما قال بعض المفسّرين، بل هو قضاء

تكوينيّ، وهو حكم التّاریخ الصّارم الذي يقضى بأن يلازم الذّلة، ويصاب بالصّغار كُلّ قوم يتمادون في الطّغيان، ويفرقون في الآثام، ويتجاوزون على حقوق الآخرين وحدودهم، ويسعون في إبادة القادة المصلحين والمُهداة المنقذين، إلّا أن يعيد هؤلاء القوم النظر في سلوكهم، ويغيّروا منهجهم وطريقتهم، ويرجعوا ويعودوا إلى الله.

عن رسول الله ﷺ يصف جماعة من أمته: «أما والله لتركبُن طبقاً عن طبق على سنة بني إسرائيل، حذو النّعل بالنّعل والقدّة بالقدّة»^(٦٣).

سنن رقيّ الأمم وسُموّها:

من تلك الأسباب والسنن التي تسمى بالأمم ورقيّها:

١- سنة التّغيير

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾^(٦٤).

المكوّن الإنساني يحتوي على عنصريْن أساسين:

أحدهما: المحتوى الداخلي النفسي الروحي للإنسان وهو القاعدة.

والآخر: هو الوضع الاجتماعي وهو البناء العلوي. لا يتغيّر هذا البناء العلوي إلّا وفقاً للتّغيير القاعدة.

هذه الآية إذاً تتحدث عن علاقة معينة بين القاعدة والبناء العلوي، بين الوضع النفسي والروحي والفكري للإنسان والأمة وبين الوضع الاجتماعي، بين داخل الإنسان وبين خارج الإنسان، فخارج الإنسان، يصنعه داخل الإنسان (فكره وإرادته)، فإذا تغيّر ما (بنفس القوم) انعكس ذلك على تغيّر أوضاعهم، وعلاقتهم، والروابط التي تربط بعضهم بعض.

إذاً فهذه سنة من سنن التّاريخ تدفع بالفرد والأمّة نحو تغيير واقعها المتخلّف إلى حالة السمو والصّعود، حيث ربطت القاعدة بالبناء العلوي ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾^(٦٥).

ومن الواضح أنّ المقصود بالتّغيير (القوم) ونفسية الأمّة بشكل عام، وإلى تغيير الفرد أو الفردان أو الأفراد الثلاثة لا يشكّل الأساس لتغيير الواقع النفسي والاجتماعي بصورة عامة، ولا قاعدة للتّغييرات في البناء العلوي للحركة التّاريخية كلّها.

لذا نجد دعوة الأنبياء عليهما السلام دعوة لصناعة الإنسان والحياة، ارتبطت بفكر الإنسان، من خلال إعطائه الرؤية الصّحيحة للحياة التي تنفتح على آفاق الغيب، وأيضاً ارتبطت بمشاعره خالقةً بذلك روح الحيوية والأمل، وأيضاً تصنع سلوكه على الأخلاقية الرّفيعة.

٢ - سنة الامتحان والابلاء

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثُلُ الدِّينِ حَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتُهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَرُزِّلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَنِّي نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾^(٦٦).

يستنكر القرآن على الذين يأملون النّصر وأن تتحقق العزة والرّفعة لواقعهم، أن يكون لهم استثناء من سنة التّاريخ، وأن يدخلوا الجنة وأن يحققوا النّصر، ولم يعيشوا ما عاشته تلك الأمّة، التي انتصرت ودخلت الجنة، من ظروف اليساء والضراء التي تصل إلى حدّ الزّلزال، في الحقيقة هي مدرسة للأمّة، وامتحان لإرادة الأمّة، لصمودها، لشباتها، لكي تستطيع وبالتدريج أن تكتسب القدرة على أن تكون (أمّة وسطاً) بين

النّاس، فنصر الله ليس أمراً عفوياً، وليس أمراً على سبيل الصّدفة. نصر الله قريبٌ ولكن قريب من الذي اهتدى إلى طريقه طريق الامتحان والابتلاء والفتنة.

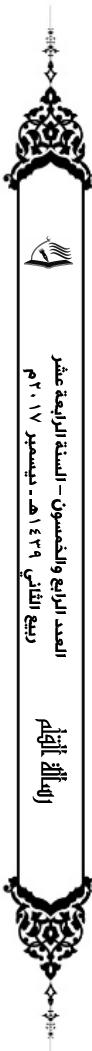
٣- سنة الإيمان والتقوى

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَبُوا فَأَخْذَنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٦٧)، تشير الآية الكريمة إلى وجود ارتباط وثيق بين التغييرات الكونية والأوضاع الاجتماعية وبين الإيمان والتقوى، والتي هي من الأمور النفسية الموجودة داخل الإنسان، ولأن شريعة السماء نزلت من أجل أن تسود علاقات الناس على أساس من التقوى والعدل.

ظنّوا كذباً أنّ أهواءهم وسوء العلاقات والروابط القائمة بينهم والتي تقوم على الكفر والظلم، هي التي تحقق لهم الخيرات والمكاسب، ولكن الحقيقة أنّ السنة التاريخية تؤكّد عكس ذلك، تؤكّد بأنّ تطبيق شريعة السماء، وتجسيد أحكامها في علاقات الإيمان والتقوى، تؤدي دائماً وباستمرار إلى وفرة الخيرات ونزول بركات السماء وهذه سنة من سنن التاريخ.

الهوامش:

- (١) سورة الروم: ٩.
- (٢) سورة الانعام: ٤٢.
- (٣) سورة آل عمران: ١٣٧.
- (٤) سورة يوسف: ١١١.



- (٥) الصدر، السنن الاجتماعية وفلسفة التاريخ في المدرسة القرآنية: ٨٣، ط١، طهران، مركز النشر الثقافي رجاء، ١٣٦٩.
- (٦) ابن منظور، لسان العرب، ج ٢/١، ص ١٥٨.
- (٧) الجواهري، الصحاح، ج ٤، ص ١٥١٦.
- (٨) سورة الزّخرف: ٢٢.
- (٩) سورة القصص: ٢٣.
- (١٠) تفسير الميزان، ج ٢، ص ١٢٣ - ١٢٤.
- (١١) سورة إبراهيم: ٤.
- (١٢) سورة الأعراف: ١٢٨.
- (١٣) سورة الأنبياء: ٩٢.
- (١٤) سورة آل عمران: ١٠٤.
- (١٥) المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر، ص ٥٦.
- (١٦) المعجم الوسيط ج ٢/١، ص ٤٥٦.
- (١٧) المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر، ص ٤٦.
- (١٨) مصطفوي، التّحقيق في كلمات القرآن، ج ٥، ص ٢٨٩.
- (١٩) سورة آل عمران: ١٣٧.
- (٢٠) ابن منظور، لسان العرب، مادة (خلف).
- (٢١) محمد حسين الطّباطبائي، تفسير الميزان، ج ١ ص، ٢٦.
- (٢٢) سورة البقرة: ٣٠.
- (٢٣) سورة الأنعام: ١٦٥.
- (٢٤) ابن منظور، لسان العرب، مادة (هلك).
- (٢٥) سورة الكهف: ٥٩.
- (٢٦) سورة الأعراف: ١٧٦.
- (٢٧) سورة النساء: ٢٦.
- (٢٨) سورة هود: ١٢٠.



- (٢٩) سورة يونس: ٧٢.
(٣٠) سورة يوسف: ١١١.
(٣١) نهج البلاغة: رقم الخطبة ١٦١.
(٣٢) محمد باقر الحكيم، علوم القرآن، ص ٣٥٤.
(٣٣) سورة فاطر: ٤٣.
(٣٤) سورة الرعد: ١١.
(٣٥) نفس السورة والآية.
(٣٦) سورة الأعراف: ٩٦.
(٣٧) نفس السورة: ٥٩.
(٣٨) نفس السورة: ٦٥.
(٣٩) نفس السورة: ٧٣.
(٤٠) سورة غافر: ٢٢.
(٤١) سورة التوبة: ٧٠.
(٤٢) سورة يونس: ١٣.
(٤٣) سورة هود: ١٠٢.
(٤٤) سورة الفرقان: ٣٧.
(٤٥) سورة هود: ٢٧.
(٤٦) نفس السورة: ٥٣.
(٤٧) سورة ص: ٤ - ٣.
(٤٨) سورة سباء: ٣٥ - ٣٤.
(٤٩) سورة آل عمران: ١١.
(٥٠) سورة الأعراف: ٨١ - ٨٠.
(٥١) سورة هود: ٨٥.
(٥٢) نفس السورة: ٥٢.
(٥٣) سورة القصص: ٥٨.

العدد الرابع والعشرون - السنة الرابعة عشر
٢٠١٧ هـ - ديسمبر
ربيع الثاني ٣٩

النَّبِيُّ



- (٥٤) سورة الأنعام: ١٤٩.
- (٥٥) نفس السورة: ١٣١.
- (٥٦) سورة البقرة: ٦١.
- (٥٧) سورة الأعراف: ١٣٣.
- (٥٨) انظر: تفسير الأمثل، الشیخ مکارم الشیرازی.
- (٥٩) سورة البقرة: ٥٢.
- (٦٠) سورة المائدة: ٢٤.
- (٦١) نفس السورة: ٢٥.
- (٦٢) سورة البقرة: ٦١.
- (٦٣) بحار الأنوار، الجلسي ج ٢٩، ص ٨٠.
- (٦٤) سورة الرعد: ١١.
- (٦٥) سورة الأنفال: ٥٣.
- (٦٦) سورة البقرة: ٢١٤.
- (٦٧) سورة الأعراف: ٩٦.

البناء الديني.. مقوّماته وأثاره

الشيخ عيسى مكي الحزيري

الملخص:

تناول الكاتب أهمية البناء الديني بعد بيان خطورة الزمان الذي نعيشه، وتأثير العولمة والغزو الثقافي على الشباب والناشئة سِيما من يتغرب في البلاد غير الإسلامية، حيث يتزلزل في معتقده أو يتخلى عن قيمه التي ينتمي إليها. ويعتقد الكاتب بأن المقومات لشخصية الإنسان المسلم تبدأ منذ ريعان الطفولة والصبا، مروراً بمرحلة الشباب؛ فيما يستحكم (البناء الديني) ويشتدّ عند مرحلة الشباب، فكلّما ضعُف هذا البناء، ضعُفت من ورائه تلك الشخصية.

ثم استعرض جملة من التطبيقات والخطوات العملية التي يير بها البناء الديني مستفيداً من نصوص القرآن الكريم والسنّة المطهّرة وما أفاده علماء التربية في هذا المجال. وختم بحثه بالتأكيد على أنّ من أهم مقوّمات التربية الدينية هي البيئة الدينية الحاضنة وأول راع لها هم (الوالدان والأقربون).

المقدمة:

قال تعالى: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّدِينِ حَنِيفًا فَطَرَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ وَلَكُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»^(١).

تحدّثت آيات عديدة عن أنّ الدين فطرة في الإنسان قد أودعها الله تعالى فيه، فهو سُنة الله تعالى في هذا الإنسان لا ينفك عنه ما دام إنساناً، في قبال من يدعى أنه من صنع الإنسان، حيث يعد الوسيلة لسدّ حاجاته الروحية والاجتماعية، وأنّه مرحلة من مراحل تطور الفكر الانساني وغيرها من الداعوى التي كثرت في زماننا المعاصر، ثبتنا الله على دينه، (يا الله يارحمن يارحيم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)، والحديث في إطار هذه الآية في مبحثين:

المبحث الأول: وفيه عدة مطالب

المطلب الأول: معنى الفطرة لغة واصطلاحاً

لغة: الابتداء والاختراع^(٢)، فطر الشيء: اخترعه، أوجده، أنشأه، ابتدأه.

والروايات فسرت معنى الفطرة في الآية بالتوحيد والإسلام، ففي معتبرة هشام بن سالم، قال: سألت الإمام الصادق علیه السلام: ما المراد من قوله تعالى: «فَطَرَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ...»^(٣) فقال: «هي التوحيد». وعن الإمام الصادق علیه السلام أيضاً حين سأله عن تفسير الآية المتقدمة فقال الإمام علیه السلام: «هي الإسلام»^(٤).

المطلب الثاني: أهمية الموضوع

وببيانها في نقاط:

الأولى: من الظواهر الموجودة في زماننا الحالي عند الجيل الشاب وبالأخص المبتعثين إلى خارج البلاد الإسلامية، ظاهرة التخلّي عن المعتقدات الدينية والتراجع السريع أمام الشبهات المثارة حول المنظومة الاعتقادية والمعرفية، بحيث تجد البعض سرّع التنازل وبشكل انهزامي أمام مجموعة من الأسئلة الملحة بالغالطات.

الثانية: الغزو الفكري والثقافي الموجّه الذي يستهدف المنظومة الدينية والاعتقادية عند الناشئة، من خلال بثّ البرامج التلفزيونية المسمومة وتطبيقات الحاسوب والهواتف النقالة وغيرها.

هذا الأمران وغيرها مورد اهتمام فقهائنا الأعلام رحمه الله، حيث أكدوا على أهمية البناء الديني خصوصاً لمرحلتي الناشئة والشباب ^(٥). ومن منطلق العمل بوصاياتهم كان تدوين الأسطر التالية.

المطلب الثالث: كيف ينظر القرآن الكريم إلى الدين؟

عند استقراء آيات القرآن الكريم تجدها على نحوين:

الأول: آيات تصف الدين بالشريعة، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^(٦). فالدين منظومة تشتمل على أوامر الله تعالى ونواهيه.

الثاني: وأخرى تصفه بأنه سنة من سُنن التاريخ، يعني كونه قانون



داخل في صميم تركيب الإنسان وفطرته، قال تعالى: ﴿فَأَقْمِ وَجْهَكَ لِلّٰهِنِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّٰهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ ذَلِكَ الَّذِينَ أَقْيَمُو وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٧). فالدين ليس مجرد تشريع وقرار إلهي وإنما هو سُنة الحياة والعنصر الأساس لكمال الإنسان وسعادته، لذلك الآية تشير إلى أهمية الالتزام بالفطرة، وهذا نصبت (فطرة الله) على الإغراء أي الزم الفطرة^(٨).

الدين والفطرة ستة من سنن التاريخ وجزء من أجزاء الإنسان لا يمكن انتزاعه وتبدلاته؛ لأنّه لو لم يكن كذلك لأمكن انتزاعه ولما كان فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولما صدق عليه (لا تبدل خلق الله)، بل يكون من الأمور المكتسبة على مرّ التاريخ، يقول السيد الشهيد الصدر^(٩): "القرآن يريد أن يقول بأن الدين ليس مقوله من هذه المقولات بالإمكان أخذها وبالإمكان إعطاؤها، الدين خلق الله (فطرة الله التي فطر الناس عليها) ولا تبدل لخلق الله". هذا الكلام (لا) في الآية ليست نافية بل نافية^(١٠). وهذه النظرة هي التي يقول بها علماء النفس حيث يعتقدون أنّ التدين ضرورة قصوى من ضروريات الحياة البشرية^(١١).

قد تقول: كيف يكون الدين جزء من الإنسان، والحال أنّ كثيراً من الناس انسلخوا عنه وخالفوا السنّة والفطرة؟ ويجاب: بأنّ السنّة على أنحاء منها:

النحو الأول: سنّة صارمة وقانون تكويني لا يختلف ولا يتخلّف كالغليان عند وصول درجة حرارة الماء إلى مائة درجة مئوية.

النحو الثاني: سنّة غير صارمة وقانون تشريعي يمكن للإنسان أن

المطلب الرابع: ما هي منبهات الفطرة؟

ذكر علماء التربية أن هذه الفطرة المودعة عند الإنسان، يمكن تحويلها إلى عقيدة راسخة وحصن حصين يقي المؤمن من الانحراف والانهزام أمام الشبهات، ويحصل ذلك بإشارتها وتحفيزها منذ الطفولة، وهذا ما أشارت إليه روايات أهل البيت عليهم السلام، حيث ورد عن الإمام علي عليه السلام: «**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَوَأَتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِياءً لِيَسْتَادُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْبِيَّ نِعْمَتِهِ**».

يتحداها، فمثلاً جعل الله تعالى الزواج سنة لتكاثر النوع الإنساني، لكن قد تختلف هذه السنة الإلهية عن طريق الزنا والعياذ بالله، لكن مخالفتها على مدة قصيرة يعاقب مخالفها ولا تضر بكونها سنة إلهية.

كذلك الحال بالنسبة إلى مخالفه سنة الدين، فالإلحاد مخالفه صريحة لسنة الدين والفطرة المودعة عند الإنسان، فهو غمض العين عن شمس الحقيقة والفطرة ولا يعني ذلك عدم وجودها، فهو كالزبد لا يبقى إلا فترة قصيرة **﴿أَمَّا الزَّبَدُ فَيَذَهَبُ جُفَاءً﴾**^(١).

وإن شئت قلت: هناك فرق بين الاتجاه الطبيعي وبين القانون الصارم:

أمّا الأول فيمكن تحديه ولكن على فترة وشوط قصير؛ لأنّه سرعان - بمعنى السرعة التاريخية - ما يفاجئه عقاب السنن التاريخية التي تفرضه على من يريد تبديل خلق الله تعالى.

وأمّا الثاني -القانون الصارم- فهو لا يقبل التحدي، والمنسّاخ عن دينه خالف الأول دون الثاني، وهذا لا يعني أنّ الدين ليس سنة من سنن التاريخ^(٢).

وَيَحْتَجُوا عَلَيْهِمْ بِالْتَّبْلِغِ وَيُشِرُّوا لُهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ»^(١٣) حيث يستفاد منها ومن غيرها عدة منبهات:

الأول: التلقين للمبادئ الدينية

فقد أشارت عدة روايات إلى تلقين الطفل المبادئ الأساسية للدين منذ الساعات الأولى لولادته، فمثلاً تلقينه الأذان في الأذن اليمنى والإقامة في اليسرى، فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «من ولد له مولود فليؤذن في أذنه اليمنى بأذان الصلاة، وليقم في أذنه اليسرى، فإنّها عصمة من الشيطان الرجيم»^(١٤). فالأذان والإقامة تلقين بالتوحيد والنبوة وبالفرائض، هذا من شأنه إثارة الفطرة وتنبيتها، مما يوجب حصول الأنس بها والتفاعل معها خصوصاً عند تكرارها.

كذلك قراءة الأم القرآن والأذكار حين الرضاعة له أثره البالغ.

يُنقل عن السيد هاشم الحداد عليه السلام - وهو من العرفاء المعروفين - في كتاب (دلشده) أنه يعتقد أنّ سبب وصوله إلى ما وصل إليه من مقامات هو أنّ والدته عندما كان في بطنه كانت تقرأ زيارة عاشوراء عقب كل صلاة صبح.

الثاني: السيرة العملية لأهل البيت عليهم السلام

فلكل مرحلة عمرية مثير من مثيرات الفطرة، وبعد مرحلة الرضاعة يبدأ الطفل -في مراحله المختلفة حتى المتأخرة- يتلقى المعرفة من سلوك الوالدين والأقرباء بنحوين قولي وفعلي:

أما القولي: فمن خلال الاستشهاد بسيرة أهل البيت عليهم السلام التي تبيّن

أنَّ الدِّينَ لِيُسْ مُجْرَدُ أَوْامِرٍ وَنُوَاهٍ، بَلْ هُوَ أَخْلَاقٌ حَسَنَةٌ وَسُلُوكٌ عَمَليٌ رَاقٌ. كَذَلِكَ بِيَانِ أَنَّ الدِّينَ أَمْرٌ مُعَاشٌ فِي جَمِيعِ مُفَاصِلِ الْحَيَاةِ وَهُوَ طَرِيقٌ لِلرُّقُبَيْ بِهِ.

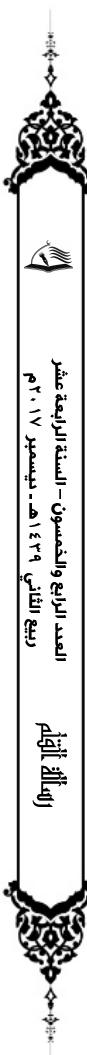
وَأَمَّا الْعَمَليُّ: فَبِتَطْبِيقِ تَعَالَى إِلَيْهِمْ عَلَيْهِمْ وَتَجْسِيدِهَا فِي التَّعَالِيمُ مَعَ الطَّفَلِ بَلِ الشَّابِ أَيْضًا، فَإِنَّهُ سَيَتَرَبَّى عَلَيْهَا وَتَكُونُ جَزءًا مِنْ شَخْصِيَّتِهِ؛ لَأَنَّهُ يَسْتَقِي السُّلُوكَ مِنْ خَلَالِ مُلْاحِظَتِهِ لِسُلُوكِ الْقَرِيبَيْنِ مِنْهُ، فَيَعْمَلُ طَبِيقًا لِلْتَّلِكَ السُّلُوكِيَّاتِ مُقْلِدًا مُعْتَقِدًا بِصَحَّتِهَا.

وَإِنْ شَئْتَ قُلْتَ: كُلُّمَا كَانَ التَّزَامُ الْوَالَّدِينَ وَالْمَقْرِبِيْنَ مِنَ الطَّفَلِ بِالْتَّعَالِيمِ الإِسْلَامِيَّةِ كَبِيرًا؛ كَانَتْ دَرْجَةُ تَأْثِيرِ الْأَبْنَاءِ كَبِيرَةً، وَكَانَتْ دَرْجَةُ تَنْبِهِ الْفَطَرَةِ كَبِيرَةً أَيْضًا.

يَنْقُلُ صَاحِبُ كِتَابٍ (مَا وَفَرَزْنَدَانَ مَا): "إِنَّ أَوَّلَ صُورَةَ يَرْسِمُهَا الطَّفَلُ فِي ذَهْنِهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى تَنْبِعُ مِنْ عَلَاقَتِهِ مَعَ وَالِدِيهِ، كَذَلِكَ أَوَّلَ فَكْرَةَ تَرْتَسِمُ فِي مُخَيْلَتِهِ عَنِ الطَّاعَةِ وَالسَّماحَةِ وَالْاسْتِقَامَةِ تَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِسُلُوكِ الْأَسْرَةِ"^(١٥)، هَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَرْحَلَةِ الطَّفُولَةِ الْمُبَكِّرَةِ وَالْمُتوسِّطَةِ، وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ هُمْ فِي سِنِ الطَّفُولَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ فَيَتَعَالَمُ مَعَهُمْ بِاسْلُوبٍ يَنْتَسِبُ وِمَرْحَلَتِهِمُ الْعُمُرِيَّةِ، وَلَعَلَّ أَفْضَلَ أَسْلُوبٍ لِذَلِكَ هُوَ الإِقْنَاعُ بِوَاسْطَةِ الْحَوَارِ وَالنَّقَاشِ.

الثالث: التَّدَبُّرُ فِي الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ

مَا يَحُولُ الْمَعْرِفَةُ الْفَطَرِيَّةُ إِلَى إِيَّاهُ تَفْصِيلِيٌّ رَاسِخٌ هُوَ الْعُقْلُ وَالْتَّفَكُّرُ فِي أَسْرَارِ الْخَلْقِ، بِحِيثُ يَتَفَكَّرُ الْوَالَّدُانِ مَعَ الْأَبْنَاءِ بِشَكْلٍ جَمَاعِيٍّ مِنْ خَلَالِ إِثْرَةِ بَعْضِ الْأَسْئَلَةِ الْمُرْتَبَطَةِ بِالْكَوْنِ وَالْمَخْلوقَاتِ وَالَّتِي يُتَوَصَّلُ



من خلاها إلى معرفة بالخالق تتناسب مع مرحلة الأبناء العمريّة، فمثلاً يتعاون الوالدان بطرح أسئلة معدّة سلفاً حول الخالق الذي خلقهم بهذه الصورة الجميلة والكاملة، لماذا خلقهم؟ ولماذا سحر لهم هذه الموجودات؟ ما هي أهمية وجوده؟ من أين هذه الأشياء التي نمتلكها؟ وغيره من الأسئلة التي تحرّك فيهم الفطرة وتتعلّق قلوبهم به. هذا بالنسبة إلى الطفولة المتأخرة.

وأمّا الأطفال من سن الرابعة تقريباً إلى سن الثامنة، فيتم التفكّر والتدبّر بالاستعانة بواسطة الحواس، كأن يُغمض عين طفله عن صورة أو مشهدٍ يعلم الوالد بأنّ ابنه يحب تلك الصورة أو ذلك المشهد، ثم يرفع يده ثم يسأله عن نعمة البصر لو لم تكن تُبصر أكنت ترى هذه الصورة الجميلة؟ يا ترى من الذي جعلك تبصّر؟! ويسترسل معه شيئاً فشيئاً، وغيرها من الطرق التي تُشير فطرته.

المطلب الخامس: مراحل تطوير الشعور الديني

هناك ثلاث مراحل ينبغي الالتفات إليها عند البناء الديني، حيث إن كلّ مرحلة لها أساليبها الخاصة وطرقها.

الأولى: مرحلة التصور الخيالي للمفاهيم الدينية: وهذه تكون في السن (٣-٦) سنوات، وفيها يتصور الطفل الإله بصورة خيالية لا صلة لها بالواقع.

الثانية: المرحلة الواقعية: وهذه تكون في السن (٧-١٤)، وفيها تتكون المفاهيم الإعتقادية -والدينية كالجنة والنار والملائكة والإله -

حيث يشتقها من الواقع الحسي الذي يعيشه ولكن بصورة أكثر تضخماً، حيث يتصور الإله رجلاً ضخماً له صفاته الجسمانية الكبيرة، ويتصور الجنة على أنها حديقة من الحدائق الجميلة ... إلخ.

الثالثة: المرحلة الفردية: وهي فترة المراهقة، وفيها تتغير نظرته عن الإله والجنة والنار؛ باعتبار نفوذ الذهني والعقلي، فينظر إليها بنحو من التجرّد.

المبحث الثاني: المقومات العملية للنمو الديني وأثاره

المطلب الأول: المقومات العملية للبناء الديني

المقوم الأول: تعليم الطفل معرفة الله تعالى

بما أنّ الطفل مجبر بفطرته على الإيمان بالله تعالى، لذلك تجده يتسائل عن نشأته ونشأة والديه ومن يحيطون به، هذه الأسئلة تكشف عن استعداده لقبول فكرة الخالق والصانع، فيستثمر الوالدان هذه الحالة ويعرّفونه بالله تعالى بما يتناسب ومرحلته العمرية. وكلّما كان ذلك وفقاً لبرنامج متسلسل معدّ مسبقاً، كانت المعرفة أبلغ وأثبتت في قلبه.

وقد حدد الإمام الباقر عليه السلام المنهج في ذلك حيث قال: «إذا بلغ الغلام ثلاث سنين يقال له: قل لا إله إلا الله سبع مرات، ثم يترك حتى تتم له ثلاثة سنين وبسبعين شهر وعشرون يوماً، فيقال له: قل محمد رسول الله سبع مرات، ويترك حتى يتم له أربع سنين ثم يقال له: قل سبع مرات صلى الله على محمد وآلـه، ثم يترك حتى يتم له خمس سنين ثم يقال له: أيـها يمينك وأـيها شـمالك؟ فإذا عرف ذلك حول وجهه إلى القبلة ويقال له: اسجد، ثم يترك حتى يتم له سبع سنين فإذا تم له سبع

سنين قيل له اغسل وجهك وكفيك فإذا غسلهما قيل له صل ثم يترك، حتى يتم له تسعة سنين، فإذا تمت له تسعة سنين علم الوضوء وضرب عليه وأمر بالصلاحة وضرب عليها فإذا تعلم الوضوء والصلاحة غفر الله عز وجل له ولوالديه إن شاء الله^(١٦). وقد أثبت علماء النفس التربوي صحة هذا المنهج، ففي الفترة العمرية (٢-٣) سنوات يكتسب كلام الطفل طابعاً مترابطاً مما يمكّنه من التعبير عن فهمه وعن الأشياء من حوله، وفي نهاية السنة الثالثة يصبح قادراً على استخدام الكلام، ويصنع جملأً أولية وصحيحة. كما أنه في هذه المرحلة يكون الطفل مقلداً لوالديه في كل شيء بما فيها عبادتهم وسلوكهما.

وفي (٦-٣) سنوات إضافة إلى تقليد والديه فإنه يرسم في مخيلته صورة عن الإله الذي يجدثنه عنه، وفي هذه المرحلة يميل إلى علاقات الحبّة والمودة والرقة، فيفضل تأكيد صفات الله الخاصة بالرحمة والحب والعفو وتجنب صفة العقاب والانتقام؛ لكي ترسّم في ذهنه صورة جميلة عن الله تعالى ويزداد تعلقه به^(١٧).

وهنا ملاحظة مهمة: لا يصح في هذه المرحلة -عند مخالفته لأوامر الوالدين- تهديد الطفل بالعقوبة الإلهية وتوجيه نظره إليها -كما هو المتعارف بيننا- لأنّ الطفل فيها يحب الحرية ويميل إلى من يبادله الحب والحنان، فالتهديد بالعقوبة الإلهية يوجب نفور الطفل وعدم تعلقه بالله تعالى.

وفي (١٤-٧) سنة ينمو عقله وتنسّع مداركه، فيدرك من خلال تعليم الوالدين الجزاء والعقاب وأنّ الله تعالى رحيم رؤوف محب للمطيعين،

معاقب العاصين والمخالفين. وهنا أيضاً عند مخالفته لوالديه لا تأتي نوبية التهديد بالعقوبة الإلهية إلا بعد نصحه ومعاقبته عقوبة معنوية يعلل الوالدان سببها له.

المق�م الثاني: تربية الطفل على واقعية التشريع الإسلامي

خلق الله تعالى الإنسان وجعل له منظومة تشريعية تتناسب وواقعه المعاش من جميع الجوانب والأبعاد، فتنسجم مع واقع الذكر والأنثى، الصغير والكبير السليم والمريض... وهكذا.

وتربية الطفل على هذه الواقعية -كل بحسب إدراكه- له أثر كبير على تقبّل المبادئ الدينية بل تجذّرها وثباتها في نفس الطفل والشاب، فمثلاً: هناك أحكام خاصة بذوي الأعذار كالمعاق والمريض تختلف عن الإنسان السليم، والمسافر تختلف أحكامه عن الحاضر، فالشارع المقدس كلف كلاً بحسب قدرته وطاقته «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا»^(١٨). فتُقدّم له هذه الأمثلة بأسلوبٍ مبسطٍ وجذابٍ وعلى فتراتٍ متعددةٍ وبطرقٍ مختلفة.

المقوم الثالث: تربيته على الطاعات

ففي كل مرحلة من مراحل الطفولة يحتاج إلى تدريب على العبادة والطاعة، فقد ورد عن النبي ﷺ: «مروا صبيانكم بالصلاه إذا بلغوا سبعاً، واضربوهم عليها إذا بلغوا تسعماً، وفرّقوا بينهم في المضاجع إذا بلغوا عشراماً»^(١٩). وهنا لا بد أن يلحظ فيه الاستعداد النفسي وحالات الإقبال والإدبار عنده، وكذلك الاستعداد البدني مع مراعات التدرج معه، وسعة الصدر وطولة البال.

المق�م الرابع: التركيز على حب النبي ﷺ وأهل بيته

فقد ورد عن النبي ﷺ: «أدبوا أولادكم على ثلات خصال حب نبيكم وحب أهل بيته وعلى قراءة القرآن»^(٢٠) ويكون ذلك بذكر:

الآيات النازلة في حقهم على شكل قصص بأسلوب مبسط ومشوق.

الوقوف مع الأبناء في مناسبات أهل البيت عليهم السلام، بحيث يعطي نبذة عن حياة صاحب المناسبة، وأخذ العبر منها، كذلك يسأل الولد عن مقدار حبّه لهم عليهم السلام، والسبب في مشاركته في مناسبتهم بحيث يحاور طفله عنهم عليهم السلام ولا يكتفي بتلقينه.

السفر معه إلى مشاهدهم المشرفة واستثمار ذلك في تربيتهم تربية عملية يعكس من خلالها أخلاقهم ومعارفهم عليهم السلام. وغيرها من الطرق التي لها الأثر الكبير على سلوك الإنسان في حياته.

المطلب الثاني: الآثار الواقعية للنمو الديني:

ذكر علماء التربية آثاراً عديدة للبناء الديني عند الطفل منها:

قوّة الإرادة وسموّ الروح، فنظهر على الطفل علامات الصلاح والإيمان، فهذا القرآن يقصّ علينا حال النبي يوسف بن يعقوب عليهم السلام، حيث حصل على تربية نقية خالصة برز أثرها عندما حاول إخوته التخلص منه، فرموه في الجبّ ومن ثم باعوه وهو ابن لتسعم سنين، ومع ذلك تجده صابراً ثابتاً على دينه ومنتقده^(٢١).

٢- تجسيد العقيدة في سلوك الإنسان، فالسلوك القويم والعاطفة السليمة انعكاس لهذه العقيدة، بل هي الحد الذي في إطاره تتشكل أفعال الإنسان.

فمثلاً: عندما يغذى الأبوان الطفل بمسألة الإيمان بالمعاد على أنه منسجم مع تطلعات الإنسان -من هناك يوم يجازي الله تعالى المؤمن بالجنة، وكذلك يجازي الصابر والقنوع ويعوضه في الآخرة.....إلخ- فإن ذلك له أثر على سلوكه فتراه صابراً عند المحن، متفهماً لواقعه فيتاكلم مع من حوله، فلو كان هذا الطفل فقيراً لا يوجد عنده ما يأكله، فهو إما أن يسرق ويسد جوعه وإما أن يصبر. فإذا سرق لم تتجسد هذه العقيدة في سلوكه، بخلاف من يصبر على فقره معتقداً بأن هناك رازقاً لا يغفل عن عباده يعوضهم على صبرهم وتحملهم^(٢٢)، فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «ما أصاب من نصب ولا وصب ولا حزن حتى ألم بهم، إلا كفر الله به عنه سيناته»^(٢٣).

وهنا؛ لا بأس بالتأكيد على مسألة وهي أن تغذية الطفل بالتعاليم الإسلامية يراعى فيها المرحلة العمرية للطفل، بحيث يكون التدرج فيها إلى أن تتحول إلى واقع يعيشها الطفل والشاب، فيكون حصنًا منيعًا من الانحراف والتأثير السلبي نتيجة الغزو الفكري والثقافي الموجه إلى هذه الفئة العمرية بالخصوص.

الخاتمة:

من خلال ما تقدم اتضحت أهمية البناء الديني ومقوماته العملية، ولعل من أهمها البناء العملي عن طريق تحسيد الدين في حياة الوالدين والقريبين من الأبناء، وتوفير بيئة إيجانية للطفل بقدر المستطاع، ناهيك عن ربطه بالعبادة خصوصاً القرآن الكريم، وكذلك بأهل البيت ع

زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ : «وَأَمَا حَقٌّ وَلَدُكَ فَإِنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ مِنْكَ وَمَضَافُ إِلَيْكَ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا بِخَيْرِهِ وَشَرِهِ، وَأَنْكَ مَسْؤُلٌ عَنْهَا وَلِيَتَهُ بِهِ مِنْ حَسْنِ الْأَدْبِ وَالدَّلَالَةِ عَلَى رَبِّهِ عَزِيزِهِ وَالْمَعْوِنَةِ لَهُ عَلَى طَاعَتِهِ، فَاعْمَلْ فِي أَمْرِهِ عَمَلًا مِنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَثَابٌ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ مَعَاقِبٌ عَلَى الْإِسَاعَةِ إِلَيْهِ»^(٢٤).

الهوامش:

- (١) سورة الروم: ٣٠.
- (٢) لسان العرب: ج ١١، ص ١٩٧.
- (٣) سورة الروم: ٣٠.
- (٤) الكافي، الكليني، ج ١، ص ١٠، باب فطرة الخلق على التوحيد.
- (٥) نقل ذلك سماحة العلامة السيد منير الحباز عن سماحة آية الله العظمى السيد علي السيستاني ـ رحمه الله.
- (٦) سورة الشورى: ١٣.
- (٧) سورة الروم: ٣٠.
- (٨) تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي، ج ١٦، ص ١٨٣.
- (٩) المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر، ص ٩٩.
- (١٠) فلسفة في التربية والحرية، د. علي ماضي، ص ١٢١.
- (١١) سورة الرعد: ١٧.
- (١٢) المدرسة القرآنية، ص ٩٩.
- (١٣) نهج البلاغة (تعليق صبحي الصالح)، ص ٤٣.
- (١٤) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ١٣٦.
- (١٥) الطفل بين الوراثة والتربية، د. علي قائمي، ج ٢، ص ١٤٤.
- (١٦) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ١٨٢، باب الحد الذي يؤخذ فيه الصبيان بالصلوة.
- (١٧) دراسات إسلامية في علم نفس النمو، ص ٢٢١.



- (١٨) سورة البقرة: ٢٨٦
- (١٩) مستدرك الوسائل، الميرزا التوري، ج ٣، ص ١٩.
- (٢٠) شرح إحقاق الحق، السيد المرعشي، ج ٢٤، ص ٦٠٨.
- (٢١) انظر: الطفل بين الوراثة والتربية ج ٢، ص ١٤٤.
- (٢٢) دراسات إسلامية في علم نفس النمو، ص ٢٢٩.
- (٢٣) تحف العقول، ص ١٢٧.
- (٢٤) من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٦٢٢ / باب الحقوق ص، ٦١٨.



الرحمة المجتمعية

الشيخ محمد عاشر عبد الرسول

الملخص:

تعرّض الكاتب إلى التراحم والتعاطف في المجتمع الإنساني لما لهذه الصفة من أثر في قوام المجتمع الناجح بعموم أفراده، فذكر مظهرين من مظاهر هذا التراحم:

أولهما: يتعلّق بالمجتمع الإنساني بعمومه، فذكر أهميّة أن تؤسّس العلاقات بين المجتمع على أساس الرحمة فيما بينهم، كما بين كيف تجلّت صور التراحم عند أهل البيت عليهم السلام.

والآخر: يتعلّق بالأسرة المؤمنة، وبحثه في جهتين: (في العلاقة بين الزوجين، والعلاقة بين الوالدين بالأبناء).

طالما سعى الإسلام من خلال توصياته، وتعاليمه التي أنفذها عبر آياته القرآنية، وأحاديث أهل بيته العصمة والطهارة ومن قبله سائر الشرائع السماوية إلى أن ينشئ الفرد والمجتمع الراقي الكامل المتكمّل

المتحلّي بالفضائل، والمتخلّي عن الرّذائل، ومن أبرز ما اهتمّ به أئمّه أو صنّى بضرورة أن يعيش الفرد ويتبعه المجتمع خلق التّراحم والتّعاطف؛ حتّى حصر القرآن الكريم غاية إرسال النبي الخاتم عليه‌اللهُ في الرحمة، حيث قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.^(١)

وقد تجلّى هذا الخلق الرّفيع حتّى صار من أجلّ مظاهر شخصيّة الأنبياء والأولياء والأئمّة الطّاهرين علیهم السلام، وما أحوجنا اليوم كأفراد ومجتمعات إلى أن يتتجذر فينا خلق الرحمة، بل أن يصير من صلب أعماق وجودنا؛ إذ لا استقرار لمجتمع فاقدٍ للرحمة، ولا تعايش وتقبلٌ للأخر إلّا بالترّاحم والتّكافل. ويکفي الرحمة إعلاء وتقديرًا أنها من الصفات التي أثبّتها الله عزّوجلّ لذاته المقدّسة.

من هذا المنطلق أحببتُ تسلیط الضّوء على المواطن التي تكون مظهراً للرحمة بشكلٍ آكد وأكثر أهميّة، مستنداً في ذلك إلى الآيات القرآنية والروايات الشريفه وسيرة أهل البيت علیهم السلام.

المظهر الأول: المجتمع الإنساني

تُعتبر الرحمة ركيزة أساسية يتقوّم بها المجتمع الناجح بكلّ أفراده على مختلف توجّهاتهم ومشاربهم، حينما يتخلّى عنها من هو في أعلى الهرم (الحاكم) إلى أصغر فرد فيه. ولذا كانت من وصايا أمير المؤمنين علیه‌اللهُ في العهد الذي كتبه لمالك الأشتر علیه‌اللهُ وليه على مصر حيث قال فيه «وأشعر قلبك الرحمة للرّعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنّهم صنفان إما أحُد لك في الدين وإما نظير لك في الخلق»^(٢)، فهذا أمير المؤمنين علیه‌اللهُ العادل الرحيم يعهد إلى وليه بأن يتخلّى بصفة

الرّحمة وأن تكون هي منطلق التّعاطي مع سائر النّاس بلا فرق بينهم مسلمين كانوا أو غير مسلمين؛ لأنّ ذلك ضمان استقرار المجتمع ورقيه ونجاحه.

وقد تظافرت النّصوص الشرّيفة في الحثّ على أن تكون العلاقة بين المؤمنين أنفسهم قائمة على الرّحمة والعطف والتعاون فيما بينهم، بل أعطتنا نماذج عملية تخلّقت بالرّحمة، فهذا القرآن الكريم يصف نبيّنا الكريم قائلاً: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(۳) فما كانت منطلقات أفعاله إلّا الرّحمة والرّأفة، بل وصلت رحمته وشفقته إلى أقصى مراتب الرّحمة حتّى أنه لشدّة رحمته وشفقته خاطبه الجليل تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخْرُ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا﴾^(۴)، وفي آية أخرى يقول: ﴿لَعَلَّكَ بَاخْرُ نَفْسَكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(۵) - يقال بخَع نفَسَه بخَعاً، أي قتلها غمّاً^(۶) - وكأنّ غمّ وتأسف النبي عليه وآله على عدم إيان قومه كاد أن يقتله. فما هي تلك الرّحمة التي غمرت قلب النبي الأكرم عليه وآله؟!! وقد جاء في آية ثالثة: ﴿... فَلَا تَذَهَّبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾^(۷) وهذا نقطة من بحر الرّحمة الحمديّة التي تجلّت في مواقف عديدة، حيث عفا عنّ أساء إليه وأذاه من زعماء قريش حين فتحه ملكة كما جاء في الرواية عن الإمام الصادق ع عليه السلام: «... دخل صناديق قريش الكعبة وهم يظلون أن السيف لا يرفع عنهم فأتى رسول الله عليه وآله البيت وأخذ بعضادي الباب ثم قال: (لا إله إلا الله أنجز وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده)، ثم قال: ما تظلون وما أنتم قائلون؟ فقال سهيل بن عمرو: نقول خيراً ونظنّ خيراً أخ

كريم وابن عم، قال: فإنّي أقول لكم كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ
 الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٨) فحينما تكون الرحمة يكون
 العفو والتسامح والصفح.

وفي موقف آخر يعطينا التاريخ غوذجاً يعتبر امتداداً للفيض الرحماني التبوي، إذ يروى "أن شامياً رأى الإمام الحسن عليهما السلام راكباً، فجعل يلعنه، والحسن عليهما السلام لا يرد، فلما فرغ، أقبل الحسن عليهما السلام عليه، وضحك، فقال: «أيها الشّيخ، أظنك غريباً، ولعلك شبّهت، فلو استعنتنا أعتناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبّعناك، وإن كنت عرياناً كسوئناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويئناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حرّكت رحلتك إلينا، و كنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك، كان أعود عليك، لأنّ لنا موضعًا رحاً، وجاهًا عريضاً، وما لاً كثيراً». فلما سمع الرجل كلامه بكى، ثم قال: "أشهد أنك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته، و كنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ، والآن أنت أحب خلق الله إليّ، و حول رحله إليه، وكان ضيفه إلى أن ارتحل، وصار معتقداً لمحبّتهم".^(٩)

وقد تجلّت صفة الرحمة عند أهل البيت عليهما السلام بأجلّ صورها في الإمام الحسين عليهما السلام خصوصاً في أحداث كربلاء وما يتعلّق بها. فمثلاً حينما جاءه الحر بن يزيد الرياحي في ألف فارس يطلبون اعتراض طريقه نحو الكوفة وقد أشرفوا على الهلاك من شدة ما لحقهم من العطش، فما كان من رحمته وشفقته بهم إلا أن أمر غلمانه وأهل بيته أن يسقوا القوم عن آخرهم ويرشّفوا الخيول ترشيفاً^(١٠)، فأي نوع من الرحمة هذا الذي

حازه أبو عبدالله الحسين عليهما السلام حتى صار يعطف على قاتليه؟!!

فهذه بعض نماذج تدعونا لأن تكون أفعالنا وعلاقاتنا مع الآخرين منبثقة من مبدأ الرحمة والرّأفة، خصوصاً ما إذا كان الآخر مؤمناً فإن العطف والرّأفة به والصفح عن خطئه قد أكدت عليه النصوص الشرفية، فإن الالتزام بكل ذلك يولّد مجتمعاً صالحًا راقياً متكاملاً متعاوناً، كال المجتمع الذي كان يصبو إليه الأنبياء والأولياء عليهما السلام.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُجْهِمُهُمْ وَيُحْبِبُهُمْ أَذْلَلَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذُلْكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١١) فمن صفات المؤمن أنه يلين جناحه لأخيه المؤمن، خلو الجفاء والتساوی معه.

وفي آية أخرى تصف النبي "الأكرم عليهما السلام" وأصحابه المؤمنين فتقول: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(١٢) فالمؤمن يرافق بالمؤمن ويحنو عليه، وليس الشدة والغلظة إلى للكافرين المعاندين.

ولذا ورد الحث في العديد من الروايات على كثير من السلوكيات العملية التي من شأنها المساهمة في شياع حالة المحبة والتراحم بين الآخرين. فمثلاً:

التهادي: عن السكوني عن أبي عبدالله عليهما السلام قال: قال رسول الله عليهما السلام: «تمادوا تُحابُوا تمادوا فإنما تذهب بالضيائين»^(١٣) فالهديّة من شأنها إيجاد المحبة بين المؤمنين، وإزالة الأحقاد من القلوب إن وجدت.

إظهار المحبة باللسان: فقد جاء عن رسول الله ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدَكُمْ صاحِبَهُ أَوْ أَخَاهُ فَلْيُعْلَمْ»^(١٤) فإنّ إبراز المحبة اللسانية الناشئة من مودة قلبية مدعوة لتنمية العلاقة بين المؤمنين.

إفشاء السلام: روي عن رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَهَنَّمَ حَتَّى تَؤْمِنُوا وَلَا تَؤْمِنُونَ حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِنْ فَعَلْتُمُوهُ تَحَابِبُتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(١٥) فإنّ إلقاء السلام فيه المقتضي للمحبة والتراحم.

التّزاور وتذاكر أحاديثهم عَلَيْهِ السَّلَامُ: عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «تَزَوَّرُوا فَإِنَّ فِي زِيَارَتِكُمْ إِحْيَاً لِقُلُوبِكُمْ وَذِكْرًا لِأَحَادِيثِنَا، وَأَحَادِيثِنَا تُعْطِفُ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَإِنْ أَخْذَتُمْ بِهَا رُشْدَتُمْ وَنِجُومَتُمْ وَإِنْ تَرَكْتُمُوهَا ضَلَّلْتُمْ وَهَلَكْتُمْ فَخَذُوا بِهَا وَأَنَا بِنَجَاتِكُمْ زَعِيمٌ»^(١٦).

كل ذلك وغيره مما أشارت إليه الروايات لا ينبغي تركه وإغفاله، بل على المؤمنين التواصي به فهو مصدق لقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصُوا بِالرَّحْمَةِ﴾^(١٧) هذا التواصي الذي يفضي إلى العطف على الفقير، والشفقة بالمسكين، والرحمة باليتيم، فيكون المجتمع في قمة التراحم والتكافل.

المظهر الثاني: الأسرة المؤمنة

تعتبر الأسرة مجتمعاً مصرياً تنبثق منه ثلات علاقات أساسية متبادلة الأطراف: (الزوجان، الوالدان مع الأبناء، الأبناء فيما بينهم) وأخص بالذكر -بلحاظ الحاجة إلى مبدأ الرحمة والرأفة- العلاقات الأولىتين لما لهما من خصوصية وأثر على العلاقة الثالثة بشكل تلقائي، وهما العلاقة الزوجية، وعلاقة الوالدين بالأبناء.

العلاقة بين الزوجين

أمّا العلاقة الأولى التي بين الزوجين فقد أشار إليها القرآن الكريم قائلاً: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوْدَةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»^(١٨) بعض النّظر عن الخلاف القائم حول كون الجعل في الآية المباركة: جعلاً تشير عيّناً بمعنى أنّ الله تعالى أراد من الزوجين أن يحققاً المودة والرحمة، أو جعلاً تكوينياً بمعنى أن كل زوجين بمجرد إنشاء عقد الزوجية تكون بينهما مقتضيات المودة والرحمة إلّا أن بعضهم يضيّعها ويحول موضع دون وجودها، بعض النّظر عن كل ذلك فإنه لا ريب في مطلوبية المودة والرحمة في الحياة الزوجية التي يراد لها النّجاح، وهذا له عوامل سواء على مستوى الإيجاد للمودة والرحمة أو على مستوى الديومة لهما نذكرها تباعاً إلّا أنه قبل ذلك أشير إلى:

الفارق بين المودة والمحبة

وهو معنى لطيف أشار إليه صاحب تفسير الميزان قدس في تعبير القرآن الكريم بلفظ المودة عوضاً عن الحبّ، حيث قال: "المودة كأنّها الحبّ الظاهر أثره في مقام العمل فنسبة المودة إلى الحبّ كنسبة الخضوع الظاهر أثره في مقام العمل إلى الخشوع الذي هو نوع تأثير نفسيّ عن العظمة والكبرياء"^(١٩) فكما أنّ الخضوع الظاهري ترجمان للخشوع الباطني القلبيّ، فكذلك هي المودة العملية ترجمان للحبّ الحقيقيّ الباطني القلبيّ. وكأنّ القرآن الكريم لا يريد من الزوجين أن تكون بينهما حالة الحبّ الجامد المزيف الذي يقف عند القلب من دون أيّ أثر عمليّ يُذكر، وإنّما يريد الحالة الأرقى من الحبّ وهي المودة التي تتضمّن سلوكاً عمليّاً

يترجم تلك الحالة القلبية الباطنية، ومن هنا حينما يأتي القرآن ليحدد أجر رسالة النبي ﷺ فإنه لا يعبر بالحب وإنما بالمودة لذوي القربي ﴿فُلَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَخْرَى إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٢٠) أي الحب المستتبع للعمل، والاتباع الحقيقى.

والسؤال المهم هنا: ما هي أهم العوامل التي تساعد على إيجاد وترسيخ حالة المودة والرحمة بين الزوجين؟

١- مراعاة الحقوق المتبادلة بين الزوجين التي نصت عليها الروايات الشريفة: لا سيّما حق الزوجة الذي أكد عليه الإسلام وحث كثيراً على مراعاته حتى روى عن رسول الله ﷺ: «ما زال جبرئيل يوصيني بالمرأة، حتى ظنت أنه لا ينبغي طلاقها إلا من فاحشة مبينة»^(٢١) فتارة نلحظه من:

* الجانب المادي المرتبط بالمعيشة كتوفير الغذاء والسكن والملابس وسائر ما تحتاج إليه بحسب حالها... إلخ وقد أشرعت الكتب الفقهية هذا الجانب بما فيه الكفاية.

* وأخرى نلحظه من جانبه المعنوي المرتبط بحسن المعاشرة، وهو المهم حيث يتحقق الكثير فيه ويقع في دائرة التقصير. ففي الرواية عن الإمام الصادق ع عليه السلام حينما سُئل عن حق الزوجة أجاب: «أن يسد جوعها، وأن يستر عورتها، ولا يقبح لها وجهها»^(٢٢) فلم يقتصر الإمام على بيان حقها المادي فحسب من توفير قوت ولباس، بل أشار إلى البعد المعنوي المتعلق بحسن المعاشرة، ومن أفضل ما ذكر في هذا الشأن ما ورد عن مولانا زين العابدين ع عليه السلام في رسالة الحقوق: «... فإن لها حق الرّحمة والمؤانسة»^(٢٣) فاللطف والرحمة بها حق من حقوقها المعنوية.

وفي المقابل فإنّ حقَّ الزوج لا يقلُّ شأنًا عن حقِّ الزوجة إن لم يكن أعظم كما جاء في نفس الرواية السابقة عن إمامنا زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «... وإن كان حقك عليها أغلى وطاعتكم بها ألزم»^(٢٤) فمراعاته من قبل الزوجة يسأهم في تعزيز حالة الألفة والرّحمة بين الزوجين.

٢- تفعيل مبدأ التسامح والصفح: وهو ما يعبّر عنه بسياسة التّغافل عن الأخطاء، بمعنى عدم التوقف مع كلّ زلة تصدر من الآخر والتّدقيق في كلّ صغيرة وكبيرة، وإنّما ينبغي أن تسود حالة التسامح والصفح، وإلى ذلك وأشارت النصوص الشرفية: فعن إسحاق بن عمّار قال: قلت لأبي عبدالله عَلَيْهِ السَّلَامُ: "ما حق المرأة على زوجها الذي إذا فعله كان محسناً؟" قال: "(يشبعها ويكسوها وإن جهلت غفر لها). وقال: كانت امرأة عند أبي عَلَيْهِ السَّلَامُ تؤذيه فيغفر لها"^(٢٥) فهذه سيرة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بين يديك في طريقة التعاطي مع أزواجهم حيث منها تنطلق الرحمة.

ولو فتّشنا حياتنا اليومية لوجدنا الكثير منّا تسوده حالة الانتقاد والوقوف عند مطالب الآخر مما يؤدّي إلى حالة التّفور لدى الطرف الآخر.

٣- ترسيخ البعد العاطفي: والذي ينطلق من المظهر الخارجيّ لهما المتمثّل بتعابير الوجه الظاهرة في البشاشة والابتسامة. حيث جاء في الرواية: «البشاشة حبالة المودة»^(٢٦)، وفي أخرى: «البشاشة مخ المودة»^(٢٧) فلا ينبغي للزوج المؤمن أن يقابل زوجته بوجه مكفهر عبوس، فهي الريحانة التي تحتاج إلى العطف والحنان.

ثمّ تمرّ العاطفة لتصل إلى اللسان والكلام، فإنّ كانت لغة الخطاب بين الزوجين مشحونةً بكلمات الحبّ والعشق، فإنّ حياتهما تكاد تخلو من

حالة التّازم والمشاكل؛ حيث إنّ لغة العاطفة ترطّب الحياة وتجعلها تسير بكلّ طمأنينة واستقرار، ولذا قال رسول الله ﷺ: «قول الرجل للمرأة: إني أحبّك، لا يذهب من قلبها أبداً»^(٢٨)، فتترسّخ حالة الودّ والمحبّة بينهما مع إبراز المحبّة عبر اللسان، أمّا ألا تجد كلمة الحبّ والشّكر لها سبيلاً بينهما فإنّه تسود حياتهما حالة الجفاف والتعطّش، فتكون العاقبة وخيمة سيئة جدّاً، إذ تغيل الزوجة أو الزوج للأجنبيّ عنهما حينما تكون عنده الكلمات المسولة العاطفية، فيدخل الشّيطان بينهما، فيكون مآل حياتهما البينونة والطلاق والعياذ بالله.

فحذار حذار من جفاف بعد العاطفيّ وشحّه، بل ينبغي أن يكون بغزارة واستمرار.

٤- التعاون ومساعدة كلّ منهما الآخر: فعن رسول الله ﷺ: «أيّها امرأة خدمت زوجها سبعة أيام، غلّق عنها سبعة أبواب النار، وفتح لها ثمانية أبواب الجنة، تدخل من أيّها شاءت»^(٢٩) فإنّ إسداء الخدمة للآخر طريق نحو التّكامل والقرب الإلهي مضافاً إلى كونه عاماً مساعدًا في إيجاد مناخ وجوّ الرّحمة والمودّة بين الزوجين.

علاقة الوالدين بالأبناء

أمّا العلاقة الثانية فأخصُّ الحديث بتعاطي الوالدين مع الأبناء ولا أتحدّث عن العكس؛ إذ الحديث عن الوالدين عظيم لا يمكن إدراكه وهو من الوضوح بمكان بحيث لا ينكر له أحد، وإنّما أشير إلى علاقة الوالدين مع الأبناء في بعدها العاطفيّ، حيث هي مورد ضبابيّ لدى الكثير، إذ قلّما



تجد أبوين يغمران أبناءهما بالعاطف والرّأفة والحنان بالمعنى الذي سأشير إليه، فأقول: من الخطأ الفادح أن يعتقد الوالد منا أنَّ الابن بحاجة إلى العطف والحنان ما دام في سنِّ عمره الأولى، وأنَّه بمجرد أن يقوى عوده فإنَّه من المعيب أنْ أظهر له كلمات الحب أو قُبلات العشق التي كانت تغمره في صغره، على أنه - وللأسف الشديد - ينعدم كل ذلك فيما بينه وبين أبنائه حتى في سنِّ عمرهم الأولى جهلاً بضرورة الإشباع العاطفي لدى الأبناء الذي يعتبر حاجة ماسة لا تقلُّ أهميَّة عن حاجة توفير الملبس والمأكل ... إلخ، وإنَّ الزهد فيها يمثل إنذاراً بوقوع آثار وخيمة لا تحمد عقبها وقد تصل - كما في بعض القضايا الواقعية - إلى أمراض نفسية شديدة، ومن أكبر تلك الآثار السيئة أنَّ الابن حينما يجد الجفاف العاطفي تراه يبحث عنَّ يختضنه ويصغي إليه، وحينئذٍ تتلقّفه الأيدي الساقطة فكراً وخلقاً برأفة ورحمة وكلمات معسولة فلا يجد من نفسه إلى وقد ارتقى في أحضانها مسلماً نفسه طائعاً إليها. فتصل تلك الأيدي الخبيثة إلى مبتغاها، فتحتضرن فلذات أكبادنا لتنشئته كيما هي ت يريد بعيداً عن خلق وتعاليم الإسلام الحمدي الأصيل، واليوم ما أكثر تلك المشاريع المنحرفة التي تصرف الأموال الطائلة والمدعومة من دول الاستكبار، الموجودة بين ظهرانينا.

من هنا نحتاج إلى أن نشير إلى أهميَّة البعد العاطفي بين الوالدين والأبناء، وأثره في استقرار الحياة الأسرية وسيرها على وفق الحبة والتراحم، فأقول وعلى الله المستعان:

المطالع لروايات أهل البيت عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسِيرَتِهِ الْعَمَلِيَّةِ يَجِدُ أَنَّ لِغَةَ الْعَطْفِ

والحب لا يخلو منها تعاطي الواحد منهم مع أبنائه، مما يدل على ضرورتها واحتياجنا إليها، وإليك بعض ما يشير إلى ذلك:

١- تقبيل الأولاد: فقد كان رسول الله ﷺ يكثر من تقبيل الإمام الحسن والحسين عليهما السلام كما ينقل سلمان المحدّي: «دخلت على النبي ﷺ وإذا الحسين عليهما السلام على فخذيه وهو يقبل عينيه ويلثم فاه وهو يقول: أنت سيد ابن سيد...»^(٣٠)، وفي رواية: «أن رسول الله ﷺ كان يقبل الحسن والحسين عليهما السلام وعنده رجل الأقرع بن حابس جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يرحم لا يُرحم»^(٣١)، وأخرى تقول: « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: ما قبلت صبياً لي قط، فلما ولّى قال رسول الله ﷺ «هذا رجل عندي أنه من أهل النار»^(٣٢).

ففي ظل ذلك المناخ الذي عاش فيه رسول الله ﷺ من القسوة والجفاف العاطفي سعى جاهداً وبشكل عملي إلى ترسير مبدأ العطف على الأبناء عبر الإكثار من تقبيل أولاده.

مضافاً إلى سيرتهم العملية القائمة على تقبيل الأولاد فإن الروايات كثيرة في الحديث على ذلك ذكر بعضها:

منها «أكثروا من قبّلة أولادكم فإن لكم بكل قبّلة درجة في الجنة مسيرة خمسينات عام»^(٣٣)، وجاء عن رسول الله ﷺ: «من قبل ولده كتب الله له حسنة»^(٣٤).

فهل لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة بأن نغدي ونروح محتضنين مقبّلين لأولادنا أو لا؟!

الله عليه وآله!

للأسف هناك بعض الآباء لا يمتلك العاطفة التي تجعله ينحني ليقبل عياله وأطفاله بحجّة أنّ الحبّ في القلب ولا داعي لتقبيل الأولاد وإظهار الحبّ لهم!! فأيّ منطق معوج هذا وأيّ اقتداء وتأسّ برسول

٢- إظهار المحجة لهم: فقد جاء في الرواية عن إمامنا الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ «إنَّ اللَّهَ يُعِظُّ لَيْرَحِمَ الرَّجُلَ لَشَدَّةِ حَبِّ لَوْلَدِهِ»^(٣٥) فتقول لولدك: أنت حبيبي، عزيزتي، لك المكانة الخاصة في قلبي، فذاك باب للرحمة الإلهية. وتجد ذلك واضحاً جلياً في لغة خطاب أمير المؤمنين مع ابنه الإمام الحسن عَلَيْهِ الْكَلَمُ وصيّته له حيث قال: «وَجَدْتُكَ بَعْضِيْ، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّيْ حَتَّىْ كَأْنَ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابِنِيْ وَكَأْنَ الْمَوْتَ لَوْ أَنَاكَ أَتَانِيْ فَعَنِيْ مِنْ أَمْرِ نَفْسِيِّ..»^(٣٦)، نعم إظهار الحبّ الشديدة ينبغي ألا تخرج الولد عن السيطرة فتجعله معانداً، فقد يتطلب الموقف أحياناً حزماً في لين، ولكن يسعى الأب جاهداً إلى أن لا يظهر غضبه إلا عندما يتضي الموقف ذلك ووفقاً للحدود الشرعية.

٣- إدخال الفرح والسرور عليهم: فعن رسول الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ : «مَنْ دَخَلَ السَّوقَ فَاشْتَرَىْ تَحْفَةً فَحَمَلَهَا إِلَىْ عِيَالَهُ كَحَامِلَ صَدَقَةً إِلَىْ قَوْمٍ مَحَاوِيجَ وَلَيْدَأَ بِالْإِنَاثِ قَبْلَ الذِّكْرِ فَإِنَّهُ مِنْ فَرَّحَ أَنْتَهُ فَكَانَتْ أَعْنَقَ رَقَبَةَ مِنْ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ وَمِنْ أَقْرَبَ بَعْنَىْ أَبِنِ فَكَانَتْ بَكَىْ مِنْ خَشْيَةَ اللَّهِ وَمَنْ بَكَىْ مِنْ خَشْيَةَ اللَّهِ أَدْخَلَهُ جَنَّاتَ النَّعِيمِ»^(٣٧)، فأي ثواب عظيم أعدّ من أحسن إلى عياله! إلا أنّ كثيراً من الآباء يغفل عن ذلك، فما يضرّك عزيزتي الأم لو دخلت يوماً في الأسبوع إلى المنزل حاملاً الفاكهة والحلوى تؤنس بذلك عيالك؟ أو

تستثمر أيام الأعياد ومناسبات الفرح فتشري لولدك هدية، ويكتفي أن تكون تحت عنوان الهدية حتى تؤتي ثمارها ولو كانت متواضعة، وكم يدخل من السرور على الأولاد إذا كان الأب جليسهم يؤكلهم بلاعبهم؟!

بعد كل هذا فليس بوسع الواحد مثلاً أن يتأمل مع نفسه بلحاظ موقعها في المجتمع عند تعاطيها مع الآخرين، وفي البيت عند تعطيها مع الزوجة والأولاد فيرى هل هي على وفق تعاليم الإسلام الرّوّوف، وعلى سيرة ونهج نبي الرحمة العطوف أم أنها متشبّثة بالخلق الجاهلي من مبدأ العنف والجفاف العاطفي؟ فمن الضروري أن يتربّى كل فرد من الأمة صغيراً كان أو كبيراً على حب الناس والعطف والشفقة بهم حتى ينعم العالم كل العالم بالسعادة والطمأنينة وتشملهم الرحمة كما قال إمامنا الكاظم عليه السلام: «إن أهل الأرض لمحومون ما تحابوا، وأدّوا الأمانة، وعملوا بالحق»^(٣٨).

الهوامش:

- (١) سورة الأنبياء: ١٠٧.
- (٢) نهج البلاغة، ص ٣٦٧. ط. مؤسسة نهج البلاغة.
- (٣) سورة التوبه: ١٢٨.
- (٤) سورة الكهف: ٦.
- (٥) سورة الشعراء: ٣.
- (٦) الجوهرى، إسماعيل بن حمّاد، كتاب الصّاحح وتأج اللغة وصحاح العربية، ج ٣، ص ١١٨٣.
- (٧) سورة فاطر: ٨.





- (٨) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج ٢١، ص ١٣٢.
- (٩) بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٣٤٤.
- (١٠) تاريخ الطبرى، ج ٥، ص ٤٠٠. (بتصرف)
- (١١) سورة المائدة: ٥٤.
- (١٢) سورة الفتح: ٢٩.
- (١٣) الكليني، الكافي (ط - الإسلامية)، ج ٥، ص: ١٤٤.
- (١٤) البرقي، الحasan، ج ١، ص: ٢٦٦.
- (١٥) التورى، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ٨، ص: ٣٦٢.
- (١٦) الكليني، الكافي (ط - الإسلامية)، ج ٢، ص ١٨٦.
- (١٧) سورة البلد: ١٧.
- (١٨) سورة الروم: ٢١.
- (١٩) تفسير الميزان، السيد الطباطبائي، ج ١٦، ص ١٦٦.
- (٢٠) سورة الشورى: ٢٣.
- (٢١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٢٥٣.
- (٢٢) الكليني، الكافي (ط - الإسلامية)، ج ٥، ص ٥١١.
- (٢٣) التورى، الميرزا حسين، مستدرك الوسائل، ج ١١، ص ١٦٠.
- (٢٤) نفس المصدر السابق.
- (٢٥) الكليني، الكافي (ط - الإسلامية)، ج ٥، ص ٥١٠.
- (٢٦) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٤٠٩.
- (٢٧) نفس المصدر السابق، ج ٧١، ص ١٦٥.
- (٢٨) الكليني، الكافي (ط - الإسلامية)، ج ٥، ص ٥٦٩.
- (٢٩) ابن أبي جمهور، عوالي الثنالى، ج ١، ص ٢٧٠.
- (٣٠) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣٦، ص ٢٤١.
- (٣١) الحر العاملى، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٨٥.
- (٣٢) نفس المصدر السابق.

(٣٣) نفس المصدر السابق.

(٣٤) نفس المصدر السابق.

(٣٥) الصّدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٤٨٢.

(٣٦) السيد الرّضي، نهج البلاغة، ط مؤسسة نهج البلاغة، ص ٣٣٦.

(٣٧) الصّدوق، ثواب الأعمال و عقاب الأعمال، ص ٢٠١.

(٣٨) التّوري، مستدرك الوسائل، ج ١٤، ص ٧.

المؤسسات الدينية بين الواقع والمنشود

الشيخ عباس علي الصاغ

الملخص:

تعرّض الكاتب في هذه المقالة إلى المشكلة التي تعاني منها المؤسسة الدينية من غياب العمل المؤسسي القائم على عدم التخطيط والرؤية البعيدة، وفقدان حُسن الإدارة، وعدم التوفّر على المهارات اللازمـة التي يحتاجها الأفراد القائمون عليها، فإنَّ إيجاد كلِّ تلك المفردات وتفعيلها بالشكل العملي يأخذ بالمؤسسة نحو رفع مستوى الأداء من جهة، والحفظ على قوتها واستمراريتها من جهة أخرى؛ ونظراً لهذه الأهمية قام الكاتب باستعراض تطبيقِ عمليٍّ موجزٍ للكيفية التي يتم من خلالها كتابة (الخطة الاستراتيجية) للمؤسسة. ثمَّ انتقل في الختام إلى بيان أهم الصفات التي ينبغي أن يتوفّر عليها (المدير الناجح) ذو الرؤية الثاقبة، والكفاءة العالية، والعدالة والإنصاف، والثقة وعلوَّ الهمة، والتمسّك بالقيم والمبادئ السامية، والتقوى اللازمـة، والتفاؤل والأمل بالنجاح على طول الخط، متجاوزاً الأزمـات ورافعاً للعقبـات.

المقدمة:

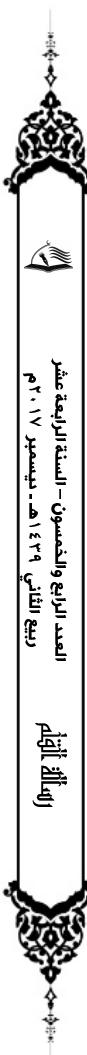
لا يخفى على كل مسلم ما لأهمية المؤسسة الدينية في حفظ الدين وترويجه في مختلف الأعصار والأمصار، فهي التي حافظت على بقاء الدين من خلال التعليم والتنقيف في الداخل الإسلامي، وهي التي كانت ولا زالت تدافع عن الدين وتدفع عنه الشبهات والأفكار المنحرفة، سواء كانت تلك الشبهات من نفس الداخل الإسلامي أم من خارجه.

وبهذا النمط استمرت المؤسسات الدينية في عملها -أي تقوية الجانب المعرفي في الداخل الإسلامي، ودفع الشبهات الطارئة على الدين- وقد أددت دوراً بارزاً في هذا المجال مما ساهم بشكل كبير في حفظ الدين واستمراره.

ولكن من الملاحظ أن العمل في الزمان السابق كان يعتمد بشكل كبير على العمل الفردي، حيث إن العالم الفلاني هنا يقوم بكتابة بعض الكتب، والعالم الفلاني هناك يقوم بالتبليغ، وهكذا كان العمل يتم بشكل فردي.

وأحب هنا أن أكتب هذه القصة حتى أبيّن مقصودي: جاء في كتاب قصص وخواطر أن الشيخ محمد جواد البلاغي النجفي -صاحب المؤلفات الكثيرة في الرد على شبهات الماديين واليهود والنصارى- كان فقيراً جداً، إذ كان بيته في النجف الأشرف كبيت الفقراء، وفرشه لا يعدو عن كونه حصيرًا من سعف النخيل، وذات مرة كتب بعض الكتب وأراد طباعتها، ولكنه لم يجد مالاً للطباعة، فقام ببيع داره وطبع هذه الكتب بشمنه^(١).

نلاحظ مدى تفاني الشيخ وتضحياته من أجل توعية الناس وحفظ



الدين، ولكنّه يبقى عمله فردياً، والعمل الفردي لا ينتج دائماً النتاج المطلوب؛ إذ لعله لو كان الشخص غير الشيخ البلاعى رحمه الله لما طبع كتابه أصلاً، ولكن لو كان العمل مؤسّساتياً لكان العوائق أقلّ بكثير.

ولذا جاء في التقرير المُعدّ حول دار الحديث العلمية الثقافية بأنّ الدافع لتأسيس هذه الدار هو التنظيم والعمل الجماعي المؤسّساتي، فقد جاء في التقرير: ”في الماضي وبسبب عدم توفر ظروف العمل الجماعي لم يكن هناك سعي منظم وجامع لتدوين الأحاديث وتنظيمها؛ ولذا كان هناك شعور بالحاجة إلى وجود مركز مستقلّ للعمل المنظم في مجال تصنيف الأحاديث وتهذيبها، وبيان ونشر المعارف الحديثية والتحقيق في المسائل المرتبطة بالحديث“^(٢).

من هنا أحسّ العلماء والمتديّنون والمثقفون بضرورة العمل الجماعي، فبدأت الجامعات والمؤسسات تتشكل شيئاً فشيئاً، إياناً منهم بضرورة تكاثف الجهود وتلاقي الأفكار، وإذعاناً منهم بعدم جدوى العمل الفردي في هذه الأزمان.

وكان لهذه المؤسسات والمراكز دورها في المجتمع، ولكنّها بقيت تعتمد بشكل أساسي على جهود فرد واحد أو مجموعة قليلة من الأفراد، حيث إنّ هذا الفرد عادةً ما يكون لديه بعض النشاط أكثر من غيره فيتولّي أغلب المهام في المؤسسة، وهذا الأمر -كما ترون- قد يؤدي إلى انتهاء المؤسسة عند رحيل هذا الشخص أو هؤلاء الأشخاص، فهذه المؤسسة وإن سمّيت مؤسسة إلا أنّ واقعها يعود إلى العمل الفردي.

ثمّ إنّه لو تجاوزنا هذه المشكلة، وقلنا بأنّ هناك فعلاً مجموعة تعمل مع

بعضها البعض، ولا يوجد عمل فردي، إلا أنه تواجهنا مشكلة أخرى ألا وهي عدم الكفاءة في العمل، وهذه مشكلة كبيرة في مراكزنا ومؤسساتنا الدينية -خصوصاً المؤسسات والمراكز التطوعية- حيث إن عدم الكفاءة في العمل هو السبب الرئيس في عدم إنتاجية المؤسسة الدينية بالمستوى المطلوب والمأمول، فإن الطابع العام لمؤسساتنا هو العمل أياً كان، وهذا وإن كان قد ينبع في بعض الأحيان إلا أنه ينبع في كثير من الأحيان أو يكون مستوى العمل على رتبة واحدة لا يتغير.

إننا اليوم نعيش واقعاً غير الذي نعيشه بالأمس، فأعداء الدين يعملون ليلاً نهاراً من أجل محاربة الدين بشكل مدروس ومنظم، ويستخدمون أحدث الوسائل التكنولوجية في ترويج أفكارهم، يقول الدكتور أيمن المصري خطأ: "إنهم أي الملحدون - يعتمدون بصورة أساسية على وسائل التواصل الاجتماعي ضمن آلاف المواقع الكثيرة على الشبكة العنكبوتية، فيبيرون الشبهات المختلفة ضد أمرتين أساسين هما: مبدأ الوجود الإلهي، والآخر هو ضد وجود الدين فينتقدون فلسفته وينظرون إلى مناسمه وأحكامه؛ ذلك كله لإخراج الناس من الدين وليرجعوا إنكار المبدأ الإلهي فيستفي الدین. -إلى أن قال:- وقد استغل هؤلاء ضعف المناعة الفكرية عند الناس والشباب، وهذا واقع وهو أن الشباب ليس لديهم حصانة فكرية وذلك نتيجة: القصور والتقصير في المؤسسة الدينية، ونتيجة وجود الغزو الثقافي".^(٣)

ويقول ساحة السيد منير الخباز خطأ -في حديثه عن عوامل الإلحاد مع تعديل طفيف في العبارة:- "العامل الثالث: هو عدم مواكبة المؤسسة الدينية لعالم الفكر، فالمؤسسة الدينية (الجامعة - المدرسة - المسجد) غير

مواكبة وبعيدة عن ما يثار في العالم من أطروحات حول الدين، حول الإنسان، حول النفس، حول مصير الإنسان، حول الأسئلة الوجودية، ما يثار في العالم حول هذه الأسئلة وحول هذه القضايا المصيرية المؤسسة الدينية لا تتبعها ولا ترصد لها ولا تهتم بها، فالمؤسسة الدينية منغلقة على ما هو موروث من العلوم والأفكار منذ عدة قرون دون أن تفتح على ما يثار في العالم، ونتيجة ذلك يشعر الشاب المسلم أن المؤسسة الدينية لا تلبي طموحاته، وأن المؤسسة الدينية لا تجib على أسئلته، وأن المؤسسة الدينية لا تحل إشكالاته واستفهاماته، لذلك حيث يوجد الحل ويجد الجواب في الأساليب الإعلامية العلمانية والإلحادية فمن الطبيعي أن يتجه إليها وأن يتأثر بها^(٤).

باعتقادي أن سبب عدم المواكبة وعدم الإنتاجية المطلوبة في المؤسسات الدينية هو عدم الكفاءة في العمل، فالمؤسسات لو وظفت الكفاءات أو حاولت أن تطور نفسها من الجانب الإداري والتنظيمي وكانت أفضل بكثير مما هي عليه الآن، ولزالت من مستوى إنتاجيتها وكفاءتها وأصبحت توأك كل الأحداث بحرفيّة وتقنيّة عالية، يقول الإمام الصادق علّيكم السلام: «الْمُؤْمِنُ حَسَنُ الْمُعْوَنَةِ، خَفِيفُ الْمُتَوَنَّةِ، جَيِّدُ التَّدَبِّرِ لِمَعِيشَتِهِ، لَا يُلْسَعُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ»^(٥).

من هنا سوف نقدم فكرة عامة حول عملية الإدارة وأهميتها، وكيفية تنظيم المؤسسة إدارياً وفنياً؛ والهدف من ذلك هو أن تلتفت مؤسساتنا الإسلامية إلى أهمية الموضوع وت تكون عندها أهم الأفكار الإدارية، ومن ثم تنطلق في تطوير ذاتها وتسعى لرفع مستواها الإداري والإنتاجي.

وأود أن أشير إلى أن تعريف المصطلحات في هذا المجال ليس من الأمور الثابتة المتفق عليها، ولكنها تتشابه في المضمون، ولذا سأتنزع ما أجد مناسباً من هذه التعاريف دون التقيد بمصدر معين.

ما هي المؤسسة؟

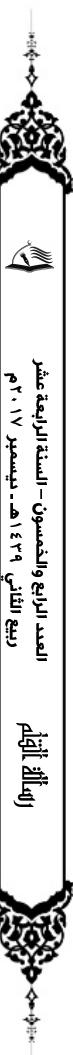
المؤسسة هي منظمة تم تأسيسها من أجل تحقيق هدف معين، وتضم مجموعة من الأفراد يعملون مع بعضهم البعض وفق خطة معينة ووفق إطار تقسيم واضح في العمل.

لماذا العمل المؤسسي؟

إن العمل المؤسسي يساهم بشكل كبير في عدة أمور، منها:

- ١- تطوير الإنتاج: فإن التعاون في العمل وتكافف الجهد وتلاقي الأفكار يساهم بشكل كبير في تطوير الإنتاج وزيادته ودقّته وسرعته.
- ٢- تقليل التكاليف: والمراد من تقليل التكاليف هو صرف الموارد في محلّها بأقل الخسائر، وهذا يعتمد على مقدار الإنتاج المطلوب وحجم الهدف المرسوم. وممّا لا شك فيه أن العمل الجماعي يساهم في صرف الموارد في محلّها الصحيح بأقل الخسائر وبأقل الأخطاء.
- ٣- الحضور القوي في مختلف الساحات والتميز في الطرح، مما يساهم في جذب الجماهير بشكل أكبر إلى المؤسسة.

هذه الأمور وغيرها لا يمكن أن تحصل من دون عمل إداري منظم، فالإدارة الجيدة هي المؤثر الأكبر في نجاح المؤسسة وفي بقائها واستمرارها، فلا بد للمؤسسات من أن تستفيد من علم الإدارة والاطلاع عليه؛ فعلم



الإدارة يدعو إلى اتخاذ قرارات رشيدة، بمعنى وضع الأمور في نصابها، وهذا في الحقيقة هو معنى الحكمة، قال تعالى: ﴿وَسَدَّدَنَا مُلْكُهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخِطَابِ﴾^(٦).

لا بد أن نقيّم واقعنا الحالي ونغيّره، لا ينبغي البقاء على ما نحن عليه، بل لا بد أن ننشد واقعاً مبنياً على أسس منهجية، لا بد أن ننظر إلى المستقبل، وممّا يساهم في هذا الجانب هو علم الإدارة، وهو ليس بالأمر الصعب تحقيقه، بل إنه من السهل جدّاً تحصيل علم الإدارة ولو إجمالاً، ولكن ينبغي الالتفات إليه والتوجّه الجاد نحوه عن طريق الانضمام إلى الدورات التدريبية والاطلاع على الكتب المختصة في هذا الجانب مثلاً، لأن نهمله ونعمل باجتهاداتنا الفردية غير الواضحة التنظيم.

يقول الشيخ مصباح اليزدي عليه السلام: "كُلُّما غلبَ عَلَى الْعَمَلِ الطَّابِعِ الْجَمَاعِيِّ وَكَانَ أَكْثَرُ تَكْتِلَةً وَأَكْثَرُ قَوَّةً وَعَدَّةً كَانَ أَكْثَرُ عَطَاءً وَثَرَاءً، وَهَذِهِ مَعَادِلَةٌ ثَابِتَةٌ عَلَمِيًّا وَتَجْرِيَّبِيًّا، إِنَّمَا ازْدَادَ وَاشْتَدَّ التَّعَاوُنُ وَالتَّازِرُ بَيْنَ الْأَفْرَادِ الَّذِينَ يَمْارِسُونَ أَعْمَالًا اجْتِمَاعِيَّةً -مَعَ أَخْذِ الْأَفْرَادِ كَمًا وَنُوعًا- بَنْظَرِ الاعتبار-

فَعِنْدَ ذَلِكَ تَزْدَادُ وَتَتَصَاعِدُ قِيمَةُ ذَلِكَ الْعَمَلِ" ^(٧).

كيف تكون إدارة المؤسسة إدارة ناجحة؟

المؤسسة إذا توفّرت على (الخطيط والتنظيم والتوجيه والرقابة) كانت إدارتها ناجحة وإلا فلا، وإن توهمت أنها ناجحة.

من هنا سوف نبدأ بالسير بشكل متسلسل لبيان أهم الأمور التي يجب أن تتوفّر عليها المؤسسة في إدارتها، وما هي شروط كلّ أمر منها، آملين أن تستفيد منها مؤسساتنا الدينية في تنظيم المؤسسة.

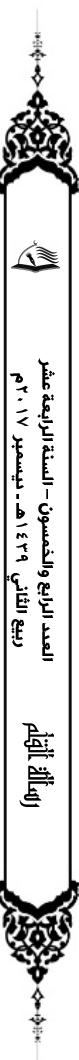
الأمر الأول: رسالة المؤسسة

رسالة المؤسسة هي هوية المؤسسة وما يميّزها عن غيرها من المؤسسات، لذا فإنّ أول أمر لا بدّ أن ت العمل عليه المؤسسة هو صياغة رسالة المؤسسة؛ لأنّها هي الانطلاقة التي ينطلق منها العمل، فمنها تُشتق الأهداف العامة ثم السياسات العامة، ومن ثم صياغة الأهداف الخاصة ضمن خطة استراتيجية واضحة، ثم البدء في فرز ميادين العمل ووضع مؤشرات التقييم.

رسالة المؤسسة أو المنظمة تصاغ بلغة إنسانية جذابة تُولد الفخر والحماس والاعتزاز بالانتماء للمؤسسة، وهي تتضمّن الفلسفه التنظيمية للمؤسسة (أي قيم ومعتقدات المؤسسة)، وتتضمّن الأغراض التنظيمية (أي الغايات والطموحات والأهداف العامة).

ورسالة المؤسسة -بالإضافة إلى ما سبق- تحبيب عن تسعة أسئلة^(٨):

- ١- من هم المستفيدون من هذه المؤسسة؟
- ٢- ما هي الخدمات والمنتجات التي تقدمها المؤسسة؟ (وهذه تصاغ بطريقة كيفية إشباع حاجات المستفيدين).
- ٣- ما هي ساحة عمليات المؤسسة؟ أي ما هي الحدود الجغرافية لعمل المؤسسة؟
- ٤- ما هي فلسفة المؤسسة؟ أي أبرز القيم التي تؤمن بها؟
- ٥- ما هي الميزة التنافسية للمؤسسة؟ أي ما الذي يميّز هذه المؤسسة عن غيرها؟ لماذا الناس تُقبل على هذه المؤسسة دون غيرها؟



٦- هل تهتم المؤسسة بسمعتها في الإطار الوطني والقومي والعالمي؟ أو في بعضها دون البعض مثلاً؟

٧- هل المؤسسة تهتم بالتقنولوجيا؟

٨- هل تهتم المؤسسة بالنمو والتطوير؟ والربحية إن كانت ربحية؟

٩- هل تهتم المؤسسة بالعاملين لديها وتعتبرهم أصلاً من أصولها؟

هذه الأمور تصاغ على شكل رسالة لا تتجاوز الصفحة الواحدة، وتكتب بشكل واضح بحيث تكون مفهومة للجميع، ولا يشترط الترتيب في هذه الأسئلة وإن كان الدارج هو مراعاة الترتيب بينها.

الأمر الثاني: الأهداف العامة والخاصة

من تلك الرسالة التي كتبناها نستخلص مجموعة من الأهداف العامة للمؤسسة، والمقصود من الأهداف العامة هي تلك الأهداف التي تبقى ما بقيت المؤسسة، بخلاف الأهداف الخاصة أو الاستراتيجية (المرحلية)؛ فهي تلك الأهداف التي يكون لها الأولوية في فترة معينة يراد تحقيقها فيها.

والأهداف لا بد أن تتوفر على أمور، منها:

١- أن تكون دقيقة في معايرها كماً وكيفاً وزماناً.

٢- أن توضع لها خطط مرحلية من أجل تنفيذها وتحقيقها.

٣- أن يواكبها تهيئة موارد مادية وبشرية من أجل المساعدة على تنفيذها وتطبيقها.

٤- وجود مدير يشرف على حركة العاملين قبل وأثناء وبعد تحقيق الأهداف.

الأمر الثالث: السياسات العامة للمؤسسة

لا بدّ لكل مؤسسة أن تكون لديها سياسات عامة هي أشبه بالقوانين، بحيث لا يجوز تجاوز هذه السياسات والقوانين، وإذا حصل تجاوز فهذا يعتبر مخالفة لسياسات المؤسسة ونقطة ضعف فيها، فلذا لا بدّ من صياغتها بشكل واضح - بحيث لا تسبّب التنازع والاختلاف مستقبلاً في شرح بعض مفرداتها - ومن ثم يتم إطلاع العاملين في المؤسسة عليها.

الأمر الرابع: التخطيط الاستراتيجي

كثيراً ما نسمع كلمة (الاستراتيجية)، فما هو معناها؟

الاستراتيجية هي: "مجموعة الأفكار والمبادئ التي تتناول ميداناً من ميادين النشاط الإنساني بصورة شاملة متکاملة، وتكون ذات دلالة على وسائل العمل ومتطلباته واتجاهاته مساراته بقصد إحداث تغييرات فيه وصولاً إلى أهداف محددة. كما أنها أفعال أو مجموعة من الأفعال التي تهدف إلى تحقيق الأهداف المرسومة. وحيث إن الاستراتيجية معنية بالمستقبل فإنها تأخذ بعين الاعتبار احتمالات متعددة لإحداثه وتكون قابلة للتعديل وفقاً للمستجدات. كما تحتل الاستراتيجية موقعًا وسطًا بين السياسة والخطة، وتستخدم الاستراتيجية في الدراسات المعنية بأساليب التخطيط والتدبير والتنظيم.

وترجع جذور كلمة الاستراتيجية إلى كلمة (Strategos) باللغة اليونانية

والتي تعني (كيفية قيادة الجنرال للحرب). وقد تطور هذا المفهوم عبر عصور التاريخ مع نمو المجتمعات البشرية وتعقدتها، وانطلاقاً من الجذور العسكرية لمفهوم الاستراتيجية تُعرف الاستراتيجية بأنّها (علم تخطيط وتوجيه العمليات الحربية)، كما تعرف بأنّها (علم وفن الحرب الذي يهدف إلى مواجهة العدو تحت ظروف تفوق قدرته وفقاً لموقف وقوة كلّ طرف)، وتُعرف أيضاً بأنّها خطة محكمة أو أسلوب لإنجاز نهاية معينة^(٩).

ما هو التخطيط الاستراتيجي؟

التخطيط في الحقيقة هو أمر موجود عند كلّ من يمارس عملاً معيناً؛ إذ لا يعقل أن يقوم الإنسان بعمل أو مشروع ما من دون أن يكون لديه خطة ولو في ذهنه، إلا أنّ هذا الأمر لا يكفي في النجاح؛ فالخطة لكي تكون ذات أثر لا بدّ أن تُدوّن وفق ضوابط محدّدة مدروسة، وإلا فإنّ الممارس للعمل قد تفوته بعض الأمور المهمة إذا لم يمارس التخطيط بشكل منظم.

روي عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: «اعمل لِدُنْيَاكَ كَائِنَكَ تَعِيشُ أَبَداً، واعمل لِإِخْرَاتِكَ كَائِنَكَ تَمُوتُ غَدًا»^(١٠)، ومن الواضح أنّ العمل للدنيا وكائنك تعيش أبداً يحتاج إلى التخطيط والتنظيم، وكذلك العمل للأخرة.

التخطيط الاستراتيجي: هو عبارة عن عملية منهجية مدروسة تساهم في رسم الأهداف المستقبلية وكيفية تحقيقها في مدة زمنية معينة.

والتخطيط لا بدّ أن يراعي فيه الأمور التالية:

١- معرفة حاجات الناس؛ من أجل تلبيتها وإشباعها.

٢- توقع المخاطر؛ من أجل محاربتها والتغلب عليها.

٣- توقع الفرص؛ من أجل استثمارها والاستفادة منها.

٤- معرفة نقاط القوة؛ من أجل تعزيزها وتطويرها.

٥- معرفة نقاط الضعف؛ من أجل إزالتها والابتعاد عنها.

أهمية التخطيط الاستراتيجي

يقول الإمام أمير المؤمنين ع: «التدبر قبَل العمل يؤمِّنك من النَّدَم، والعاقل مَنْ وَعَاتَهُ التجارب»^(١).

تكمِّن أهمية التخطيط الاستراتيجي في أنَّه يساهم في تحقيق أفضل النتائج والتأكد من أنَّ العمل يسير على الطريق الصحيح وفي الوقت المناسب، كما يساهم بشكل واضح في عملية تقييم المؤسسة وبيان مكان الخلل فيها، مما يجعل المؤسسة تتجنِّب الأخطاء شيئاً فشيئاً وبالتالي تتطور شيئاً فشيئاً.

وللتخطيط الاستراتيجي مبادئ وقواعد لا يسع المقام لتفصيل فيها، وإنما أردنا الإشارة إليها على نحو الإجمال حتى نلفت الإخوة العاملين في المؤسسات الدينية إلى أهميتها وثرتها العملية، ومن ثمَّ عليهم أن يبادروا إلى المطالعة في هذا الجانب ويعملوا عليه.

الأمر الخامس: الهيكلة الإدارية وبطاقات الوصف الوظيفي

لا بدَّ لكل مؤسسة أن يكون لديها هيكلة إدارية، والأفضل أن تكون على شكل مُشجرة، يكون على رأسها الإدارة الرئيسية أو الإشراف العام، ثم تنتفرُّع تحتها الأقسام أو اللجان والدوائر.

وفائدة هذه الهيكلة تكمن في تحديد الإدارة المباشرة لكلّ وظيفة، حيث يتعرّف العامل في القسم الفلاني أو اللجننة الفلانية على من هو المسؤول المباشر عنه وإلى من يرجع بحسب التدرج الوظيفي؛ إذ ليس من الصحيح والمناسب أن يرجع جميع العاملين إلى الإدارة العليا في العمل.

الأمر السادس: بطاقات الوصف الوظيفي

ثم بعد وضع الهيكلة الإدارية يتم صياغة بطاقات الوصف الوظيفي، حيث يتم فيها تعريف كلّ وظيفة بدقة ووضوح، وتذكر فيها المهام والمسؤوليات بشكل واضح وتفصيلي؛ حتى لا يحصل النزاع مستقبلاً في أنّ هذا العمل الفلاني هل يدخل ضمن هذه الوظيفة أو تلك، وحتى لو أرادت المؤسسة توظيف عامل معين فإنّ العامل يكون لديه اطّلاع واضح على وظيفته وما هو المطلوب منه، وكذلك يُبيّن فيها المسؤول الإداري المباشر عن تلك الوظيفة، ويُبيّن فيها الأقسام الوظيفية التي تندرج تحتها إن وُجدت، يعني يُذكر فيها الجهة التي يتبعها، والجهة التابعة له.

الأمر السابع: تقييم المؤسّسة

من أهم عوامل النجاح في عمل المؤسّسة هو عامل الرقابة وتقييم أداء المؤسّسة، فلكي تعرف المؤسّسة أنها متقدمة أو لا فإنه لا بدّ من أن تقيّم نفسها؛ من أجل أن تعرف موقع التأّخر وبالتالي معالجتها، وتعرف مواضع التقدّم وبالتالي تعزيزها.

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رَبِحَ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ، وَمَنْ حَافَ أَمِنَ، وَمَنْ اعْتَدَ أَبْصَرَ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ، وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ»^(١٢).

ويكن تعريف عملية تقييم أداء المؤسسة: بأنّها تلك العملية المستمرة التي يتمّ من خلالها القياس الموضوعي للأداء الفعلي للمنظمة ومقارنته بالمؤشرات والمعايير الموضوعة لها؛ من أجل التعرّف على مدى كفاءتها وفعاليتها في سبيل إجراء التحسين والتطوير اللازم.

وهذه المصطلحات الموجودة في التعريف يمكن أن تتّضح من خلال بيان المراحل التي تمرّ بها عملية التقييم^(١٢)، فهي تمرّ بالمراحل التالية:

المرحلة الأولى: وضع ميادين العمل التي يراد تقييمها، ومن خلال هذه الميادين تتفرّع مؤشرات التقييم.

كما لو أرادت المؤسسة تقييم مثلاً التنظيم، والتخطيط، والإعلام، والإنتاج، فإنّ كلّ واحدة من هذه الأمور تعتبر ميداناً يُراد تقييمه.

المرحلة الثانية: وضع المؤشرات العامة والخاصة المناسبة التي من خلالها يمكنني تقييم أداء كلّ ميدان عمل.

مثال: في ميدان (التخطيط): أريد أن أعرف مثلاً نسبة الالتزام بالخططة، وكذلك نسبة العمل المنفذ من الخططة. أو مثلاً في ميدان (الإعلام): أريد أن أعرف مثلاً نسبة الالتزام بتغطية كلّ فعالية تقوم بها المؤسسة، وكذلك نسبة مستوى الالتزام بنشر إعلانات المؤسسة، وهكذا.

فهذه النسب التي أريد أن أعرفها هي التي تسمى بالمؤشرات.

المرحلة الثالثة: وضع ثقل لكلّ مؤشر في كلّ ميدان عمل؛ فإنّ المؤشرات ليست كلّها على مستوى واحد من الأهمية، فبعض المؤشرات تكون أهم، ولذا تكون نسبتها في الحساب أعلى من غيرها.

فمثلاً: يوضع للمؤشر الأول ثقل ٣٠، والثاني ١٥؛ لأنّ المؤشر الأول أَهْم، وهكذا يتم وضع الأثقال بحسب الأهمية والأولوية، بشرط أن لا يتجاوز مجموع الأثقال المائة.

المرحلة الرابعة: وضع معايير لتلك المؤشرات العامة أو الخاصة. والمعيار هو الحد والمقياس الكمي^(١٤) أو النوعي^(١٥) الذي يستعمل لمراقبة أداء كلّ ميدان من ميادين العمل.

مثلاً: في أمثلة المؤشرات السابقة يكون معيار القياس فيها هو النسبة المئوية (%)، ولكن لو كان المؤشر كالتالي (نسبة وضوح العمل لدى الموظفين)، فهنا معيار القياس يمكن أن يكون (متاز، جيد جداً، جيد، مقبول، غير مقبول)، ولو كان المؤشر مثلاً (نسبة المعدل الوسطي لساعات عمل الموظفين)، فهنا يمكن أن يكون معيار القياس مثلاً (٨ ساعات يومياً).

المرحلة الخامسة: عملية حساب نتائج ميادين العمل.

هنا يُفضل الرجوع إلى شخص متخصص في هذا الجانب يقوم بعمل المعادلات الرياضية لحساب نتائج أداء المؤسسة وفق المؤشرات والمعايير التي تمّ وضعها.

وهنا لا يسمح المقام بالتفصيل في كيفية الحساب، ولكن على نحو الاختصار الشديد نقول: بعد أن وضعنا الميادين والمؤشرات والأثقال والمعايير، نأتي إلى الخطوات التالية:

– الأداء الفعلي الحالي كم هي نسبة تحققه؟

– ثم نطبق القواعد التالية: إذا كانت الزيادة محبّذة تكون كالتالي:

((الأداء الحالي/المعيار) × ١٠٠). وإن كان النقصان محبّذاً تكون كالتالي:
 ((المعيار/الأداء الحالي) × ١٠٠).

- ثم نطبق هذه العملية: ((نتيجة المؤشر) × ثقل المؤشر).
- ثم لاحتساب نتيجة الميدان نطبق القاعدة التالية: (مجموع (نتيجة المؤشر * ثقل المؤشر) مجموع أثقال مؤشرات الميدان).
- ثم لاحتساب نتيجة جميع المؤشرات نطبق التالي: (مجموع (نتيجة الميدان × ثقله) مجموع أثقال جميع الميادين).
- والعالمة القصوى لذلك هي المائة.

هذه باختصار عملية حساب تقييم الأداء، ونوجزها في التالي مع إضافة بعض التنبيةات:

- ١- تحديد ميادين العمل.
 - ٢- وضع المؤشرات والمعايير.
 - ٣- جمع المعلومات عن الأداء الفعلي (قياس الأداء الفعلي).
 - ٤- مقارنة الأداء الفعلي بالمؤشرات والمعايير.
 - ٥- إصدار الأحكام، فإن كانت متطابقة مع المعايير فبها ونعمت، وإن كانت غير متطابقة معها؛ فتارة يكون عدم التطبيق إيجابياً وأخرى سلبياً، وفي كل يوم تارة يكون عدم التطبيق مقبولاً وأخرى غير مقبول.
- في حالة كون عدم التطابق غير مقبول سلباً أو إيجاباً فإننا إما أن نعدل المعيار ونقي على المؤشر، وإما أن نصحح الأداء ونقي على المعيار والمؤشر، وإما أن نعدل المؤشر.

إدارة المؤسسة:

بعد أن بَيَّنَا كُلَّ مَا يتعلَّق بِنَجَاحِ الْمَؤْسِسَةِ نَقُولُ: إِنَّ نَجَاحَ الْمَؤْسِسَةِ يعتمد بِشَكْلِ أَسَاسٍ عَلَى مَدِيرِ الْمَؤْسِسَةِ، فَالْمَدِيرُ النَّاجِحُ هُوَ الَّذِي يُسْتَطِعُ إِدَارَةً كُلَّ هَذِهِ الْأَمْوَرِ فِي الْمَؤْسِسَةِ بِشَكْلٍ صَحِيفٍ وَمُنَاسِبٍ. مِنْ هَنَا سَوْفَ نَتَعَرَّضُ بِشَكْلٍ مُوجِزٍ إِلَى مَوَاضِعِ الْمَدِيرِ النَّاجِحِ.

ما هي مواصفات المدير الناجح؟

نَحْنُ هُنَا سَوْفَ نَتَطَرَّقُ إِلَى مَوَاضِعِ الْمَدِيرِ النَّاجِحِ بِرُؤْيَا إِسْلَامِيَّةِ، وَسَنَجْدُ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَحْمِلُ أَرْقَى مَفَاهِيمِ الإِدَارَةِ النَّاجِحةِ فِي جَمِيعِ الْجَمَ�عَاتِ.

أولاً: الرؤية وال بصيرة

الْمَدِيرُ النَّاجِحُ هُوَ الَّذِي يَنْظَرُ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ بِدَقَّةٍ وَيَدْرِسُ حَالَاتَهُ، وَيَتَوَقَّعُ الْمَخَاطِرَ وَالْعَقَبَاتَ وَيَحْاولُ وَضْعَ الْمُخَطَّطِ لِيَتَجَنَّبَهَا، وَيَتَحِينُ الْفَرَصَ وَيَسْتَثِمِرُهَا، وَهَذَا كُلَّهُ يَحْصُلُ بِالتَّخْطِيطِ الْجَيِّدِ وَالْمُنَظَّمِ.

يَقُولُ ضَرَّارَةُ بْنُ ضَرْمَرَةَ فِي وَصْفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كَانَ وَاللهُ بَعِيدٌ عَنِ الْمَدِيرِ شَدِيدِ الْقُوَّى...»^(١٦).

ثانياً: الكفاءة العلمية والإدارية

مِنْ الْوَاضِحِ جَدًّا أَنَّ الْمَنَاصِبَ الإِدَارِيَّةَ لَا بَدَّ أَنْ تُعْطَى لِأَصْحَابِ الْكَفَاءَاتِ وَالْقَدْرَاتِ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ لَنْ تَتَّقَدِّمَ الْمَؤْسِسَةُ إِلَى الْأَمَامِ وَلَنْ تَتَطَوَّرُ، وَلَذَا لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ الْمَدِيرُ صَاحِبُ كَفَاءَةٍ تَوَهَّلَهُ لِأَخْذِ هَذَا الْمَنْصَبِ عَلَى

عاته، وبالتالي لا بد على المدير أن يوظف العاملين في المؤسسة بحسب الكفاءات والخبرات والقدرات.

فقد جاء في عهد أمير المؤمنين عليه السلام الأشتر رضي الله عنه: «ثُمَّ انظُرْ فِي أَمْوَالِكَ فَاسْتَعْمَلْهُمْ اخْتِبَارًا وَلَا تُوْلِهِمْ مُحَاجَةً وَأَثْرَةً؛ فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ، وَتَوَحَّ مِنْهُمْ أَهْلُ التَّجْرِيبَةِ وَالْحَيَاةِ مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالْقَدَمِ فِي إِلَسَامِ الْمُنْقَدَّمَةِ؛ فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقًا، وَأَصْحَّ أَعْرَاضًا، وَأَقْلَى فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَافًا، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأَمْوَالِ نَظَرًا»^(١٧).

وفي كلام ضرارة بن ضمرة أيضاً في وصف أمير المؤمنين عليه السلام: «يتفسّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه...»^(١٨).

ثالثاً: معرفة البيئة المحيطة

لا بد للمديرين الناجح أن يعرف ما يدور حوله في المجتمع؛ حتى يقدم ما يحتاجه المجتمع، ويحاول أن يرتقي بالمؤسسة بما يناسب المجتمع وتطوره، وإلا كانت المؤسسة متقوقة في مكانها، بعيدة عن المجتمع و حاجاته، وبالتالي فشل تلك المؤسسة.

عن أبي عبدالله عليهما السلام: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوايس»^(١٩).

رابعاً: العدالة

من الأمور التي تساهم في نجاح المؤسسة هو تحفيز العاملين في المؤسسة على العمل، ولذا لا بد أن يشعر العاملون فيها بالاحترام والتقدير، ومن الأمور المهمة التي تساعده على ذلك هو أن يكون المدير

عادلاً مع جميع الموظفين والعاملين في المؤسسة، بحيث يعطي كل ذي حق حقه، ولا يتساهل مع البعض دون البعض، ولا يفضل البعض دون البعض من دون مبررات.

يقول ضرارة بن ضمرة في وصف الأمير عَلِيٌّ: «... يقول فصلاً ويحكم عدلاً».^(٢٠)

وقد جاء في عهد أمير المؤمنين عَلِيٌّ لِمَالِكَ الْأَشْتَرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ وَمَنْ لَكَ فِيهِ هُوَ مِنْ رَعِيَّتِكِ؛ فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ نَظْلَمْ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَّمَهُ اللَّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ وَكَانَ اللَّهُ حَرْبًا حَتَّى يَنْزَعَ وَيَتُوبَ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةِ عَلَى ظُلْمٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمُرْصَادِ، وَلَيْكُنْ أَحَبُّ الْأَمْوَارِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحُقْقَ وَأَعْمَهَا فِي الْعَدْلِ وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّاعِيَةِ».^(٢١)

وكذلك قال عَلِيٌّ في عهده: «لَا يَكُونَ الْمُحْسِنُ وَالْمُبَيِّعُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةِ سَوَاءٍ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيدًا لِأَهْلِ الإِحْسَانِ فِي الإِحْسَانِ، وَتَدْرِيبًا لِأَهْلِ الإِسَاعَةِ عَلَى الإِسَاعَةِ».^(٢٢)

خامساً: الثقة بالنفس وعلو الهمة والإرادة

المدير الناجح لا بد أن يتحلى بالثقة وأنه قادر على تحقيق النجاح للمؤسسة ولا يهاب ما يصاحب ذلك من متابعة، فهذه الثقة إذا صاحبتها العزيمة، وعلو الهمة، والسعى نحو الإبداع، وقوة الإرادة الجادة نحو تحقيق الأهداف؛ فإن ذلك كفيل بنجاح المؤسسة إن شاء الله تعالى، وكفيل ببقاء المؤسسة حية نابضة مع تقادم الوقت.

عن الإمام علي عليه السلام: «إذا هبّت أمرًا فقع فيه، فإنّ شدّة توقيه أعظم مما تخفّف
منه»^(٢٣).

سادساً: التقوى وعدم التعلق بالدنيا

لا بد أن يكون المدير -وخصوصاً في المؤسسات الدينية- مخلصاً لله في عمله، يبتغي بذلك رضا الله تعالى، فلا يتعدى على حقوق الغير، ولا يظلم، ولا يحسد الغير في عملهم، وهذا مما له الشأن الكبير في التوفيق الإلهي والنجاح. وأما إذا تعلق الإنسان بالدنيا فإن هذا التعلق يجره نحو المفاسد والتعدى والظلم، والمؤسسة التي تقوم على مثل هذا العمل لن يُكتب لها البقاء والاستمرار.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا دنيا! يا دنيا! إلينك عنّي، أبي تعرّضت أم إلى تشوّفت! لا حان حينك، هيئات هيبات غرّي غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلّقتك ثلاثًا لا رجعة لي فيها، فعمرك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير، آه من قلة الزاد وطول الطريق وبعده السفر وعظيم المورد» .^(٢٤)

ويقول عَلَيْهِ الْكَفَلَةُ فِي عَهْدِ مَالِكِ الْأَشْتَرِ حَلَّتْ لِيَعْنَى: «وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانٍ كَبِيرٍ أَوْ خَيْلَةً فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللَّهِ فَوْقَكَ وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِيرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ...» (٢٥).

سابعاً: التفاؤل والأمل بالنجاح

التفاؤل بالخير يعتبر من العوامل النفسية المهمة التي تشجّع على العطاء والاستمرار، بينما التشاؤم يجعل الإنسان متوجّساً محبطاً، وهذا ما يدفع الإنسان نحو الخمول وعدم العطاء، ولذا لا بدّ للإنسان دائماً

- وخصوصاً مدير المؤسسة - أن يكون متفائلاً بتحقيق النجاح.

وقد ورد في الدعاء عن الإمام زين العابدين ع: «اللهم اجعل أول يومي هذا صلاحاً، وأوسطه فلاحاً، وآخره نجاحاً»^(٢٦).

وعن أمير المؤمنين ع: «تفائل بالخير تنجح»^(٢٧).

ثامناً: الحلم وعدم التهور

لا بد على المدير لكي يكون ناجحاً أن يكون حليماً في مواضع الحلم، وإذا واجهه أمرٌ ما فإنه لا بد أن يحيط به ويدرس جميع حياته ثم يقدم عليه أو يحكم عليه، ولا ينبغي التسرّع في إصدار المواقف والأحكام.

عن أمير المؤمنين ع: «آل الرئاسة سعة الصدر»^(٢٨).

وعنه ع: «الحلم والأناة توأمان يُتَبَعُّجُهُمَا علوّ الهمة»^(٢٩).

تاسعاً: التواضع والمداراة وعدم التسلط

عندما يكون مدير المؤسسة متواضعاً أمام العاملين، ويحترمهم ويداريهم، ويحمل همومهم، ويعطيهم الثقة بأنفسهم ولا يتسلط عليهم، فإن ذلك يجعل العاملين بالمؤسسة يتعلقون بها ويحبّون عملهم، مما يدفعهم نحو العمل الجاد والإبداع.

عن الإمام الصادق ع عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أعقل الناس أشدّهم مداراةً للناس»^(٣٠).

وعن الإمام الحسن عن أبيه ط عليهما السلام في صفة الرسول ﷺ: «كان دائم

البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظٍ ولا صخباً ولا فحاش ولا عياب ولا مذاх، يتغافل عَمِّا لا يشتهي فلا يؤيُس منه ولا يُحِبْ مؤمليه، قد ترك نفسه من ثلات: الماء والإكثار وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلات: كان لا يذم أحداً ولا يعيّره ولا يطلب عورته ولا عثراته»^(٣١).

وفي كلام لضراة بن ضمرة في وصف أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ: «كان والله فينا كأحدنا، يدلينا إذا أتیناه، ويحيينا إذا سألناه»^(٣٢).

عاشرًا: المشاركة والانفتاح

الإنسان مهما بلغ يبقى عقله محدوداً، وقد تحيطه بعض العوامل التي تؤثّر في نظر تفكيره، ولذا قد ترى وجود لون واحد من التفكير لا يتعدّى إلى أبعد من ذلك، وقد يتّفق أن تكون الفكرة خاطئة ولكن لا يُلتفت إليها بسبب محدودية العقل في التفكير، وهذا أمر في غاية الخطورة؛ فهو قد يساهم في استمرار الحطأ وتفاقمه من دون التفات، وكذلك هو لا يفسح المجال أمام الإبداع والتقدّم.

من هنا تأتي أهمية مشاركة الأفكار مع الآخرين والانفتاح على العالم، فالمدير إذا لم يشارك عقله مع عقول الآخرين فإنه قد يوقع المؤسسة في الخسائر وعدم الإنتاج المطلوب، فلا بدّ على المدير أن يفسح المجال أمام العاملين في المؤسسة وغيرهم بإبداء رأيهم ومشاركتهم أفكارهم حتى تنمو المؤسسة وتطوّر.

ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُونَ: «اضربوا بعض الرأي بعض يتولّد منه الصواب»^(٣٣).

وعنه عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبِين: «المستشير على طرف النجاح»^(٣٤).

الحادي عشر: التحفيز المستمر للعاملين

العاملون في المؤسسة هم ركن أساسي في المؤسسة، ولذا فإنّ المدير الناجح هو من يستطيع أن يجعل العاملين يتعلّقون بالمؤسسة ويحبّونها، ويسعى لتحفيزهم دائمًا على العمل الجاد.

والتحفيز له أنحاء متعددة:

أولاً: التحفيزات المعنوية

ومنها: توظيف العامل في المجال الذي يحبّ أن يعمل فيه.
ومنها: إعطاء العامل مساحة من الحرية والتمكين في العمل وعدم التدخّل في الجزئيات، مما يجعله يشعر بالتقدير والاحترام لقدراته.
ومنها: تشجيع العامل ومدحه والإطراء على عمله.
ومنها: الاهتمام بمشاكل العامل خارج نطاق العمل، والتواصل معه وتوكين الصداقات.

ثانياً: التحفيزات المادية

ومنها: إعطاء هدايا تقديرية عند إنجاز هدف مرحلّي مثلًا، أو عند تحقيق نتائج عالية.
ومنها: عمل مأدبات طعام بين فترة وأخرى مما يجعل العلاقة بين المدير والعاملين وبين العاملين أنفسهم تقوى وتزداد.

ومنها: توفير احتياجات العامل التي يطلبها للعمل، وهذا من شأنه أن يزرع حسّ المسؤولية لدى العامل، وأنه ما دام قد طلب الجهاز الكذائي فهو لا بدّ أن يعمل على تطوير المؤسسة من خالله.

ورد في عهد أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْأَشْتَرُ خَلَفَتْهُ: «وافسح له -أي القاضي العامل- في البذر ما يزيل علّته وتقىل معه حاجته إلى الناس، وأعطيه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصّتك ليأمن بذلك أغبياء الرجال له عندك»^(٣٥).

الثاني عشر: حسن الرقابة

لا بدّ للمدير الناجح أن يراقب عمل المؤسسة، ويلاحظ مستوى التقدّم والتأخّر في العمل، ثم يتعرّف على مواطن الخلل والضعف ويحاول إصلاحها، ويتعارّف على مواطن القوة ويحاول تعزيزها؛ فإنّ عنصر الرقابة يعتبر عنصراً مهمّاً في الحفاظ على سير المؤسسة بشكل صحيح، ويعتبر عاملاً أساسياً في الحفاظ على إنتاجية المؤسسة بالمستوى المطلوب، ولذا لا ينبغي التهاون في هذا العنصر.

ولكن ينبغي على المدير أن يمارس دور الرقابة بشكل احترافي ومتقن، بحيث لا يشعر العامل بأنه مراقب في كلّ صغيرة وكبيرة وبالتالي يؤدّي ذلك إلى عدم ثقة العامل بنفسه وبقدراته وعدم ارتياحه من العمل، وكذلك لا يشعر بأنه غير مراقب وغير محاسب بالمرة بحيث يجعله يتساهل في عمله، بل على المدير أن يوازن بين الأمور ويعرف كيفية التصرّف مع العاملين في هذا الجانب، فلا إفراط ولا تفريط.

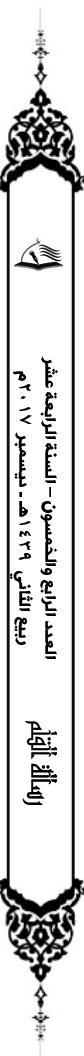


فقد ورد في عهد أمير المؤمنين عليه السلام مالك الأشتر رضي الله عنه: «فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَاحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لَهُ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ وَأَنْقَاهُمْ جَيْباً - إِلَى أَنْ قَالَ - ثُمَّ تَفَقَّدَ أَعْمَاهُمْ وَابْعَثَ الْعُبُونَ مِنْ أَهْلِ الصَّدْقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السَّرِّ لِأَمْوَارِهِمْ حَدْوَةٌ لُّهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ وَالرَّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ، وَتَحْفَظُ مِنَ الْأَعْوَانِ فَإِنْ أَحَدُهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعْتُ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ اكْتَفَيْتُ بِذَلِكَ شَاهِدًا فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقوَبَةَ فِي بَدَنِهِ، وَأَخْذَتُهُ بِهَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتُهُ بِمَقَامِ الْمُذَلَّةِ وَوَسَّمْنَهُ بِالْخِيَانَةِ وَقَلَّدْتُهُ عَارَ التَّهْمَةِ»^(٣٦).

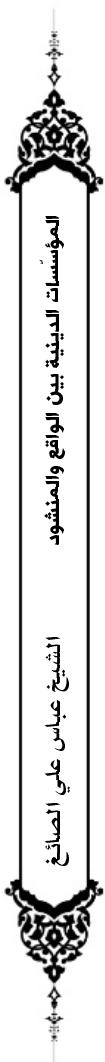
والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

- (١) قصص وخواطر، الشيخ عبدالعظيم المهتمي البحرياني، قصة رقم ٥١، ص ١١٤.
- (٢) مجلة فقه أهل البيت عليهما السلام، ج ٤٤، ص ٢٦١ - ٢٦٢.
- (٣) مجلة رسالة القلم، تساؤلات حول الإلحاد، لقاء مع الشيخ أيمن عبدالخالق المصري، عدد (٥٢)، ص ٨٧.
- (٤) مجلة رسالة القلم، الإلحاد ومسباباته، لقاء مع السيد منير الخباز عليهما السلام، عدد (٥٢)، ص ٦٣.
- (٥) الكافي، الكليني، ج ٢، ص ٢٤١.
- (٦) سورة ص: ٢٠.
- (٧) مجلة فقه أهل البيت عليهما السلام، ج ٣٥، ص ٣٤١.
- (٨) هذه إحدى طرق إعداد الرسالة وكتباتها، وهي محل اختلاف شديد، وقد تكون هذه الطريقة قدية شيئاً ما، فقد أضيفت إليها خطوات، من أهمها مثلاً اختصار الرسالة إلى بعض الكلمات، ولكنها تبقى هي الطريقة الأكثر وضوحاً.



- (٩) الدكتور محمد صبحي، <http://kenanaonline.com/users/drnochay/posts/269419>
- (١٠) من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، ج ٣، ص ١٥٦.
- (١١) نفس المصدر، ج ٤، ص ٣٨٨.
- (١٢) نهج البلاغة، ص ٤٤٤.
- (١٣) طرق تقييم الأداء كثيرة ومختلفة، ولكن نختار هذه الطريقة العملية حتى تكون أسهل في التطبيق.
- (١٤) وهو الذي يتم التعبير عنه بشكل كمي أو رقمي.
- (١٥) وهو الذي لا يمكن التعبير عنه بشكل كمي مباشر، بل يعبر عنه بشكل وصفي كتلك المعايير المتعلقة بالأمور المعنوية والإنسانية.
- (١٦) بحار الأنوار، المجلسي، ج ٨٤، ص ١٥٦.
- (١٧) نهج البلاغة، ص ٣٧٤.
- (١٨) نفس المصدر.
- (١٩) الكافي، الكليني، ج ١، ص ٢٧.
- (٢٠) بحار الأنوار، المجلسي، ج ٨٤، ص ١٥٦.
- (٢١) نهج البلاغة، ص ٣٦٨.
- (٢٢) نفس المصدر، ص ٣٧٠.
- (٢٣) نفس المصدر، ص ٤٣٩.
- (٢٤) نفس المصدر، ص ٤١٧ - ٤١٨.
- (٢٥) نفس المصدر، ص ٣٦٨.
- (٢٦) من دعاء يوم الاثنين للإمام السجاد عَلَيْهِ الْكَلَمُ.
- (٢٧) غر الحكم ودرر الكلم، الأمدي، ص ٥٣، ح ١٨٥٧.
- (٢٨) نهج البلاغة، ص ٤٣٩.
- (٢٩) نفس المصدر، ص ٤٩٩.



١٧١

الشيخ عباس علي الصانع

المؤسسات الدينية بين الواقع والمنشود

- (٣٠) الوافي، الفيض الكلاشاني، ج ٢٦، ص ١٥٩.
- (٣١) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص ٨٣.
- (٣٢) تقدم تحريرجه.
- (٣٣) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي، ص ٣٠٠، ح ١٠٠٦٣.
- (٣٤) نفس المصدر، ح ١٠٠٦٩.
- (٣٥) نهج البلاغة، ص ٣٧٤.
- (٣٦) نفس المصدر، ص ٣٧٤ - ٣٧٥.

السياق ودوره في تفسير القرآن

الشيخ عبد الرؤوف حسن الرابع

الملخص:

تطرق الكاتب في هذه المقالة إلى خمسة محاور:

المحور الأول: معنى السياق اللغوي والاصطلاحي، والفرق بين الظهور والسياق، وعرض تقسيمات السياق.

المحور الثاني: دور السياق في تفسير القرآن مع بيان خصوصية القرآن من بين سائر الكتب وشمولية السياق لكل القرآن.

المحور الثالث: أنواع السياق القرآني، فأشار إلى أربعة أنواع: بين الكلمات، وبين الآيات، وبين السور، ونفس القرآن (روح القرآن).

المحور الرابع: شروط التمسك بالسياق في التفسير كالعلم بالقرينية ووحدة السياق، وموضوعية التعامل معه سياق النصوص.

المحور الخامس: ذكر نموذج يتبيّن فيه أهمية ما مضى ومدى تأثير التفسير بقاعدة السياق، وفي الخاتمة ذكر بعض الثمرات ونتائج البحث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْخَلْقِ
وَالْمَرْسَلِينَ مُحَمَّدٌ وَآلُهُ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ الْمَعْصُومِينَ.

المقدمة:

لَا شَكَّ فِي أَنَّ عِلْمَ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَفَهْمَ كَلَامِ الْمُولَى الْجَلِيلِ هُوَ
مِنْ أَعْظَمِ الْعِلُومِ وَأَعْلَاهَا مَرْتَبَةٌ، وَيَكْفِيهِ شَرْفًا أَنَّهُ يَتَّخِذُ مِنْ آيَاتِ الذِّكْرِ
الْحَكِيمَ -الَّتِي هِيَ نَجْلٌ لِعِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَظْهَرُ قَدْرَتِهِ وَإِعْجَازِهِ وَإِحْكَامِهِ-
مِنْطَلَقًا وَمِنْهَلًا لِتَشْرِيفِ الْخَيْرِ وَالْهَدَايَةِ بَيْنِ الْمُوْجَدَاتِ أَجْمَعِينَ.

وَهَذَا الْعِلْمُ مُجْمُوعَةُ مِنَ الْأَسْسِ وَالْقَوَاعِدِ، وَاحِدَةٌ مِنْهَا قَاعِدَةٌ
السِّيَاقُ أَوِ الْمَنَاسِبَةُ فِي التَّوْصِلِ إِلَى مَرَادَاتِ الْخُطَابِ، وَهِيَ وَإِنْ لَمْ تَخْتَصْ
وَتَقْتَصِرْ عَلَى هَذَا الْعِلْمِ بِالذَّاتِ وَلَكِنَّهَا تَعْدُّ مِنْ أَعْمَدَتِهِ الَّتِي لَا غُنْيَ
عَنْهَا إِطْلَاقًا، وَلَذَا احْتَلَّتْ حِيزًا مَرْمُوقًا بَيْنِ الْمَوَاضِيعِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَحُظِيتْ
بِاِهْتِمَامِ الْمُفْسِرِينَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَصْرُحُوا بِعُنوانِهَا أَوْ
يَتَعَرَّضُوا إِلَى حَدُودِهَا وَتَفْصِيلَاهَا فِي الْغَالِبِ بَلْ أَرْسَلُوهَا إِرْسَالَ
الْمُسْلِمَاتِ.

وَهَذَا مَا يَبْرُرُ طَرْحَهَا وَمَلْمَمَهَا بَعْضُ جَوَانِبِهَا الْمُتَنَاثِرَةُ هُنَا وَهُنَاكَ،
وَمَحَاولةُ التَّعْرِفِ عَلَى أَهْمِ شَرَائِطِهَا وَكَيْفِيَّةِ تَطْبِيقِهَا أَثْنَاءَ مَزاولةِ عَمَلِيَّةِ
الْتَّفْسِيرِ وَكَشْفِ اللَّثَامِ عَنْ مَعَانِي وَمَدَالِيلِ التَّنْزِيلِ.

وَبِذَلِكَ نَشَأَتْ فَكْرَةُ هَذَا الْبَحْثِ الْمُقْتَضَبِ، وَالْمَأْمُولُ مِنْهُ أَنْ يَتَعَرَّضَ
أَوْلًا إِلَى مَفْهُومِ السِّيَاقِ وَأَبْرَزَ فَرْوَعَهُ بِنَحْوِ عَامِ، وَمِنْ ثُمَّ التَّطْرُقُ إِلَى
عَلَاقَتِهِ وَدُورِهِ بِتَفْسِيرِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ إِلَى ذَلِكَ.

المبحث الأول: مفهوم السياق وغرضه وتقسيماته

أولاً: معنى السياق لغةً واصطلاحاً

السياق في اللغة مأخوذة من مادة (سوق)، وتعني حدود الشيء^(١)، أي: زجره وحده على السير من الخلف^(٢) تجاه الأمام كما يحصل لدى حداء وبعث الإبل، سواء كان سوقاً ظاهرياً كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثْبِرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدِ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتَهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾^(٣)، أم غير ذلك كما لو كان معنوياً مثل قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاق﴾^(٤)، أو مجازياً كقولهم: "يسوق الحديث أحسن سياقاً"^(٥).

ومن هذا المعنى سمى نزاع الموت سياقاً لأنَّ الروح تُساق لتخرج من البدن^(٦)، وكذلك عَبَر عن الصداق للمرأة لأنَّ زوجها يسوق مهرها إليها، وسيُسمى محل التبضع سُوقاً لما يُساق إليه من كل الأجناس^(٧).

أمّا من حيث الاصطلاح فقد يتراهى وجود أكثر من تعريف نتيجة السعة والضيق في حدوده، ولكن يبقى الأصل والجوهر في مفهومه واحداً، ولعلَّ أنساب ما ذكر في المقام هو أنَّه: "كلَّ ما يكتنف اللفظ الذي نريد فهمه من دوالٍ أخرى، سواء كانت لفظية كالكلمات التي تشكّل مع اللفظ الذي نريد فهمه كلاماً واحداً مترابطاً، أو حالية كالظروف والملابسات التي تحيط بالكلام وتكون ذات دلالة في الموضوع".^(٨)

ويُستوحى منه أنَّ السياق عبارة عمّا يحيط باللفظ من قرائن ودلالات تصرف الذهن عن المعنى القريب المأнос والمتبادر من اللفظ إلى معنى آخر يكون هو المقصود المراد للمتكلّم، وأنَّ هذه الدلالات تكون تارة لفظيةٌ تتضمّن مع اللفظ الأول وينظر إلى مجموعها معاً، وتارة أخرى

حاليةً ومقاميةً تقتصر من الظروف المصاحبة مع اللفظ ولا يفسر بعزلٍ عنها.

كما أنَّ هذه القراءن قد تفيد أحياناً معنىً زائداً على المعنى المتحصل من الكلمات أو الهيئات مجردة من دون أن تلغيه أو تبدّلها^(٩)، فلو وردت عبارة (اكتب اكتب ما تسمع) مثلاً يكننا أن نستوحي منها معنى التوكيد والإلحاح على الكتابة وليس مفهوم الكتابة المجردة فقط.

وعندما نقول السياق القرآني نريد منه ما يعين على اكتشاف مراد الله ﷺ من الآيات الشريفة من قرائن أو ترتيب أو مناسبة أو هيئة تركيبية وغير ذلك مما شأنه التأثير على المضمون.

ثانياً: الفرق بينه وبين الظهور

قد يطأ في المقام ثمة تساؤل أولى حول مدى الفرق والمائز بين السياق وبين الظهور، فهل هما حقيقة واحدة متحدة أم بينهما تغيير؟ ويترتب على ذلك استفهام آخر مفاده: أنه في حال دلالة ظهور الكلام على معنى والسياق يرشد إلى معنى مغاير له فأيهما المقدم الظهور أم السياق؟

ولكن سرعان ما يزول هذا التساؤل بالتأمل في تعريف السياق، فهو لا يشترك مع الظهور في حقيقة واحدة وليس في واقعه ظهوراً آخر حتى يتنافى مع ظهور الكلام ويصطدم معه في حال التغيير، وإنما السياق هو أحد الأدوات والدلالات التي تعين على اكتشاف الظهور، وحينئذ لا يتصور أصلاً وقوع تنافٍ بينهما حتى نسأل عن المقدم منهما عند ذلك، فالظهور لا ينعقد إلا بعد ملاحظة السياق، ويكون أحدهما مؤثراً في نتيجة الثاني ومتقدماً على حصوله.

ثالثاً: الغرض من السياق

من خلال التعريف بات واضحاً ما هو دور ومحورية السياق في فهم مدليل الكلام، ولكن لإلقاء المزيد من الضوء حول هذا الإطار نقول: إنَّ الغرض الأساس من السياق يكمن في النقاط التالية:

- ١ - الوصول إلى المراد الحقيقي المقصود من الكلام، وذلك لأنَّ المتكلِّم عندما يُبرُزُ القرآن في حديثه فهو يلقي نوعاً من الإشارة والعلامة إلى ما يقصد، فتحسب على أنَّها جزءٌ متَّمٌ لكتابه، وأشباهه بلغة وقناة تفهيمية خاصة يستعان بها عرفاً في التوضيح، وكأنَّ أجزاء الكلام -بعيضة الدوالـ الحبيطة به - وترتبطها وتناسقها تعضد بعضها بعضاً في إحكام المعنى تماماً كما تُسهم اللَّبن المتراءة في تشبيب البناء المحكم.
- ٢ - افتراض الكثير من محسن الكلام ودقائقه ولطائفه التي تخبيء وراء الارتباطات المصاغة بطريقة متناسبة ومقصودة، فمثلاً إذا عرفنا أنَّ المتكلِّم حكيم وقادص ولا يقع فصلاً وراء آخر في الكلام إلا بميزان وهدف -كما هو الحال في القرآن- فمن الطبيعي أنَّ تدقيقنا في نسق حديثه وترتيب أجزائه و اختيار صيغه وهيئاته يكسبنا الكثير من النكات والمعاني.
- ٣ - عدم الواقع في مطبات ومحذرات خطيرة نتيجة الفهم المبتور للكلام، فعلى سبيل المثال فهم البعض من هذه الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١٠) أنَّ اللهَ سبحانه خالقُ لأعمالنا كما هو خالق لنا؛ فذهبوا إلى فكرة الجبر ونفي الاختيار، وأحد الأسباب وراء هذا الفهم المنحرف أنَّهم بتروا الآية عن سياقها واتصالها بما قبلها.



رابعاً: تقسيمات السياق

ذكر الأعلام للسياق بعض التقسيمات تقدّمت الإشارة إلى أحدها - وهو انقسام القرينة السياقية إلى لفظية وغير لفظية كالقرينة الحالية - ونذكر تقسيميين آخرين من دون ادعاء الانحصار في هذه التقسيمات الثلاثة:

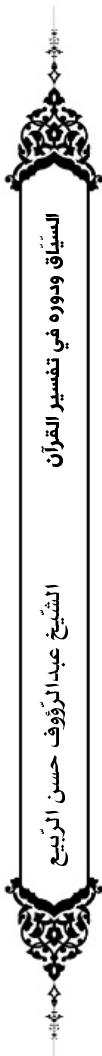
أ- انقسام السياق إلى معنوي ولفظي:

والمراد من المعنوي: التماثل والتشابه في أسلوب المتكلّم وممقاصده عند عرضه للكلام الواحد^(١١)، وحينئذٍ لو شككنا في مفاد أحد أجزاء وفصول كلامه يمكننا الاستعانة بأسلوبه ومقصده في الأجزاء والفصول الأخرى المتصلة لبيان معناه.

مثلاً: لو وردت رواية تحتوي على أربع فقرات، وثلاثة منها دلالتها بُينَة على الوجوب وتردّنا وشككنا في الرابعة هل تدل على الوجوب أم الاستحباب، فقد يقال بالبناء على إرادة الوجوب منها أيضاً إعمالاً لوحدة السياق وتماثل الأسلوب.

وأمّا اللفظي فيراد منه التناسق العرفي والذوقي اللغوي، بحيث لو كان هناك أيّ إخلال لهذا التناسق -من زيادة أو نقصان- لكان آيةً وعلامةً على عدم صدوره من قبل المتكلّم^(١٢)، وكتطبيق عملي على ذلك في البسملة مثلاً: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لو أضفنا لها واواً قبل ﴿الرحمن﴾ وقبل ﴿الرحيم﴾ للمسنا وجود خللٍ في سياقها.

ب- انقسام السياق إلى متصل ومنفصل:



قد تأتي القرينة السياقية بنحو متصل بالكلام وقد تأتي بنحو منفصل عنه، ونعني من القرينة المتصلة: "كلّ ما يتصل بكلمة أخرى، فيبطل ظهورها ويوجه المعنى العام للسياق الوجهة التي تسجم معه"^(١٣)، وأمّا المنفصلة فهي ما تصدر في ظرف وزمن آخر ولكن يفهم العرف ارتباطها بالكلمة الأولى فتعمل معها مثل القرينة المتصلة.

فمثلاً كلمة (كلّ) تدل على العموم ولكنّها في عبارة: (أكرم كلّ الجيران إلا الأغنياء منهم) اتصل بها ما يتنافى مع عمومها فيختصّ به، وقد يأتي المنافي في جملة منفصلة مستقلّة.

المبحث الثاني: دور السياق في تفسير القرآن

المسألة الأولى: أهميّة السياق في فهم معاني القرآن

ذكرنا الغرض من السياق بنحو عام وعرفنا أهميّته ولكن ما نودّ التركيز عليه هنا هو وجود الخصوصيّة في القرآن الكريم التي تجعل من التعامل معه يكون بنحوٍ بالغ الدقة والحذر فتتضاعف أهميّته، وذلك لأنّ:

١- القرآن كلام الله تعالى شأنه، وهو من أبرز تجلّيات علمه المطلق العظيم، وفيه انعكاس لقدرته وحكمته، وبالتالي كلّ شيء فيه بحسب وميزان، وكلّ كلمة وأية لا يستعارض عنها بغيرها حتى بشبيهتها، وهو كلام معصوم عن الزلل والتأثر بالظروف المتغيّرة القهرية، فمن الطبيعي أن يكون بسياقه علم جمّ وينبع عن حكمة.

٢- القرآن هو معجزة خالدة وفوق الزمان والمكان، يقول تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ

كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا^(١٤)، ولا ينحصر إعجازه بالفصاحة وقوّة البيان فقط بل يشمل العديد من الجهات ومنها السياق نفسه، فهو آية ومعجزة أيضاً، فلا يزال القرآن عبر سياقه يجib عن استفهامات الناس ويغذيهم بالجديد ويريدهم من الآيات والعجبات ما يبهر العقول ويحير الألباب، فقد روى الكليني رض عن علي بن إبراهيم عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: ... فَإِذَا اتَّبَعْتُ عَلَيْكُمُ الْفِتْنَ كَقْطَعَ اللَّيْلَ الْمُظْلِمِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ ... وَهُوَ الدَّلِيلُ يُدْلِلُ عَلَى حَيْرَ سَيِّلٍ وَهُوَ كِتَابٌ فِيهِ تَفْصِيلٌ وَبَيَانٌ وَتَحْصِيلٌ وَهُوَ الفَصْلُ لِيَسِ الْمُهْزِلُ وَلَهُ ظَاهِرٌ وَبَطْنٌ فَظَاهِرُهُ حُكْمٌ وَبَاطِنُهُ عِلْمٌ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ لَهُ نُجُومٌ وَعَلَى نُجُومِهِ نُجُومٌ لَا تُخْصِي عَجَائِبُهُ وَلَا تُبْلِي غَرَائِبُهُ فِيهِ مَصَابِيحُ الْهَدَى وَمَنَارُ الْحِكْمَةِ وَدَلِيلٌ عَلَى الْمُعْرِفَةِ لِمَنْ عَرَفَ الصِّفَةَ...»^(١٥).

- القرآن تنقسم آياته إلى محكمة بيّنة وإلى متشابهة لها محتملات وتفتقر إلى إرجاعها إلى المحكمات في تفسيرها وإنّا يعدّ التمسّك بظاهرها تمسّكاً بالغنى وابتغاً للفتنة: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْغَ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ...﴾^(١٦)، وهذا يعزّز من دور ووظيفة السياق لا حالة.

المسألة الثانية: السياق قاعدة من قواعد التفسير

من شأن القاعدة أن تكون مطردة وقابلة للانطباق على مواردها من دون اختصاصها بورد دون آخر وإن اختصت به لا غير، ولو رجعنا إلى

السياق لوجدنا له الصلاحية الشاملة للانطباق على سائر الآيات الشريفة بدون استثناء، وحينئذ يحق لنا أن نعدّ من القواعد التفسيرية التي تستعمل وتوظف في تفسير كل القرآن بدون اعتراض.

المسألة الثالثة: أنواع السياق القرآني

توجد أربعة أنواع للسياق القرآني:

الأول: السياق بين كلمات وألفاظ القرآن الكريم

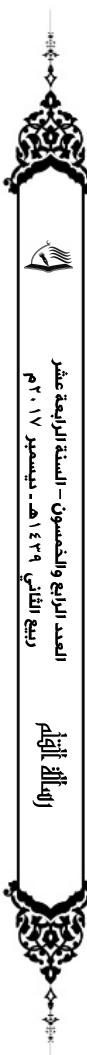
وهو تفسير المقطع المراد من القرآن الكريم بلحاظ سياق الألفاظ أو القرآن الحبيطة به ولو كانت في نفس الآية الكريمة، وهو شائعٌ كثيراً وتزخر به تفاسير الأعلام.

الثاني: السياق بين الآيات بعضها ببعض

وهو تفسير آية معينة نتيجة ملاحظة ما يسبقها أو يلحقها أو ما يتناسب معها من الآيات ولو كانت في موضع آخر، فيلحظ الجميع بنظره وسياق واحد، وهذا النوع ذائع ومنتشر أيضاً، ويمكن أن يكون منه ما لو تم اكتشاف سياق سورة بأكملها كمحور عام فينظر إلى جميع آياتها من خلال هذا المحور^(١٧).

الثالث: السياق بين سورة وأخرى

وهو تفسير سورة من سور بلحاظه بعض الجوانب والسياقات المشتركة بينها وبين بعض سور الأخرى، كما لو انطبعت سور المكية بخصائص مشتركة -مثلاً- لا تتوفر عليها سور المدنية فيكون تفسيرها مطعماً ومشرياً بلون هذه الخصائص وتلحظ بعين الاعتبار.



أو تلحظ العلاقات والمناسبات بين السور بحسب ترتيبها في المصحف الشريف، إذ قيل: إنَّ بينها قام التلاؤم والانسجام وإنَّ هناك ارتباطاً بين خاتمة كلِّ سورة وبين افتتاح السورة التي تليها أو توافق بين مضمون السابقة وبين اللاحقة في تتميم الأغراض القرآنية^(١٨).

نعم هذا يتم على القول بتوفيقية ترتيب السور من قبل الله تعالى، أمّا على القول بعدم ذلك وأنَّ الترتيب الموجود حصل بعد رحيل الرسول الأعظم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باجتهادِ من البعض فلا محض للتعويل عليه، نعم هناك من ذهب إلى إمكان ملاحظة سياق ترتيب السور إذا ثبت بالدليل ترتيب واحدة على أخرى بحسب النزول لا بما هو مثبت في المصحف المتداول من ترتيب^(١٩).

الرابع: سياق القرآن بأكمله

وهو تفسير جميع الآيات والسور ضمن سياق الهدف العام الذي نزل القرآن من أجله وهو الهدایة، فحتى الآيات العلمية التي تتحدث عن بعض أسرار الكون والسماء والأرض وغير ذلك لا تخرج عن إطار التربية والهدایة وبناء الذات الصالحة والنفس الكاملة، وهذا السياق مهم للمفسِّر كثيراً حتى يحافظ على الصورة الإجمالية للقرآن ورسالته ومراميه.

المسألة الرابعة: شروط التمسك بالسياق في التفسير

لا ريب في أنَّ هناك ضوابط وشروطَ عامةً تقنن وتنظم الاستفادة من السياق بشكل صحيح، ويكون في مراعاتها اجتناب الوقوع في الشبهات والانحرافات، لوضوح أنَّ أيَّ زللٍ وخروج عن معاني القرآن وتعاليمه

القوية يعني الابتعاد عن الدين وأحكامه وأصوله، ومن أبرز هذه الشروط:

- ١- العلم أو الاطمئنان بوجود القرينة ووحدة سياق الكلام^(٢٠) ، فمع احتمال التعدد لا يتسع لنا التمسك بالسياق.
- ٢- الموضوعية والنصف في التعامل مع سياق النصوص، فلا نقبله في مورد ونحضر الطرف عنه في آخر.
- ٣- ألا نحمل السياق خلفياتنا السابقة ونلزمه بها، بل المطلوب منا أن نلتزم بمبدأه وإنْ كان على خلاف ما نهوى وغيل، فهو الحجة علينا وليس العكس، كما يجب ألا نحمله فوق ما يحتمل أو نستنقص من دلالته شيئاً.
- ٤- أن نتبع في فهمه الطريقة العرفية العامة في المحاورة، ونتجنب الذوق الشخصي الشاذ والتبرّعي الذي لا ينهض عليه شاهد أو دليل.
- ٥- وأخيراً لا بدَّ من يستعمل السياق من أن يكون مؤهلاً وصاحب صنعة وخبرة في هذا الفن، وإلا فالمدعون والمتطفلون كثُر، كلَّ ذلك مع الاستضاءة بعادن الحكمة وأوعية العلم -مَنْ نهلوا من معين القرآن وارتشفوا زلاله وكأنوا ترجمانه بحقِّ - محمد وآلَه الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

المسألة الخامسة: نموذج تطبيقي للقاعدة

استكمالاً للعرض المتقدّم وتتميماً للفائدة نورد أحد النماذج التطبيقية للقاعدة لنرى كيفَ يتأثر التفسيرُ بها سلباً أو إيجاباً -على أنَّ

كتب التفاسير القدية والحديثة تزخر بالأمثلة الكثيرة المتنوعة التي يستفاد فيها من السياق:-

في قوله تعالى شأنه: ﴿إِنَّ تَكُفُّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ...﴾^(٢١) ذكر الزمخشري أنَّ هناك من فسَّر العباد في قوله تعالى ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ بالمعصومين خاصةً ولم يرد مطلق العباد^(٢٢) وذلك لأنَّه أراد عباده الذين عناهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.^(٢٣)

ولكن لو رجعنا إلى مطلع الآية ﴿إِنَّ تَكُفُّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ فهي خطاب عام شامل لكلِّ المكلَّفين، وكذلك الحال في قوله ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ فإذا بنينا على تفسير العباد بفئة المعصومين فقط فسيكون مجموع معنى الآية: إن تکفروا جمیعاً فالله سبحانه لا يحتاج إلى إیانکم ولكن لا يرضی أن يكون عباده المعصومين فقط كفاراً وأما لو شکرتم النّعمة جمیعکم فهو سبحانه يرضه لكم، أي توسط خطاب إلى الخواص وسط خطابین إلى عامة العباد.

ويرد عليه: إنَّ هذا خلاف السياق العام للآية الكريمة ويترتب عليه تالٍ فاسد، وهو أنَّ الله سبحانه يرضي الكفر لمن كفر من الناس ولم يشكِّر النّعمة، وذلك باعتبار أنَّ عدم رضاه بالكفر اختصَّ بالمعصومين فقط، وأما غيرهم من سائر الناس فلا، وهو معنٍّ لا يستقيم وفيه ركبة وضعف.

والأوفق لوحدة السياق أن يكون الخطاب في المقاطع الثلاثة لعامة

العباد ويكون معنى الآية الشريفة: أَيّهَا النَّاسُ إِنْ كَفَرْتُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى إِبْيَانٍ أَحَدٌ مِّنْكُمْ لِحُكْمِ غَنَاهُ وَكُونِهِ وَاجِبًا لِلْوُجُودِ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى شَيْءٍ، وَلَكِنْ لِكُونِكُمْ عَبَادَهُ فَلَا يَقْبِلُ أَنْ تَكُونُوا كُفَّارًا وَيُؤْدِي أَنْ تَصْبِحُوا جَمِيعًا مِّنَ الشَاكِرِينَ، أَمَّا لَوْ شَكِرْتُمُ النِّعْمَةَ فَهُوَ يَرْضَى عَمَلَكُمْ وَيَبْارِكُهُ^(٢٤).

وهذا التفسير والمضمون في غاية القوّة والانسجام ولا يلزم منه توالي فاسدة، والبركة في انتخابه ترجع إلى ملاحظة السياق والنظر إلى مجموع الآية كحفلة واحدة منتظمة.

الخاتمة

بحث السياق شيقٌ ومفيدٌ ويستحقُّ منَّا زيادة التعمق والتبصر في مطالبه، وقد اقتضانا منه العديد من الثمرات والنتائج، من أبرزها:

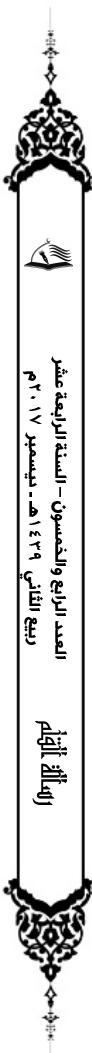
أ- دور السياق دائمًا هو توجيه الكلام الوجهة الصحيحة التي يرومها المتكلّم.

ب- السياق لا يتعارض مع الظهور إطلاقاً؛ لأنَّ أصل الظهور لا ينعقد إلا بعد ملاحظة السياق.

ج- وجود الخصوصيَّة للقرآن الكريم -من حيث كونه كلاماً معصوماً ومعجزاً- يجعل عملية التعامل مع سياقه في غاية الدقة والخطورة.

د- أكثر أنواع السياق ذيوعاً وانتشاراً هو سياق الكلمات مع بعضها البعض في الآية الواحدة، وسياق الارتباط بين الآيات.

هـ- عدم مراعاة شروط التمسُّك بالسياق له عواقب وخيمة، وغالباً ما



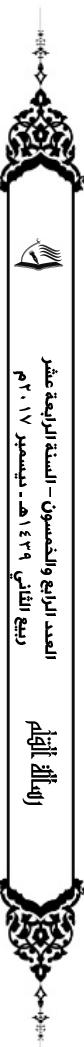
تقود إلى فهمٍ خاطئٍ ومشوّهٍ للدين وابتعاد عن أصوله وأحكامه.

و- استعمال السياق في التفسير يفتقر إلى خبرة وتأهيل خاص، ويحتاج إلى استضاءات مستمرةً بروايات أهل العصمة والطهارة عليهم السلام طول الطريق.

والحمد لله أولاً وآخرًا وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ الطَّاهِرِينَ.

الهوامش:

- (١) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ج ٣، ص ١١٧.
- (٢) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، الشيخ حسن المصطفوي، ج ٥، ص ٢٧١.
- (٣) سورة فاطر: ٩.
- (٤) سورة القيامة: ٣٠.
- (٥) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، ج ١٣، ص ٢٣٢.
- (٦) كتاب العين، خليل بن أحمد الفراهيدي، ج ٥، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ج ٢، ص ٤٢٤.
- (٧) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ج ٣، ص ١١٧.
- (٨) دروس في علم الأصول، السيد الشهيد محمد باقر الصدر، الحلقة الأولى، ص ١٠٣.
- (٩) بحوث في علم الأصول، تقريرات السيد الشهيد محمد باقر الصدر رض بقلم تلميذه السيد محمود الهاشمي الشاهرودي رحمه الله، ج ٧، ص ١٧٥.
- (١٠) سورة الصافات: ٩٦.
- (١١) متن المتن في الدفاع عن القرآن، السيد محمد محمد الصدر، ص ٢٨.
- (١٢) المصدر نفسه، ص ٢٨.
- (١٣) دروس في علم الأصول، السيد الشهيد محمد باقر الصدر، الحلقة الأولى، ص ١٠٦.



- (١٤) سورة الإسراء: ٨٨
- (١٥) الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، ج ٢، ص ٥٩٨ - ٥٩٩.
- (١٦) سورة آل عمران: ٧.
- (١٧) نقد منهج التفسير والمفسّرين، سالم الصفار، ص ٣٥٥.
- (١٨) انظر مثلاً: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج ١، ص ١٣٤؛ نفحات الرحمن في تفسير القرآن، الشيخ النهاوندي، ج ١، ص ٥٦.
- (١٩) دروس تمهيدية في القواعد التفسيرية، الشيخ علي أكبر السييفي المازندراني، ج ١، ص ١٩١.
- (٢٠) الأصول العامة للفقه المقارن، السيد محمد تقى الحكيم، ص ١٥٢.
- (٢١) سورة الزمر: ٧.
- (٢٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، ج ٤، ص ١١٥.
- (٢٣) سورة الحجر: ٤٢.
- (٢٤) راجع: الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، ج ١٧، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.



وقفة مع وجوب طلاق الخلع

الشيخ علي فاضل الصددي

الملخص:

تعرَّض الكاتبُ في هذه المقالة إلى بحث مسألة الطلاق الخُلعي في ثلاثة نقاط: الأولى: مناقشة أدلة من ذهب إلى وجوب الخلع على الرجل عند كراهة المرأة، وذكر الأدلة على عدم الوجوب، وتعرَّض إلى الحكم بين كونه مستحبًا أم مباحًا. والثانية: معنى كراهة المرأة وما يعتبر فيها. والثالثة: مقدار ما يجوز للرجل أخذها عند الخلع، وألحق البحث ببيان مفad قاعدة (كل مفتٍ ضامن).

المقدمة:

قال في نهاية المرام: "مذهب الأصحاب أن الخلع مشروط بكراهة المرأة للزوج، فلو خالعها من دون كراحتها له وقع باطلًا، ويدلُّ على ذلك - مضافاً إلى ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَن يَخَافُوا أَلَا يُتَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ - الأخبار الكثيرة كصحيحة الحلبية عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَام قال: «المختلعة لا يحلّ خلعها حتى تقول لزوجها: والله لا أبَرَ لك قسماً».

ولا أطیع لك أمرأً، ولا أغتسل لك من جنابة، ولاؤطئنْ فراشك، ولاذنْ عليك
بغير إذنك، وقد كان الناس يرخّضون فيما دون هذا، فإذا قالت المرأة ذلك لزوجها
حلّ له ما أخذ منها، وكانت عنده على تطليقتين باقيتين، وكان الخلع تطليقة، وقال:
يكون الكلام من عندها، يعني: من غير أن تعلم»...^(١).

ثم إن العالمة قيщей في القواعد قال: «هو إما حرام، لأن يكرهها
لتخالعه وتسقط حقّها، فلا يصح بذلها ولا يسقط حقّها، ويقع الطلاق
رجعيًا إن تُبع به، وإلا بطل، وكذا لو منعها حقّها من النفقة وما تستحّقه
حتى خالعه على إشكال، وإنما مباح، بأن تكره المرأة الرجل فتبذل له
مalaً ليخلعها عليه، وإنما مستحب، بأن تقول: لا دخلنْ عليك من تكرهه،
وقيل: يجب^(٢).

وقال في كشف اللثام: «ثم لم أرَ من الأصحاب من فرق بين أن تكرهه
أو تقول له ذلك بالإباحة على الأول، والاستحباب أو الوجوب على الثاني
إلا المصنف»^(٣).

محل الكلام:

وكيف ما كان فالمشهور عدم وجوب خلعها، وظاهر الشيخ في النهاية
وجوب الخلع إذا قالت المرأة لزوجها: إني لا أطیع لك أمرأً، ولا أقيم لك
حدًّا، ولا أغتسل لك من جنابة، ولاؤطئنْ فراشك من تكرهه إن لم
تطلقني، فمتي سمع منها هذا القول، أو علم من حالها عصيانيه في شيء من
ذلك وإن لم تنطق به وجب عليه خلعها^(٤)، وتبعه ابن زهرة^(٥) في الغنية^(٦)،
وابن حمزة^(٧) في الوسيلة^(٨)، وذهب أبو الصلاح^(٩) إلى عدم حلّ إمساكها
لذلك^(٧)، وذهب الصهرشتى^(٩) إلى وجوب طلاقها^(٨).

وجوه الوجوب:

وقد استدلّ لوجوب الخلع بوجوه^(٩):

الأول: ما في المخالف من أنّ النهي عن المنكر واجب، وإنما يتمّ
بهذا الخلع فيجب^(١٠).

وفيه - مضافاً إلى ما أجاب به في نفس المخالف من منع المقدمة
الثانية، وأنّ النهي عن المنكر قد يتمّ بغير الخلع من الإنكار القلبيّ
كالإعراض والهجر، واللسانى، والفعلى، فلا ينحصر في الخلع ليتعيّن - أنّ
الخلع ليس من النهي عن المنكر في شيء؛ لأنّ النهي عن المنكر بمراتبه
عبارة عن زجر الغير ليترك المنكر باختياره، بينما الخلع من دفع المنكر،
ودفع المنكر إنّما يلزم فيما اهتمّ الشارع بمنعه، ولم يرضَ بوجوده ولو
بتتوسّط غير المكلّف بل الحيوان.

الثاني: ما ذكره أحد المعاصرين من قضاء الارتكاز والاعتبار العقلائيّ
في العقود بأنّ العقد إذا كان لازماً فإنّ لزومه يكون من ناحية طرف في العقد،
وكذلك إذا كان جائزاً فإنّ جوازه يطahما معاً، أمّا الاختلاف بين الطرفين
في لزوم العقد وجوازه، بحيث يكون لازماً بالنسبة لأحد الطرفين وجائزاً
بالنسبة للطرف الآخر، فهو مخالف للارتكاز العقلائي؛ إذ لا يرى العقلاء
مبرراً لإعطاء أحد الطرفين قرار فسخ العقد باختياره فيما يُحرم الطرف
الآخر من هذا الحق، بل يرونـه تمييزاً وترجيحـاً بلا مرجح ولا مبرر، بل
هو - إذا تحقّق - يضيع حقوق الأفراد، ويخالف الحياة الاجتماعية، كما
يناقض مبدأ المساواة في القوانين^(١١) - وأضاف - وفي مسألتنا هنا لا يقبل
العقلاء أن يكون للرجل الحق - متى أراد - أن يفسخ أو يلغى أو يبطل

عقد النكاح القائم بطرفين اثنين فيما تسلب المرأة - التي هي طرف أساس في هذا العقد - من مثل هذا الحق، وبناءً عليه يقول العقلاء: حيث لا مجال لأن تطلق المرأة نفسها فلا بد من العثور على سبيل يكُن المرأة من إلزام الرجل بإلغاء العقد، ولو لم يرحب الرجل في ذلك أو يرده؛ حتى تتم بهذه الطريقة مراعاة البناء العقلائي في العقود، وهو البناء الذي لم يرده أي دليل على الردع عنه لا عموماً ولا خصوصاً^(١٢).

ويلاحظ عليه أنَّ الارتكاز العقلائي المدعى مرجعه إلى سيرة عقلائية يراد بها إثبات حكم شرعيٍّ كليٍّ، وهذه السيرة بالإضافة إلى عقد النكاح معلومة العدم إن على اللزوم من الطرفين أو عدمه منهما، بل بالإضافة إلى سائر العقود والمعاملات، وما ذكر محضر استمزاج واستئناس بفقاء المساواة بين الرجل والمرأة وعدم التمييز بينهما، ولو كان عند العقلاء شيء من البناء المذكور لما دار في معاملاتهم خيار الشرط لأحد المتعاملين، وعلى تقدير قيام السيرة فعلاً لا يحرز اتصالها بزمن المعصوم عليهما، والقول بأنَّ مركبات السيرة العقلائية لا تختلف من زمان إلى آخر، ففرض حدوث سيرة عقلائية لا يخلو من صعوبة - ليس سديداً على إطلاقه؛ فإنَّ تكون السير العقلائية ليس على نسق واحد؛ فإنَّ شطرَا منها وإن كان ناشئاً من غرائز فطرية جبلت عليها النفس البشرية، وأودعها الله سبحانه فيها، وهي مشتركة بين كل الناس، وتعتمد باختلاف أديانهم وتوجهاتهم وأذمامهم وأماكنهم - إلا أنَّ شطرَا منها قد نشأ من تبني العقلاء فيما بينهم عليه لوجود مصلحة ما، أو ملائمة للطبع، فليس له وراء تطابق آراء العقلاء عليه، كما أنَّ شطرَا منها قد نشأ عمما هو أدون من ذلك

ولأغراض شخصية أو تأثير ساذج، فيعقل -بالتالي- تأثير حدوث التباينات العقلائية النظمانية فضلاً عما هو دون ذلك.

على أنّ عقد النكاح بالاتفاق عقد لازمٌ من الطرفين غاية الأمر
يتسليط الزوج بعشل الطلاق والخلع على تحديده وإناء امتداده الرماني، فلا
يأتي فيه أنه إما أن يكون لازماً من الطرفين أو غير لازم منهما.

الثالث: ما ذكره أحد المعاصرين أيضاً من حكم العقل بقبح تمكين الزوج لوحده من طلاق زوجته مع دفعه المهر لها متى أراد حتى لو لم ترض الزوجة بذلك، فيما تحرّم المرأة من ذلك، فلا تقدر - ولو بالتخلي عن مهرها أو دفعه - أن تلزم الزوج بطلاقها، ففي هذا النوع من الموارد يحكم العقل بأنَّ هذا ظلم على المرأة؛ لأنَّ العقل لا يرى اختلافاً بين المرأة والرجل في مثل هذا الحق^(١٣).

ويلاحظ عليه: إن حكم العقل بقبح الظلم -سواءً كان لشبوته لدى العقلاء لما فيه من مفسدة نوعية أم كان لمنافرته للقوّة العاقلة- وإن كان مما لا ريب فيه، إلا أنَّ كون هذا الشيء الجزئيُّ من الظلم أو ليس منه مما يختلف فيه، ولا شأن للعقل بذلك وراء إدراكه الأمور الكللية، فلا يرجع إليه في مصداقية شيءٍ للظلم، بل المرجع على المسلك الأول هم العقلاء، وما عليه بناؤهم العمليُّ، وبه يرتفع الشكُّ، وقد أسلفنا ما عليه بناؤهم عند التعرُّض للدليل الثاني-الارتکاز العقلائيُّ-، ويكتفي لرفض فكرة اشتراك اللزوم وعدمه بين الزوجين، وكذا بين غيرهما من المتعاقدَين- التعاطي العقلائيُّ خارجاً على جعل الخيار لأحد المتعاقدَين. وأمّا المرجع على المسلك الثاني فهو الوجdan السليم عن

العائق والكدورات، فهو أعدل شاهد في تشخيص المصاديق، فيرتفع
بمراجعةه الاستبهان، على أنه يكذب وجدان الظلم في مقامنا -لو ادعى-
تباني العقلاء على مثله.

فالصحيح -بعد عدم نهوض وجه لوجوب الخلع على الرجل- ما
عليه المشهور من عدم وجوبه، بل ما قيل من استحبابه^(١٤) -هو الآخر-
مما لا دليل عليه بالخصوص، وقد اعترف بذلك السيد قده في نهاية المرام،
فإنه -بعد أن استجود تأويل كلام النهاية من قبل العلامة في المختلف
بإرادة شدة الاستحباب- قال: "وأجود منه [الحكم بإباحة الخلع حيثن]
لا استحباب؛ إذ ليس في الأخبار دلالة على أزيد من الإباحة"^(١٥)، نعم
يستحب؛ للتحرّز من وقوعها في المأثم، ولطهيب قلبها، ويزول ما بينهما
من الشحنة، كما أفاد الفاضل الهندي قده^(١٦).

حد الكراهة المعتبرة:

شم إنه يشترط في الخلع كراهة الزوجة للزوج نصاً وفتوى، ولكن هل
يكتفى بكراحتها له وإن لم تكن بحد يخاف منها الوقوع في الحرام؟

ظاهر قول الله سبحانه: ﴿.فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَا يُقْيِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾^(١٧) - اعتبار أن تبلغ الكراهة حدًا يخاف معها
عدم إقامة حدود الله سبحانه، وهو الواضح من النصوص الآتية، وعليه
جملة من أعظم العصر^(١٨).

واحتمل الاكتفاء بطلق الكراهة، وأن الآية واردة في مقام بيان حكمة
التشريع النوعي لا تحديد موضوع الكراهة منها.^(١٩)



ولكته خلاف ظاهرها، سِيَّما مع اعتضادها بالروايات، ومنها ما هو تفسير لها، وهي رواية أبي بصير عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ ثُمَّ قَالَ: سأله عن المختلعة كيف يكون خلعها؟ فقال: «لا يحلّ خلعها حتى تقول: (والله) لا أبِر لَكَ قَسَمًا، ولا أطِيع لَكَ أَمْرًا، وَلَا وُطْئَنَ فِرَاشَكَ، وَلَا دَخْلَنَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنِكَ، فَإِذَا هِيَ قَالَتْ ذَلِكَ حَلٌّ لَهُ خَلْعُهَا، وَحَلٌّ لَهُ مَا أَخْذَ مِنْهَا مِنْ مَهْرِهَا وَمَا زَادَ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾...»^(٢٠).

وقد تنزّل جملة من الأعلام من الفتوى باعتبار أن تكون الكراهة بحدٍ يخاف منها الوقع في الحرام - إلى الاحتياط بذلك^(٢١)؛ ولعله لما أفاده السيد الأستاذ الحائرى^(٢٢) من استبعاد سدّ باب الخلع تماماً على المؤمنة التي تكره زوجها كراهةً شديدة، وترى الفكّ منه ب福德ية، ولكنّ شدة إيمانها تمنعها عن ارتكاب المعصية^(٢٣).

والمعجب حقاً - بعد دلالة الآية والنصوص الآتية - ما صار إليه أحدُ المعاصرين من وجوب الخلع على الزوج إذا كرهته زوجته بأيّ شكلٍ من أشكال الكراهة، ولو كانت ناشئةً من إرادتها الزواج من شخص آخر، وأنّه به يُجاب عن إحدى الشبهات المسجلة على النظام الحقوقى الإسلامي^(٢٤).

المناط في الكراهة:

وهل يعتبر في صحة الخلع -وراء شرط مخافة عدم إقامة حدود الله سبحانه المدلول للكتاب العزيز - أن يسبق الخلع تلفظ الزوجة بما اشتملت عليه روايات الباب الأوّل من كتاب الخلع والمبارة من الوسائل،

كصحیحة الحلبی وروایة أبي بصیر المتقدّمتین، وصحیحة محمد بن مسلم عن أبي عبد الله علیه السلام قال: «المختلعة التي تقول لزوجها: اخلعني وأنا أعطیک ما أخذت منك؟ فقال: لا يحلّ له أن يأخذ منها شيئاً حتى يقول: والله لا أبُر لك قسماً ولا أطیع لك أمراً، ولا ذنباً في بيتك بغير إذنك، ولا وطن فراشك غيرك، فإذا فعلت ذلك من غير أن يعلّمها حلّ له ما أخذ منها..»^(٢٤)، ومثلهما غيرهما^(٢٥)، وأنّ كلاً للأمرین معتبر؟

ففي السرائر إنّ إجماع أصحابنا على أنه لا يجوز له خلعها، إلا بعد أن يسمع منها ما لا يحل ذكره من قولها: لا اغتسل لك من جنابة، ولا أقيم لك حدّاً، ولا وطن فراشك من تكرهه، أو يعلم ذلك منها فعلاً.^(٢٦).

ولكنّ بعض الروایات اكتفت بما دون تلك الكلمات كصحیحة محمد بن مسلم الأخرى عن أبي جعفر علیه السلام قال: «إذا قالت المرأة لزوجها جملة لا أطیع لك أمراً مفسّراً وغير مفسّراً حلّ له ما أخذ منها، وليس له عليها رجعة» وقال الحق علیه السلام في الشرائع-٣: ٥٣ - «لو قالت: لأدخلن عليك من تكرهه لم يجب عليه خلعها، بل يستحب، وفيه رواية بالوجوب»، قال في كشف اللثام-٨: ١٨٧^(٢٧)، بل صريح كلام ابن ادریس کفاية الفعل، مما يؤذن بعدم الموضوعيّة للفظ، بل المعتبر الجامع بينهما، وهو الكراهة التي بلغت حدّاً يخاف معها عدم إقامة حدود الله سبحانه، كما أفاد في الجوادر قائلاً: «بل يقوى في النظر من ذلك كله أن المدار على الكراهة، إلا أنها لما كانت لا تعلم غالباً إلا بالقول أو الفعل، بل الأخير منها لا دلالة فيه غالباً إلا بأن تفعل المخالفة لزوجها - فلم يبق إلا القول الدال على ذلك»^(٢٨).

والوجه الصناعي لذلك أنه لما كان تلفظ الزوجة بتلك الكلمات طریقاً عریضاً إلى العلم بكراهتها لزوجها التي يخاف معها عدم إقامة حدود الله سبحانه - كان الجمع العریض بين دلیلیهما من الروايات والآیة حمل الأول على الحكم الظاهري، والثاني على الحكم الواقعي، فالموضوع للحكم الواقعي هو الكراهة وخوف عدم إقامة حدود الله، والموضوع للحكم الظاهري هو التلفظ بتلك الكلمات، كما هو الحال في كل ما كان من هذا القبيل مما عُلق فيه الحكم تارةً على الطريق، وأخرى على ذي الطريق، كما في مسألة جواز التصرف في مال الغير، وأنَّ المعتبر الإذن اللفظي كما هو ظاهر التوقيع الشریف أو الرضا الباطني كما هو ظاهر موئقة سماعة، أو أنَّ كلاً منهما معتبر، فإنَّ مقتضى الجمع العریض بين الدلیلین - كما أفاد في المستمسک - وإن كان اعتبارهما معاً، لكن - والكلام لسید المستمسک قىٰ - لما كان الإذن من قبیل الطريق العریض إلى الرضا كان الجمع العریض بين الدلیلین حمل الأول على الحكم الظاهري، والثاني على الحكم الواقعي، فيكون الموضوع للحكم الواقعي هو الرضا الباطني، والموضوع للحكم الظاهري هو الإذن، فالمدار في الرخصة واقعاً هو الرضا الباطني، ولو أذن المالك بالتصرف مع العلم بعدم الرضا لم يجُز، ولو علم الرضا مع عدم إنشاء الإذن جاز التصرف^(۲۹).

إذن فالمدار في المقام واقعاً على الكراهة التي يخاف معها عدم إقامة حدود الله، ولو علمت بنفس مخالفتها لبعض حدود الله أو بتوعدها الكتبی صحُّ الخلع، ولو علمت تلك الكلمات فقالتها - رغم عدم الكراهة -

يصح خلعها.

حدّ عوض الخلع:

ثم المعروف جواز أن يكون عوض الخلع أكثر من المهر المسمى، وفي الجواهر: "(و) على كل حال فـ (لا تقدير فيه، بل يجوز ولو كان زائداً عمما وصل إليها من مهر وغيره) بلا خلاف أجده فيه نصاً وفتوى" ^(٣٠)، بل جواز ذلك من المتسالم عليه، فقد أرسـل في المبسوط وغيره إرسـال المسلمات ^(٣١)، كما تسلـموا على أنه أحد الفوارق بين الخلع والمباراة؛ فإنـهم - بعد اتفاقـهم على عدم جواز أخذ الزائد على ما آتـاهـا في المبارـاة - اختلفـوا في نفس المـبارـاة بين قـائل بـجـوازـ الأـخـذـ بـقـدـارـ ماـ آـتـاهـاـ، وـقـائل بـجـوازـ أـخـذـ دونـ ماـ آـتـاهـاـ خـاصـةـ، وـلـكـنـهـمـ لمـ يـخـتـلـفـواـ فيـ جـوازـ أـخـذـ فوقـ ماـ آـتـاهـاـ فيـ الخـلـعـ.

ويدلّ عليه - مضافاً إلى إطلاق قوله سبحانه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتِ بِهِ﴾، وإطلاقات جملة من الروايات ^(٣٢) - النصوص المستفيضة، منها صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «المـبارـاةـ يـؤـخـذـ منـهـاـ دونـ الصـدـاقـ، وـالـمـخـتـلـعـةـ يـؤـخـذـ منـهـاـ ماـ (شـاءـ)ـ أوـ ماـ تـرـاضـيـاـ عـلـيـهـ منـ صـدـاقـ أوـ أـكـثـرـ، وـإـنـماـ صـارـتـ المـبـارـاةـ يـؤـخـذـ منـهـاـ دونـ الصـدـاقـ، وـالـمـخـتـلـعـةـ يـؤـخـذـ منـهـاـ ماـ شـاءـ؛ لـأـنـ المـخـتـلـعـةـ تـعـتـدـيـ فـيـ الـكـلـامـ، وـتـكـلـمـ بـمـاـ لـاـ يـحـلـ لـهـ» ^(٣٣).

ومنها موئـقةـ سـمـاعةـ قـالـ: سـأـلـتـهـ عـنـ المـخـتـلـعـةـ فـقـالـ: «لـاـ يـحـلـ لـزـوـجـهـاـ أـنـ يـخـلـعـهـاـ حـتـىـ تـقـولـ: لـاـ أـبـرـ لـكـ قـسـماـ إـلـىـ أـنـ قـالــ إـذـاـ اـخـتـلـعـتـ فـهـيـ بـأـئـنـ، وـلـهـ

أن يأخذ من مالها ما قدر عليه، وليس له أن يأخذ من المبارئة كلَّ الذي
أعطاه»^(٣٤).

ويؤيّده روایة أبي بصیر المتقدّمة، وقد تضمّنت الاستشهاد بالآية،
«..وحلَّ له ما أخذ منها من مهرها وما زاد، وذلك قول الله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾..»، وروایة ابن سنان - المنقوله عن تفسير
القمي^(٣٥)، هذا.

وقد صار بعض المعاصرین إلى حرمة الزيادة على المهر^(٣٦)، وقال عن
الآية: بأنَّه لا عموم فيها، وأنَّها في مقام بيان جواز أخذ الفدية من المرأة،
ولا نظر لها إلى مقدارها^(٣٧).

وفيه أنَّ الآية وإن لم يكن فيها عموم وضعیٌّ، ولكنَّها مطلقة، فبضم
قرینة الحکمة يستفاد جواز أخذ ما زاد على ما أعطاها، فالآية لو قالت:
(فلا جناح عليهما أن تفتدي) ل كانت في مقام بيان أصل الافتداء، فلا
يكون لها إطلاق؛ ليتمسّك به لجواز أخذ أكثر مما آتاهما، ولكنَّها قالت (فلا
جناح عليهما فيما افتدت به) فمقتضى إطلاقها جواز أخذ الذي افتدت
به ولو كان زائداً عما آتاهما.

وقال: بأنَّ معارضة ما اشتملت عليه صحیحة أبي بصیر عن أبي عبد
الله علیه السلام في حديث المباراة قال: «ولا يحلُّ لزوجها أن يأخذ منها إلا المهر فما
دونه»^(٣٨) - من جواز أخذ المهر فما دونه، (نعم معارضتها) لما تضمّنته
صحیحة زرارة وموثّقة سماعة من جواز أخذ دون ما أعطاها خاصة،
يسقطهما عن الحجّية^(٣٩).

وفيه أنَّ الذي يسقط خصوص مورد المعارضة، ضرورة لزوم

التفكيك في الحجّية في مثل المقام، وهو غير عزيز في أبواب الفقه؛ فإنه بحذف مادة المعارضة في الصريحة والموثقة -أعني ما يتصل بالمبارة- تبقى مادة بحثنا في الخلع فيما قائمٌ بلا أدلة احتلال ومستقلةً بذاتها، والضابط هو تعدد المفاد مع استقلال أحدهما عن الآخر، فبسقوط أحد المفادات عن الحجّية تحتفظ البقية بها، وليس مادة بحثنا في الصريحة والموثقة من قبيل الدلالة التضمنية في ذيل صريحة إسحاق بن عمّار قال: سألت أبا الحسن عَلَيْهِ الْحَسَنَ عن ابن عشر سنين، يحجّ؟ قال: «عليه حجّة الإسلام إذا احتمل، وكذلك البارية عليها الحجّ إذا طمثت»^(٤٠) -فإنه بعد القطع بعدم اعتبار الطمث في وجوب الحجّ على البارية، وسقوط هذا المفاد عن الحجّية -لا يقال بأنّ مفاد الذيل أمران: اعتبار البلوغ واعتبار الطمث في وجوب الحجّ على البارية، وأنّه بسقوط اعتبار طمثها فيه يبقى اعتبار بلوغها؛ وذلك لعدم كونهما مفادات مستقلّين، فبسقوط أحدهما عن الحجّية يسقط الآخر لا محالة. كما أنّ مادة بحثنا ليست من قبيل القيد للجملة وأنّه بسقوطه عن الحجّية تسقط الجملة -هي الأخرى - عنها.

وقال: إنّ جواز أخذ ما قدر عليه من ماهًا من صداق أو أكثر خلافٌ مبدأ العدالة، بل هو حكم ظالم، ولا يلتقي مع لزوم قيام الناس بالقسط، ومصادم للتسرير بإحسان المأمور به^(٤١).

ويكفيها في ردّه ما تقدّم من ردٍّ على الدليل الثالث من أدلة وجوب الخلع، فلا نطيل بإعادته، ثم إنّ الزيادة قد تكون ضعف أو أضعف المهر المسمّى، وقد تكون الزيادة عبارة عن درهم واحد، فهل تأتي تهويلاً

الظلم وعدم القسطِ والتسریح بإحسان في مثل الفرض الثاني؟! أم سيرتكب التفصیل؟ فما هو میزانه الدقيق؟ ثم أليس من المحتمل أن الشارع بتشريعه للخلع وفدائه كما لاحظ ألا يبقى وضع المرأة مأساویاً في بقاء عشرتها مع زوج تكرهه، كذلك لاحظ بجعله جواز أخذ الزائد ألا یسمح بنقض هذا الميثاق متى ما كرهت المرأة زوجها بمجرد ردها لما أخذت منه؛ إذ رده ميسور عادةً، فإذا طلب الزوج الزائد عليه مما تملکه وضعها في المحك والموازنة بين المال الزائد الذي ستبدلها من جهة، وبين رفع حرجها في العيش مع زوج تكرهه من جهة أخرى؟ على أن ما يتصل ببنافة أخذ الزائد عمما آتتها لللزم التسریح بإحسان ستعرف إجابته من خلال ما ستنقله -إن شاء الله- من كلام ابن حزم في الحال ردًا على أبي حنیفة في قوله بعدم جواز أخذ الزائد، وعموماً فإن مثل هذه المناقشة والرد للروايات من الاجتهاد في مقابل النص، ولا يعذر عنه التجافي باللسان.

فتتحقق أن ما هو معروف من جواز أخذ ما يزيد على المهر المسمى فديةًّا وعوضاً عن الخلع هو الصحيح.

ثم من القريب جداً ورود هذه الروايات دفعاً لما عليه بعض العامة كأبي حنیفة؛ فإن ابن حزم -بعد أن نقل عنه قوله بعدم جواز أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها، فإن فعل فليتصدق بالزيادة^(٤٢)- أخذ في التشنيع عليه قائلاً: "وأما قول أبي حنیفة ففي غایة الفساد؛ لأنَّه لا يخلو أخذُه الزيادة على ما أعطاها في صداقها من أن يكون حراماً أو مباحاً، فإن كان حراماً فواجب رده إليها كما قال عطاء، وإن كان مباحاً فلم أمر به

بالصدقة بالزيادة دون سائر ماله، وهذا ظاهر الخطأ، والعجب أنهم يرددون كلام رسول الله [صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] الثابت بدعواهم أنه زائد على ما في القرآن كالمسح على العمامة والاستنشاق وغير ذلك، ثم يأخذون بكلام ساقط متناقض مخالف لما في القرآن، ليس معهم فيه إلا رأي أبي حنيفة فقط، فوجب الأخذ بعموم قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ - إلى أن قال - وقال بعضهم: "من أخذ أكثر مما أعطى فلم يسرّح بإحسان".

قلنا: لا فرق بين أخذه كلّ ما أعطاها أو بعض ما أعطاها أو أكثر مما أعطاها بغير حقّ، فحينئذ يكون غير مسرّح بإحسان، [أمّا] أن يأخذ كلّ ذلك حيث أباح الله تعالى له أخذه، فهو مسرّح بإحسان، ولو أباح الله له قتلها لكان محسناً في ذلك.

(وأضاف) فإن قيل: أنتم تقنعون من أن يتصدق بجميع ماله أو بما لا يبقى لنفسه غنىًّا بعده، ومن أن يصدق الرجل بماله كلّه، وتبيحون لها أن تعطي مالها كلّه.

قلنا: إنما نتّبع في ذلك أمر الله تعالى، فجاء النهي عن الصدقة إلا بما يبقى غنىًّا، وبأن لا يصدقها إزاره؛ إذ لا غنى به عنه، وجاء النصّ بأن (لا جناح عليهم فيما افتادت به)، فوقفنا عند كلّ ذلك، ولم نعترض على أوامر الله تعالى وأوامر رسوله [صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] بالرأي..^(٤٣).

والحمد لله أولاً وآخراً، وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْخَاتَمِ وآلِهِ وسَلَّمَ.

ملحق: قاعدة (كلّ مُفتٍ ضامن)

مقدمة:

من محظورات الإحرام قلم الأظافر، وذكروا أنّ كفارة تقليم كلّ ظفر من اليد أو الرجل مدّ من الطعام ما لم يبلغ في كلّ منها العشرة، فإذا بلغها ولو في مجالس متعددة - كانت كفارته شاة لكلّ من أظافر اليدين وأظافر الرجلين، وأنّ الكفارة في تقليم أظافر اليدين والرجلين جميعاً في مجلس واحد هي شاة واحدة.

وفي الجواهر: «(ولو أفتاه) مفت خطاً (بتقليم ظفره فـ) قلّمه و(أدماه لزم المفتى شاة) بلا خلاف أجده فيه؛ لخبر إسحاق عن أبي إبراهيم عليهما السلام: «إنَّ رجلاً قلَّمَ أظفاره، فكانت إصبعٌ له عليلة، فترك ظفره لم يقصه، فأفتاه رجلٌ بعد ما أحرم فقصَّه فأدماه، قال: على الذي أفتاه شاة» المنجبر بعمل الأصحاب، كما اعترف به غير واحد^(٤٤).

وفي الدروس: «ولو أفتاه بالإدماء فأدمى أو بغierre من المحظورات احتمل الضمان؛ لما روى: «أنَّ كلّ مُفتٍ ضامن»^(٤٥).

محل الكلام:

وقد وردت هذه القاعدة بنصّها -بقطع النظر عن تطبيقها- في صحيبة عبد الرحمن بن الحجاج قال: "كان أبو عبد الله عليهما السلام قاعداً في حلقة ربيعة الرأي^(٤٦)، فجاء أعرابي، فسأل ربيعة الرأي عن مسألة، فأجابه، فلما سكت قال له الأعرابي: أهو في عنقك؟ فسكت عنه ربيعة، ولم يرد عليه شيئاً، فأعاد المسألة عليه، فأجابه بمثل ذلك، فقال له الأعرابي: أهو في

عنقك؟ فسكت ربيعة، فقال أبو عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هو في عنقه قال أو لم يقل؛ (و) كل مُفْتٍ ضامن»^(٤٧).

فيقع البحث في المراد بالضمان في هذه القاعدة: فمن الاحتمالات فيه ما يستفاد من عبارة الشهيد قىش في الدروس، وقد تقدّمت - وإن استقرب خلافه - وهو الضمان بمعنى الدَّرَك المالي، فتلزم المفتى الكفار عن فعل المستفتى على نسق ما أفتى به المشهور من لزومها على المفتى في قلم الأظفار مع الإدماء.

ويلاحظ عليه: إنَّ ظاهر قول السائل: (أ هو في عنقك؟)، وقول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هو في عنقه» كون الضمان بمعنى المسائلة والإثم والتبعية الأخرى، لا الضمان بمعنى لزوم الكفار ونحوها على المفتى، قال في الجوادر - متعمقاً ما ذكر في الدروس:- "والآقوى خلافه؛ للأصل بعد معلومية عدم إرادة ما نحن فيه من الضمان، ولذا قال هو قبل ذلك: إنه لو أفتاه مُفْتٍ بالحلق فلا شيء عليه، والأقرب عدم ضمان المفتى"^(٤٨).

ثُمَّ إنَّ الضمان بالمعنى المستفاد من عبارة الدروس إنما يتصور فيما كان للشيء بطبعه ضمان كما في الدماء والأموال، وأمّا إذا لم يكن له ذلك فلا ضمان على المفتى، ولعلَّه لهذا نفى الشهيد قىش الضمان عن المفتى بالحلق؛ فإنه لا كفارة في الحلق جهلاً، فلا يلزم المفتى به شيء، وأمّا احتماله قىش لضمان المفتى بالإدماء فلعلَّه لاحتماله قىش موضوعيته التامة في ثبوت الكفار على المفتى بقلم الظفر مع الإدماء، ولكن يبعد هذا التوجيه أمران: احتماله قىش لضمان المفتى في غير الإدماء من محظورات الإحرام، واستشهاده بكبرى «كل مُفْتٍ ضامن»، فالضمان للإفتاء لا للإدماء، هذا.

ولا يحتمل أنّ ضمان المفتي -بأيّ معنى فُرض - مختصٌ بنَ كَانَ مِنْ أَهْلَ الاجتِهادِ، فَكَمَا يُلزِمُ الْجَهَدَ يُلزِمُ غَيْرَهُ، نَعَمُ الضَّمَانُ بِعْنَى الإِثْمِ وَالْتَّبَعَةِ الْأَخْرَوِيَّةِ لَا يُلزِمُ الْمَعْذُورَ، فَالْفَقِيهُ إِذَا اسْتَفْرَغَ وَسَعَهُ فِي اسْتِنبَاطِ حُكْمِ اللَّهِ فَأَخْطَأَهُ فَلَا إِثْمٌ عَلَيْهِ بِالضَّرُورَةِ، وَلَكِنَّهُ يَأْثِمُ مَعَ التَّقْصِيرِ، وَيَأْثِمُ الْمَفْتِي مَعَ دَعْمِ صَلَاحِيَّتِهِ لِلْفَتْوَىِ، وَكَلَاهُما مُحْتَمِلَانِ فِي رَبِيعَةِ الرَّأْيِ^(٤٩).

نَعَمْ قَدْ يَتَرَبَّ الضَّمَانُ بِعْنَى الإِثْمِ عَلَى الْمَفْتِي وَلَوْ كَانَ مَعْذُورًا، وَذَلِكَ فِيمَا إِذَا أَفْتَى عَلَى خَلَافِ الْحُكْمِ الْإِلَزَامِيِّ وَانْكَشَفَ لَهُ خَطْوَهُ وَلَمْ يَبْيَّنْ ذَلِكَ لِلْجَاهِلِ بِالْحَالِ؛ فَإِنْ كَانَ مَعْذُورًا قَبْلَ الْانْكَشَافِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ مَعْذُورًا بَعْدَهُ لَوْ عَمِلَ بِفَتْوَاهُ بَعْدَهُ، وَهَذَا مُسْتَفَادٌ مِنْ نَفْسِ الْقَاعِدَةِ «كُلُّ مُفْتِيٍ ضَامِنٌ»، وَأَنَّ الْعَمَلَ اسْتِنَادًا إِلَى الْفَتْوَىِ يَؤْذِنُ بِالضَّمَانِ وَتَرَبَّ الإِثْمِ.

وَقَدْ تَحْصَلُ مِمَّا تَقْدِمُ أَنَّ الضَّمَانَ فِي الْقَاعِدَةِ لَيْسَ بِالْمَعْنَى الَّذِي احْتَمَلَهُ الشَّهِيدُ قَدِيرٌ، بَلْ بِعْنَى الإِثْمِ وَالْمَسَائِلَةِ وَالْمَوَاهِذَةِ وَالْتَّبَعَةِ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ بِهَذَا الْمَعْنَى إِنَّمَا يَتَرَبَّ مَعَ التَّقْصِيرِ فِي اسْتَفْرَاغِ الْوَسْعِ أَوْ دَعْمِ الْأَهْلِيَّةِ لِلْفَتْوَىِ، هَذَا.

وَالرَّوَايَاتُ فِي خَطْوَرَةِ الْفُتُّيَا وَالتَّنْدِيدِ بِالْإِفْتَاءِ بِغَيْرِ عِلْمٍ - كَثِيرَةٌ، مِنْهَا صَحِيحَةُ أَبِي عَبِيدَةَ قَالَ: قَالَ أَبُو جَعْفَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ أَفْتَى النَّاسُ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هَدِيًّا مِنَ اللَّهِ لَعَنَّهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، وَلَحِقَهُ وَزَرُّ مَنْ عَمِلَ بِفُتُّيَا»^(٥٠).

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا.

الهوامش:

ربيع الثاني ٢٠١٧ هـ - العدد الرابع والخمسون - السنة الرابعة عشر

النظام

٢٠٤

(١) نهاية المرام: ١٣٥.

(٢) قواعد الأحكام: ١٥٦، ١٥٧.

(٣) كشف اللثام: ٨، ١٨٧.

(٤) النهاية: ٥٢٩، وإنما عبّرنا بأنّ ظاهر النهاية هو الوجوب؛ لما قاله ابن إدريس رض في السرائر - ٣: ٧٢٤ - قوله رض: (وجب عليه خلعها) على طريق تأكيد الاستحباب دون الفرض والإيجاب؛ لأنّ الشيء إذا كان عندهم شديد الاستحباب أتوا به بلفظ الوجوب على ما بيّنه في غير موضع، وإلا فهو مخّير بين خلعها وطلاقها، وإن سمع منها ما سمع بغير خلاف؛ لأنّ الطلاق بيده، ولا أحد يجره على ذلك.

(٥) غنية التزوع: ٣٧٤، ٣٧٥.

(٦) الوسيلة: ٣٣١.

(٧) الكافي في الفقه: ٣٠٧.

(٨) إصلاح الشيعة: ٤٥٨، واختار وجوب الخلع أحد المعاصرین ب مجرد الكراهة - انظر: وجوب طلاق الخلع على الرجل، طبقاً لنظريات الشيخ يوسف الصانعي، وهي الحلقة (٨) من سلسلة الفقه المعاصر.

(٩) وقال الحقّ رض في الشرائع - ٣: ٥٣ - ولو قالت: لأدخلنّ عليك من تكرهه لم يجب عليه خلعها، بل يستحب، وفيه رواية بالوجوب، قال في كشف اللثام - ٨: ١٨٧:- ولم نظر بها.

(١٠) مختلف الشيعة: ٣٩١، وجوب طلاق الخلع على الرجل، طبقاً لنظريات الشيخ يوسف الصانعي: ٤٢.

(١١) وجوب طلاق الخلع على الرجل، طبقاً لنظريات الشيخ يوسف الصانعي: ٤٩.

(١٢) نفس المصدر: ٥٠.

(١٣) نفس المصدر: ٥٢.



- (١٤) قاله المحقق بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ في الشرائع - ٣: ٥٣، ومحضره: ٢٠٣.
- (١٥) نهاية المرام: ٢: ١٣٧.
- (١٦) كشف اللثام: ٨: ١٨٧.
- (١٧) سورة البقرة: ٢٢٩.
- (١٨) وهم الآيات العظام: السيد السيستاني - منهاجه: ٣: ٦١٥ م ١٩٢، والشيخ الوحديد الحراساني - منهاجه: ٣: ٣٤٢ م ١٤٨٣ مع التعليقة (١٠٩٤)، والسيد محمد سعيد الحكيم - منهاجه: ٣: ٩٥ م ١٠٧.
- (١٩) مهذب الأحكام: ٢٦: ١٩٥.
- (٢٠) وسائل الشيعة: ٢٢: ٢٨٢ ب ١ من كتاب الخلع والمماراة ح ٩.
- (٢١) وسيلة النجاة وبها مشها تعاليق بعض الأعلام: ٢: ٥٣٨ م ١٣، منهاج الصالحين للإمام الحكيم قتيل وعليه تعليقة الشهيد الصدر قتيل: ٢: ٣٢٥ م ٢ ولم يخالفه المعلق، منهاج الصالحين للإمام الحوزي قتيل: ٢: ٣٠٥ م ١٤٨٣، كلمة التقوى: ٨: ٢٨٠ م ١٥١.
- (٢٢) منهاج الصالحين (المعاملات / القسم الأول): ٥٦٦.
- (٢٣) وجوب طلاق الخلع على الرجل، طبقاً لنظريات الشيخ يوسف الصانعي: ٣٢، ٣٣، ٨٧، ولكنّه على مستوى الفتوى صار في تعليقته على تحرير الوسيلة إلى اعتبار الكراهة الشديدة، وإن لم يخف معها على عدم إقامة حدود الله سبحانه، كما لو كانت الزوجة مؤمنة صابرة، فيصح خلعها - تعليقته ٣٥٦ التعليقية ٢.
- (٢٤) وسائل الشيعة: ٢٢: ٢٨٠ ب ١ من كتاب الخلع والمماراة ح ٤.
- (٢٥) نفس المصدر: ٢٧٩ - ٢٨٢ ب ١ من كتاب الخلع والمماراة ح ٩ - ٥.
- (٢٦) السرائر: ٢: ٧٢٤.
- (٢٧) وسائل الشيعة: ٢٢: ٢٧٩ ب ١ من كتاب الخلع والمماراة ح ١.
- (٢٨) جواهر الكلام: ٣٣: ٤٣.
- (٢٩) مستمسك العروة الوثقى: ٥: ٤٣٨.

- (٣٠) جواهر الكلام : ٣٣ : ٢٠ .
- (٣١) المبسوط : ٤ : ٣٤٤ ، السرائر : ٤ : ٥١٣ .
- (٣٢) وسائل الشيعة : ٢٢ : ٢٧٩ - ٢٨٢ ب ١ من كتاب الخلع والمبارة ح ١، ٤، ٨-٦ .
- (٣٣) نفس المصدر : ٢٨٧ ب ٤ من كتاب الخلع والمبارة ح ١ .
- (٣٤) نفس المصدر : ٢٨٨ ب ٤ من كتاب الخلع والمبارة ح ٤ .
- (٣٥) نفس المصدر : ٢٩٣ ب ٧ من كتاب الخلع والمبارة ح ٤ .
- (٣٦) وجوب طلاق الخلع على الرجل، طبقاً لنظريات الشيخ يوسف الصانعي: ٦٧-٨٦، تعليقه على تحرير الوسيلة : ٢ : ٣٥٥ م ٩ التعليقة ١ .
- (٣٧) وجوب طلاق الخلع على الرجل، طبقاً لنظريات الشيخ يوسف الصانعي: ٨٥ .
- (٣٨) وسائل الشيعة : ٢٢ : ٢٩٣ ب ٧ من كتاب الخلع والمبارة ح ٤ .
- (٣٩) وجوب طلاق الخلع على الرجل، طبقاً لنظريات الشيخ يوسف الصانعي: ٧٥-٧٢ .
- (٤٠) وسائل الشيعة : ١١ : ٤٥ ب ١٢ من أبواب وجوب الحجّ وشرائطه ح ١ .
- (٤١) وجوب طلاق الخلع على الرجل، طبقاً لنظريات الشيخ يوسف الصانعي: ٧٨-٧٥ .
- (٤٢) المحلى بالآثار : ١٠ : ٢٤١ .
- (٤٣) نفس المصدر: ٢٤٢، ٢٤١ .
- (٤٤) جواهر الكلام : ٢٠ : ٤٠٢ .
- (٤٥) الدروس الشرعية : ١ : ٣٨٤ .
- (٤٦) قال في معجم رجال الحديث - ٨ : ٤٥٥(٢) - ١٨٣ (٤٥٥(٢)) ربيعة بن أبي عبد الرحمن: وربيعة الرأي. وأسم أبي عبد الرحمن فروخ، من أصحاب السجاد علّيهم، رجال الشيخ(٥). وعده في أصحاب الباقر علّيهم(٦)، قائلًا: ربيعة بن أبي عبد الرحمن، المعروف بربيعة الرأي، المدنيّ الفقيه عاميّ.
- (٤٧) وسائل الشيعة : ٢٧ ب ٧ من أبواب آداب القاضي ح ٢ .
- (٤٨) جواهر الكلام : ٢٠ : ٤٠٣ .

(٤٩) عَدَّ الشِّيْخُ جَلَّ جَلَّ فِي رِجَالِهِ مِنْ أَصْحَابِ السَّجَّادَ وَالْبَاقِرِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، كَمَا تَقْدِمُ، قَالَ الشِّيْخُ الْمَامقَانِي قَدَّسَ اللَّهُ تَعَالَى بَرَاطُهُ فِي التَّنْفِيْحِ ٢٧- ١٨٦، ١٦٩- لَا يَخْفَى عَلَيْكَ أَنَّ عَدَّهُ مِنْ رِجَالِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِاعتِبَارِ مُعاصرَتِهِمْ - إِلَى أَنْ قَالَ - وَإِلَّا فَهُوَ مُبَاينٌ لَهُمْ مُفَارِقٌ لطَرِيقِهِمْ، وَطَرِيقُهُمْ فِي الْاسْتِقْلَالِ بِالرَّأْيِ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى مَعْرُوفَةٍ، وَإِضَافَةً إِلَى الرَّأْيِ تُشَعَّرُ بِذَلِكَ، وَهُوَ أَقْدَمُ مِنْ أَبِي حَنِيفَةَ؛ لِإِدْرَاكِهِ الْإِمامِ السَّجَّادِ عَلَيْهِ السَّلَامُ دُونَهُ، وَأَسْبَقَ مِنْهُ فِي الْعَمَلِ بِالرَّأْيِ وَفِي تَرْكِ السُّنْنَةِ النَّبِيَّةِ لِأَجْلِ قَوْلِ الصَّحَابَةِ، كَمَا يَشَهَّدُ بِذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْكَشِيُّ - اخْتِيَارُ مَعْرِفَةِ الرِّجَالِ ١: ٣٦٩ -

(٤٩) عَنْ زَرَارَةَ، قَالَ: جَئْتُ إِلَى حَلْقَةِ الْمَدِينَةِ فِيهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ وَرَبِيعَةُ الرَّأْيِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: يَا زَرَارَةَ سَلِّ رَبِيعَةَ عَنْ شَيْءٍ مَا اخْتَلَفْتُمْ، فَقَلَّتْ: إِنَّ الْكَلَامَ يَوْرُثُ الضَّغَائِنَ، فَقَالَ لِي رَبِيعَةُ الرَّأْيِ: سَلِّ يَا زَرَارَةَ، قَالَ: قَلَّتْ: بَمْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضْرِبُ فِي الْخَمْرِ؟ قَالَ: بِالْجَرِيدِ وَالنَّعْلِ، فَقَلَّتْ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَخْذَ الْيَوْمَ شَارِبَ خَمْرًا، وَقَدَمَ إِلَى الْحَاكِمِ، مَا كَانَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: يَضْرِبُهُ بِالسُّوطِ؛ لِأَنَّ عَمَرَ ضَرَبَ بِالسُّوطِ، قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ: «يَا سَبَّحَنَ اللَّهَ، يَضْرِبُ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجَرِيدِ، وَيَضْرِبُ عَمَرَ بِالسُّوطِ، فَيَتَرَكُ مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَأْخُذُ مَا فَعَلَ عَمَرَ».

(٥٠) وَسَائِلُ الشِّيَعَةِ ٢٧: ٢٢٠ ب٧ مِنْ أَبْوَابِ آدَابِ الْقَاضِيِّ ح١.